ميليسا فليمينغ
Melissa Fleming

أمل أقوى من البحر

حكاية لاجئة مع الحب والخسارة والصمود

A Hope More Powerful Than the Sea

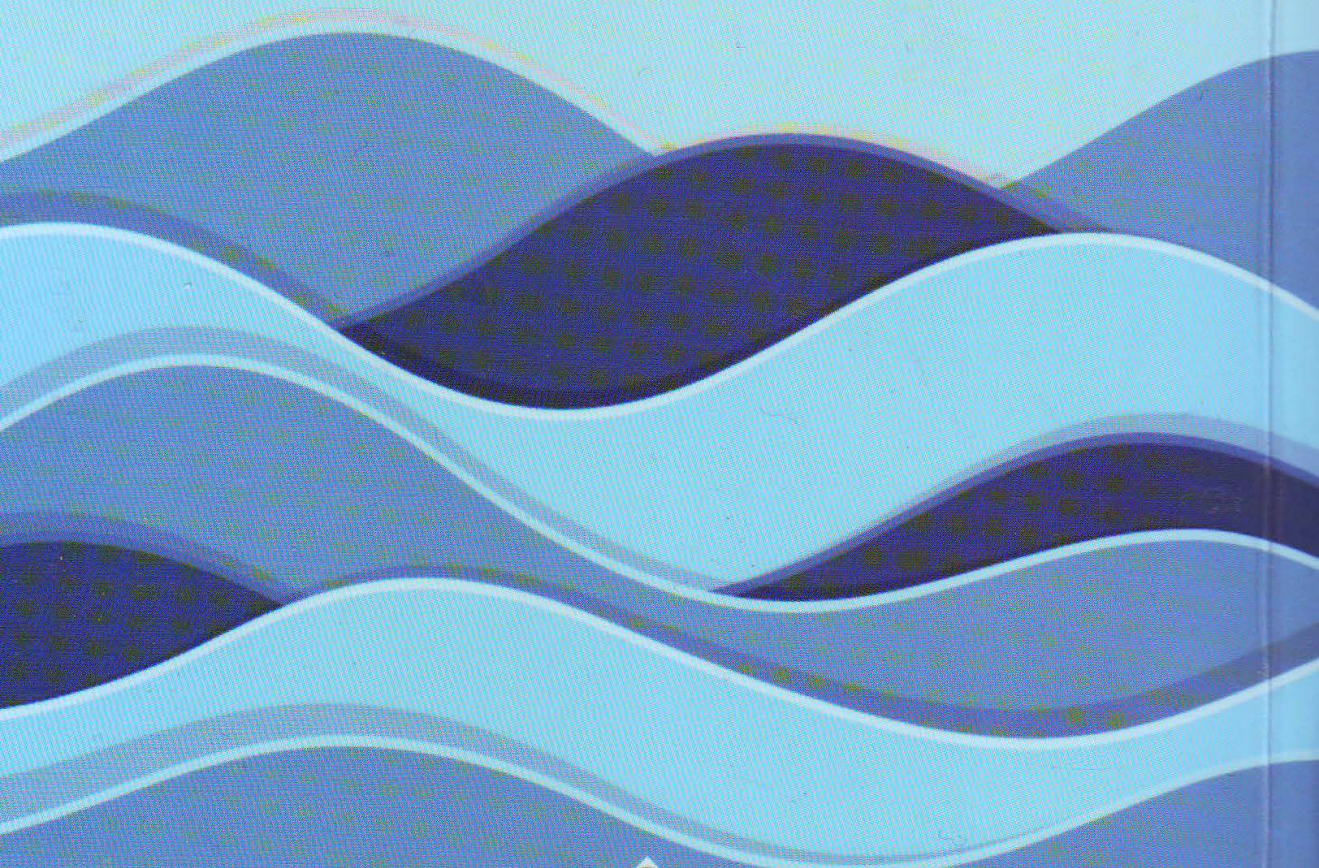

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

أمل أقوى من البحر

حكاية لاجئة مع الحب والخسارة والصمود

A Hope More Powerful Than the Sea

ميليسا فليمينغ

Melissa Fleming

ترجمة:

رامي غدار

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

A Hope More Powerful Than the Sea

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر

Flatiron Books

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

Copyright © 2017 by Melissa Fleming

All rights reserved

«The views expressed herein are those of the author and do not necessarily reflect the views of the United Nations.»

تعكس وجهات النظر الواردة في الكتاب رأي المؤلفة ولا تعكس بالضرورة رأي الأمم المتحدة.

Arabic Copyright © 2017 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى: شباط/فبراير 2017 م - 1438 هـ

ردمك 978-614-01-2164-5

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

المحتويات

الفصل الأول: طفولة في سوريا 9

الفصل الثاني: بداية الحرب 31

الفصل الثالث: حصار درعا 61

الفصل الرابع: حياة اللاجئين 93

الفصل الخامس: حب في المنفى 117

الفصل السادس: الخطوبة 141

الفصل السابع: خطوة نحو المجهول 157

الفصل الثامن: بداية الكابوس 188

الفصل التاسع: لم يبقَ سوى البحر 205

الفصل العاشر: إنقاذ في ساعة الموت 233

خاتمة 265

ملاحظات المؤلفة 273

ملحق الصور 287

لا شك في أن رواية ميليسا فليمينغ التي تدور حول شابة سورية تبحث عن السلام والأمان بمثابة كتاب مؤلف لزماننا الحالي. ففي كل صفحة، يتشابك الأمل مع الخسارة. وفي كل صفحة، نعيش المأساة البشرية لأسوأ محنة إنسانية شهدها عصرنا. إنها رواية عاطفية مؤلمة أحياناً، ولكنها تحية كبيرة للأمل والمقاومة والقدرة على التحلي باللباقة والكرم الموجودين في أعماق القلب البشري.

خالد حسيني، مؤلف "الطائرة الورقية" و "صدى الجبال"

أعتقد أن ميليسا فليمينغ واحدة من أهم الأشخاص في العالم. فهي أبرز مدافعة عن حقوق اللاجئين، وقد عملت من دون كلل لإضافة لمسة إنسانية إلى أكبر أزمة يشهدها عصرنا. ما من نداء أكثر أهمية من هذا. إذ تم تهجير ملايين الأشخاص بفعل الحروب في العراق وسوريا، ووضعهم مثير للشفقة فعلاً. لكنّ كل من عمل مع اللاجئين يدرك تماماً معنوياتهم العالية وقدرتهم على المقاومة. وما من وسيلة أفضل من قصة واحدة لإثبات تلك الروح العالية. وقد وجدت ميليسا تلك القصة. فقصة دعاء مؤثرة، وآسرة، وتدفعنا حتماً إلى التفاؤل. تعطينا رواية "أمل أقوى من البحر" صورة واضحة عن أزمة اللاجئين، حيث لا يمكن مضاهاتها بالتغطية الإخبارية التقليدية.

براندون ستانتون، هيوماتز أوف نيويورك

بعـد سـنوات قليلـة، حيـن ينظر النـاس إلى الصراعـات الحالية وأزمات التهجير والحروب، ستبرز قصة دعاء الزامل- وأولئك الذين رأتهم وهم يموتون، والحياة التي أنقذتها- كواحدة من أبرز الروايات المؤثرة.

برونو جيوساني، المدير الأوروبي لتيد TED

الفصل الأول

طفولة في سوريا

في المرة الثانية التي كادت أن تغرق فيها، كانت دعاء طافية على غير هدى وسط بحر عدائي ابتلع للتو الرجل الذي تحبه. شعرت ببرودة شديدة لدرجة أنه لم يكن بوسعها الإحساس بقدميها، وبعطش شديد لدرجة أن لسانها تورم في فمها. انتابها إحساس قوي بالحزن، ولولا الطفلتان الصغيرتان بين ذراعيها- اللتان بالكاد لا تزالان على قيد الحياة- لتركت البحر يبتلعها. ما من يابسة تلوح في الأفق، بل مجرد أشلاء من حطام السفينة، وعدد قليل من الناجين الآخرين الذين يدعون ليتم إنقاذهم، وعشرات الجثث الطافية والمنتفخة.

قبل ثلاثة عشر عاماً، كادت بحيرة صغيرة أن تبتلعها وليس المحيط الواسع. وفي تلك المرة، كانت عائلة دعاء موجودة لإنقاذها. كانت في السادسة من عمرها، والوحيدة في عائلتها التي رفضت تعلم السباحة. إذ خافت من الماء كثيراً؛ ومجرد رؤيته كانت تملأها ذعراً.

وخلال النزهات إلى البحيرة قرب منزلهم، كانت دعاء تجلس وحدها مراقبة أخواتها وأقرباءها وهم يتراشقون بالماء، ويغطسون

ويتشـقلبون في البحيرة، ليخففوا من شـعورهم بالحرّ الشـديد الذي يتصف به صيف سوريا. وكلما حاولوا إنزالها إلى الماء كانت ترفض بشـدة، وتقـاوم كثيراً. حتى في طفولتهـا، كانت عنيدة؛ ولطالما قالت أمهـا للجميـع بمزيـج مـن الفخـر والغضب: "لا أحد يسـتطيع القول لدعاء ما يجب عليها فعله".

بعـد ظهـر أحـد الأيـام، اعتبـر مراهق من أقرباء دعـاء أن خوفها سخيف جداً، وأن الوقت قد حان لتتعلم السباحة. وفيما كانت دعاء جالسة ترسم الأشكال على التراب بأصابعها، وتراقب الآخرين الذين يتراشـقون بالماء، زحف خلفها، وأمسـكها من خصرها، ورفعها إلى الأعلى فيما راحت تركل وتصرخ. إلا أنه تجاهل صراخها، وحملها فوق كتفه وأنزلها إلى البحيرة. التصق وجهها بأعلى ظهره، فيما تدلّت سـاقاها مباشـرة تحت صدره. ركلت قفصه الصدري بقوة، وغرزت أظفارها في فروة رأسه. ضحك الأولاد فيما مدد قريب دعاء ذراعيه وأفلتهـا فـي الميـاه المعتمـة. أصيبت دعـاء بالذعر فيمـا وقعت على وجهها في البحيرة. غمرت المياه دعاء حتى صدرها فقط، لكن الذعر شلّها، وباتت عاجزة عن تحديد موقع ساقيها لإيجاد موطئ لقدميها. وبدل أن تطفو إلى الأعلى غرقت، ولهثت محاولة استنشـاق الهواء، ولكنها ابتلعت الماء عوضاً عن ذلك.

غيـر أن ذراعيـن ظهرتـا فـي الوقـت المناسـب وسـحبتاها مـن البحيـرة، ورفعتاهـا إلـى الشـاطئ لتصبح في حضن أمهـا المذعورة. تقيّـأت دعـاء كل السـائل الـذي ابتلعته، وبكت، وأقسـمت ألا تقترب أبداً من الماء مجدداً.

في ذلك الحين، لم يكن لديها شـيء آخر في عالمها لتخشـاه.

ليس حين تكون العائلة موجودة دوماً لحمايتها.

لا تذكر دعاء ابنة الأعوام الستة أي لحظة كانت فيها وحيدة. فقد عاشت مع أهلها وأخواتها الخمس في غرفة واحدة في منزل جدها المؤلف من طابقين، فيما عاش إخوة والدها الثلاثة مع عائلاتهم في الغرف الأخرى، وكانت كل لحظة من حياة دعاء مليئة بالأقرباء. نامت جنباً إلى جنب مع أخواتها، وتناولت وجبات مشتركة، واستمعت إلى محادثات مفعمة بالحيوية.

عاشت عائلة الزامل في درعا، أكبر مدينة في جنوب سوريا، على مسافة كيلومترات قليلة فقط من الحدود الأردنية، وعلى بعد ساعتين بالسيارة من جنوب دمشق. تقع درعا على سهل بركاني غني بالتربة الحمراء الخصبة. في العام 2001، حين كانت دعاء في السادسة من عمرها، اشتهرت درعا بسخاء محاصيل الفاكهة والخضار التي تنتجها الأرض: الرمان، والتين، والتفاح، والزيتون، والبندورة. وقيل يومها إن محصول درعا كفيل بإطعام كل سوريا.

بعد أعوام قليلة، تحديداً في العام 2007، ضربت موجة جفاف البلاد بأكملها، واستمرت ثلاثة أعوام، ما أجبر العديد من المزارعين على ترك حقولهم والانتقال مع عائلاتهم إلى مدن مثل درعا بحثاً عن العمل. ويعتقد بعض الخبراء أن هذا النزوح الهائل هو الذي أفضى إلى موجة الاستياء التي تأججت عام 2011، قبل أن تتحول إلى موجة احتجاجات عارمة، وبعدها إلى ثورة مسلحة ستدمر حياة دعاء.

في العام 2001، حين كانت دعاء فتاة صغيرة، كانت درعا مكاناً مسالماً؛ حيث عاش الناس حياتهم مع أمل جديد بمستقبل البلاد. إذ استلم بشار الأسد سدة الرئاسة خلفاً لوالده، فأمل أهل سوريا أن

تنتظر بلادهم أوقات أفضل، واعتقدوا في البداية أن الرئيس الشاب سيتخلى عن سياسات والده. وكان بشار الأسد وزوجته الجميلة قد تلقيا علومهما في إنكلترا، واعتبر زواجهما بمثابة اندماج؛ فهو من الأقلية العلوية، فيما زوجته أسماء- مثل عائلة دعاء- من الأغلبية السنية. كانت سياساته علمانية، فانتشر الأمل- لاسيما بين النخبة الدمشقية المثقفة- بأن يتم خلال عهده التخلي عن قانون الطوارئ الذي ورثه والده وحافظ عليه طوال ثمانية وأربعين عاماً لسحق المعارضة، وأن يتم رفع القيود المفروضة على حرية التعبير. فبذريعة حماية الأمن القومي من المقاتلين الإسلاميين أو المنافسين الخارجيين، استخدمت الحكومة قانون الطوارئ لقمع الحقوق الفردية والحريات، والسماح لقوى الأمن بإجراء اعتقالات احترازية من دون أسباب قانونية.

أما المواطنون الأكثر فقراً، والأكثر محافظة، مثل أولئك الذين يعيشون في درعا، فقد أملوا أساساً في حصول تحسينات اقتصادية، ولكنهم قبلوا بهدوء بطريقة سير الأمور في بلادهم. وكان قبولهم الصامت ذاك نتيجة درس قاسٍ تعلموه عام 1982 في مدينة حماه؛ عندما أمر الرئيس السوري آنذاك حافظ الأسد بقتل آلاف المواطنين بمثابة عقاب جماعي، رداً على تحرك الإخوان المسلمين الذين تحدوا حكمه. لا يزال ذلك الانتقام الوحشي حياً في عقول السوريين. ولكن مع وصول جيل جديد إلى السلطة، أملوا في أن يلغي ابن حافظ الأسد بعض القيود التي أعاقت الحياة اليومية. لكن لخيبة أمل الشعب السوري، بالكاد انتبه الرئيس الجديد للإصلاحات، ولم يتغير الكثير. وبعد مجزرة حماه، تجرأ عدد قليل فقط على تحدي النظام القمعي.

أيام السبت، حين كانت دعاء صغيرة، كانت السوق القديمة في المدينة تمتلئ بالسكان المحليين والزوار عابري الحدود من الأردن الذين جاءوا لشراء منتجات عالية الجودة بأسعار جيدة، ومقايضة الأدوات والفاكهة. إذ تقع درعا على الطريق التجارية الرئيسة المؤدية إلى الخليج العربي، وقد جذبت الأشخاص من كل أنحاء المنطقة. وبالفعل، اجتمع الناس في درعا أو حرصوا على زيارة المدينة لدى مرورهم بها. لكن في قلب المدينة، نشأت مجموعة مقربة من العائلات الكبيرة والصداقات التي امتدت طوال أجيال عدة.

يبقى الأولاد في درعا- كما في كل الأمكنة الأخرى في سوريا- مع عائلاتهم حتى سن الرشد. حتى إنهم يبقون في منزل العائلة بعد الزواج، ويحضرون زوجاتهم إلى هناك لتربية أولادهم. لذا، كانت البيوت السورية- مثل بيت دعاء- مليئة بأفراد العائلات، وعاشت فيها أجيال عدة تحت سقف واحد، وتشاركت منزلاً واحداً. وكلما فاض عدد أفراد عائلة كبيرة على الغرف الموجودة في الطابق الأول من المنزل، كان يتم تشييد طابق ثانٍ لتوسيع المنزل نحو الأعلى.

في منزل دعاء، كان جزء من الطابق الأرضي يخص عمها "وليد" وزوجته أحلام وأولادهما الأربعة. وبالقرب منه عاش العم عدنان مع عائلته المؤلفة من ستة أفراد، فيما امتلك محمد، جد دعاء، وجدتها فوزية غرفتهما الخاصة. وعلى السطح، أقام العم نبيل مع زوجته هنادي وثلاثة صبيان وبنتين في غرفة صغيرة. أما عائلة دعاء المؤلفة من ثمانية أفراد فقد عاشت في غرفة في الطابق الأرضي قريبة من المطبخ؛ المكان الأكثر ازدحاماً وضجة

في المنزل. كل الغرف الأساسية كانت موزعة حول فناء مفتوح، نموذجي في المنازل العربية القديمة، يدخله الأولاد ويخرجون منه، ويجتمعون للعب عند انتهاء المدرسة وبين وجبات الطعام. وكشف السطح أيضاً عن مساحة تجتمع فيها العائلة. ففي الليالي الصيفية الحارة، كانوا يسترخون هناك حتى ساعات الصباح الأولى، حيث يدخن الرجال النراجيل، وتثرثر النساء مع بعضهن، ويشربون جميعاً الشاي السوري اللذيذ. وفي الليالي الحارة جداً، كانت النسمات الباردة على السطح تجذب أفراد العائلة وتدفعهم إلى بسط فرشهم هناك والنوم تحت النجوم.

تناولت العائلة كلها- أي العمات والأعمام وأولاد العم- وجبات مشتركة في الفناء الداخلي للمنزل، حيث كانوا يجلسون بشكل دائري على سجادة حول أطباق الطعام الساخنة. في أوقات الوجبات، كانت دعاء وأخواتها يأكلن الطعام بنهم شديد، ويلتهمن كل ما بوسعهن، ويغرفن الطعام بقطع الخبز العربي الرقيق الملفوف بين أصابعهن.

أحب والد دعاء تلك اللحظات التي كان يمضيها مع عائلته، لأنه الوقت الوحيد من النهار الذي يستطيع تمضيته مع بناته. ففور انتهاء الوجبة، وانتهائه من شرب الشاي المحلى، كان يركب دراجته الهوائية عائداً إلى صالون الحلاقة الخاص به للعمل حتى منتصف الليل.

الحب والصراعات والفرح والأحزان الناجمة عن العيش مع عائلة كبيرة، أثرت جميعها في كل مرحلة في حياة دعاء. وتحت سقف تلك العائلة المحبة، بدأت التوترات تزداد.

عندما ولدت دعاء، كان لأهلها ثلاث بنات، وقد واجها ضغطاً من العائلة لإنجاب صبي. ففي المجتمع السوري التقليدي، يعتبر الصبيان أكثر أهمية من البنات؛ لأن الناس يعتقدون أنهم سيدعمون العائلة، فيما البنات سيتزوجن ويخصصن انتباههن لأزواجهن وعائلاتهن. كان شكري- والد دعاء- رجلاً وسيماً ذا شعر داكن مجعد، وقد عمل في مهنة الحلاقة منذ أن كان في الرابعة عشرة من عمره. وقد عمل سابقاً في اليونان وهنغاريا. خطط شكري للعودة إلى أوروبا لإيجاد وظيفة وزوجة أجنبية، لكنه بعد أن التقى هناء- والدة دعاء- تبدلت خططه. كانت هناء قد أنهت الثانوية العامة عندما التقيا في زفاف أحد الجيران. كانت صغيرة القامة، وذات شعر داكن وطويل ومتموج، وعينين خضراوين لافتتين. انجذبت وشكري فوراً إلى بعضهما. فقد وجدته أكثر تواضعاً وثقة في النفس من بقية الرجال المحليين، وأحبت طريقته في ارتداء الشروال وعزفه على العود؛ الآلة الوترية التي تعتبر سلف الغيتار.

وهكذا، تزوج شكري وهناء عندما كانت هذه الأخيرة في السابعة عشرة من عمرها فقط. سنواتهما الأولى معاً كانت مسالمة ومليئة بالحب، لكن الأمور تبدلت ببطء. كانت المرة الأولى التي سمعت فيها هناء حماتها فوزية تشكو من عدم إنجاب ابنها وزوجته ولداً بعد إنجاب هناء ابنتها الثالثة. وصدمت هناء عندما سمعت أقرباء شكري يقولون له إنه يجدر به الزواج من امرأة أخرى لتنجب له صبياً. لكن شكري كان فخوراً ببناته، بالرغم من اضطراره إلى مواجهة الأحكام المسبقة والتوقعات المتأصلة. بيد أن أمه استمرت في انتقاد هناء، وأصرّت على أن شكري يستحق إنجاب صبيان. وفجأة، تحوّل

منزل العائلة الذي كان سابقاً ملاذاً لشكري وهناء إلى مكان للنزاع؛ إذ انضمت بعض أخوات شكري إلى أمهن في الهمس والثرثرة عن عدم قدرة هناء على إنجاب الصبيان.

وعندما ولدت دعاء في 9 يوليو 1995، سمعت هناء التهنئة الاعتيادية من عائلة شكري مع عبارة "عسى أن يكون صبياً في المرة التالية إن شاء الله".

لكن، كلما نظرت هناء إلى الطفلة الهادئة والجدية، أحست بشيء خاص حيال الفتاة الصغيرة. وذات يوم، عندما جاءت صديقة من عائلة محترمة وغنية من خارج البلدة للزيارة ولرؤية الطفلة الصغيرة، ساعدت على تثبيت مكانة دعاء في عائلتها. فالصديقة- التي كانت عاجزة عن إنجاب الأطفال- أحست فوراً بآراء العائلة، وشعرت بالضغط الذي تتعرض له هناء لإنجاب صبي، وقررت مساعدتها. وعندما اجتمعت العائلة في المطبخ للترحيب بضيفتهم المميزة، حملت الضيفة دعاء برفق بين ذراعيها، ثم نظرت إلى وجه الطفلة الصغيرة، ووضعت إصبعاً على جبينها، وقالت: "هذه الفتاة مميزة". وبالإشارة إلى معنى اسم دعاء، أضافت الصديقة: "إنها فعلاً هبة من الله". وقبل مغادرتها، أعطت الصديقة هناء مبلغ عشرة آلاف ليرة سورية- ما يوازي ثروة صغيرة- بمثابة هدية لدعاء، فذهل أفراد العائلة. كانت الصديقة من الأغنياء المقيمين في دولة خليجية، وقد فرضت على الجميع احترامها بفضل مكانتها. وبعد تلك الحادثة، أصرت والدة شكري دوماً على حمل دعاء، ولم تعد توجه الإهانات لهناء.

وفيما كبرت دعاء، سحرت جميع الذين التقتهم. إذ كانت

خجولـة جـداً- علـى عكـس أخواتهـا الأكثـر انفتاحاً- لكـن الناس شعروا دوماً بالرغبة في إخراجها من قوقعتها. كما كشفت عن جمال سـاحر، وكلما اصطحبتها هناء معها إلى خارج المنزل، علّق الناس في الشارع على عينيها البنيتين الجميلتين المؤطرتين بأهداب طويلة مـع طلـة رزينـة. تقول هناء: "منذ البداية، عرفنا أنها سـتجلب الحظ للعائلة".

وبعد ثلاثة أعوام من ولادة دعاء، أنجبت هناء ابنة أخرى، سجى. ثـم بعـد عاميـن أنجبت ابنة أخـرى، نوارة. فجأة، برز مجدداً الحديث عن "المسـكين شـكري" الذي لم ينجب الصبيان. استمر أفراد العائلة الثمانية في العيش ضمن غرفة واحدة مسـاحتها ثلاث عشـرة بسـت عشرة قدماً، وفيها نافذة واحدة.

كبـرت أيضـاً العائـلات الأخـرى المقيمة في المنـزل؛ إذ أنجب أعمام دعاء وعماتها المزيد من الأولاد. فمن الشـائع في سـوريا أن تكون العائلات كبيرة، إذ تعتبر ولادة الطفل حظاً، والعائلات الكبيرة دليل على سـعادة الزّوجين، وضمانة للاهتمام بهما عند تقدمهما في العمر.

لكن مع وجود أكثر من سبعة وعشرين شخصاً في منزل واحد، بدأت الحساسـيات تزداد بين النسـاء. إذ يسـتحيل طهو الطعام لهذا العـدد الكبيـر من الأشـخاص دفعة واحـدة، وبالتالي انتهت الوجبات المشتركة التي منحت الفرح للجميع في ما مضى. وهكذا، بات لكل عائلة دور في المطبخ. حصلت هناء على الدور الأول، وتوجب عليها كل يـوم الإسـراع إلـى السـوق، وتقشـير الخضار وفرمهـا، وطهو كل شـيء في الوقت المناسـب لتقديم الغداء عندما يحصل شـكري على

فترة استراحة منتصف النهار من صالون الحلاقة عند الساعة الثالثة. كانت هذه الوجبة هي الوجبة الأساسية للعائلة، لذا حرصت هناء على أن تكون مميزة. ولطالما شعرت بالكثير من الفرح والفخر أثناء تحضيرها هذه الوجبة، غير أنها وجدت نفسها الآن تعمل بسرعة، وتحاول تفادي أي احتكاك مع بنات حميها.

وصارت دعاء وأفراد عائلتها يتناولون الفطور والغداء والعشاء في غرفتهم الصغيرة فوق "شرشف" بلاستيكي يبسطونه وسط الأرض. أصبحت الغرفة الآن محور عالمهم؛ إذ باتت غرفة نوم وغرفة جلوس وغرفة طعام في الوقت نفسه، وصارت كل النشاطات العائلية تحصل ضمن تلك الجدران الأربعة.

عندما كبرت الفتيات، بات من الصعب عليهن حشر أنفسهن في الغرفة. لذا في الليل، كانت دعاء وأخواتها يخرجن الفرُش ويبسطنها، الواحدة تلو الأخرى، على الأرض في كل مساحة ممكنة، مثل قطع الأحجية. وقد اختارت دعاء دوماً النوم في مساحة تحت النافذة؛ كي تتمكن من التحديق إلى النجوم حتى يغلبها النعاس. وبعد أن تنام الفتيات أخيراً، كان شكري وهناء يخطوان فوق بحر من الأذرع والسيقان المتشابكة للوصول إلى زاويتهما من الغرفة.

بالنسبة إلى هناء، أصبح الجو في المنزل المزدحم لا يطاق. وفي أغلب الأحيان، انتقدتها بنات حميها على عدم إنجاب الصبيان. وذات مساء، حين سمعتهن يتحدثن عنها في المطبخ مجدداً، قررت هناء أنها سئمت من تلك التلميحات، كما سئمت من الشجارات بسبب المطبخ، والضجيج اللامتناهي. تلك الليلة، عندما عاد شكري من العمل إلى المنزل، وقفت هناء عند الباب شابكة ذراعيها فوق

صدرها، وكابحة الدموع في عينيها.

قالت له: "إما أن تجد لنا منزلاً آخر، أو جد لنفسك زوجة أخرى. لا يمكننا البقاء هنا بعد الآن". ثم اقتربت من شكري أكثر وتابعت: "لم يعد الأمر مقتصراً عليّ فقط الآن. إذ أصبحت آية في الخامسة عشرة من عمرها وعلاء في الثالثة عشرة. إنهما مراهقتان، وقد سئمتا من مشاركة الغرفة معنا جميعاً. إنهما تحتاجان إلى الخصوصية. سأتركك وأطلب الطلاق إذا لم تجد لنا منزلاً جديداً".

وكان شكري قد لاحظ التوترات المتزايدة، والصعوبات التي تواجهها العائلة في التأقلم داخل الغرفة الصغيرة. وبعد ستة عشر عاماً من الزواج، لاحظ أن هناء تقصد فعلاً ما تقوله. فشفتاها المزمومتان وعبوسها الشديد أنبآه أنها قادرة على تنفيذ تهديدها بالرحيل. وعرف أنه بحاجة إلى إيجاد وظيفة ذات مردود مادي أفضل ليتمكنوا من الانتقال إلى منزل أفضل.

دعاء التي أصبحت حينها في السادسة من عمرها كانت غافلة عن التوترات الحاصلة، ولم تكن تعرف قط أنها على وشك اكتشاف- للمرة الأولى في حياتها- أن عالمها ليس آمناً مثلما يبدو. فبالنسبة إليها، لا يزال المنزل الكبير مكاناً للذكريات السعيدة؛ بما فيه من روائح اللحم المطهو والتوابل العطرية القوية، والضحكات والألعاب اللا متناهية مع الأقارب في الفناء الداخلي وسط أزهار الياسمين العطرة، والليالي الجميلة على السطح، مع الإصغاء إلى ثرثرة الكبار الذين يتحدثون ويدخنون النراجيل.

الحلاقة هي المهنة الوحيدة التي يجيدها شكري، ولكنه سأل من حوله ليرى ما إذا كان بوسعه استخدام سيارته "البيجو" الصفراء

القديمة لنقل البضاعة عبر الحدود الأردنية. "الغواصة الصفراء" كانت وسيلة النقل الوحيدة للعائلة، وأضحوكتها أيضاً. فقد كانت صدئة ومهترئة، وأقرب إلى الانهيار في رحلات نهاية الأسبوع، لكنها مصدر فخر شكري وفرحه. وها قد أصبحت الآن أمل العائلة للانتقال من منزلهم المزدحم والخانق.

وجد شكري رجل أعمال أردنياً، وقد عرض عليه ملء سيارته بالحلويات السورية المحلية ونقلها إلى الزبائن عبر الحدود الأردنية.

خلال الشهرين التاليين، كان شكري يغادر منزله فجراً للتوجه إلى المعمل في درعا، حيث كان يملأ سيارة البيجو بعلب الحلويات والبسكويت. في بعض الأحيان، لم يكن بوسعه الرؤية عبر مرآة الرؤية الخلفية بسبب حشوه السيارة بالكثير من البضاعة. إذا كانت زحمة السير مقبولة، كان ينجز الرحلة خلال خمس ساعات ويعود إلى المنزل في الوقت المناسب لتناول الطعام مع العائلة قبل أن يذهب إلى صالون الحلاقة بعد الظهر. أحبت دعاء وأخواتها عمله الجديد. فكلما عاد إلى المنزل، كان يحضر لهن الأطايب من الأردن. كنّ ينتظرنه عند الباب للحصول على الخبز الشعبي الأردني؛ وهو نوع من الخبز المرقوق غير الموجود في سوريا، ورقاقات البطاطا المقلية من ماركة باربي، والتي أحبتها الفتيات أكثر من تلك التي حصلن عليها في المنزل. كما أحضر لهنّ أيضاً فساتين وملابس أكثر أناقة من تلك التي امتلكنها سابقاً.

بعد ظهر أحد الأيام، لم يعد شكري إلى المنزل. ومرّت ساعات طويلة من دون أي خبر منه، فقلقت هناء والفتيات. إذ لم يكن من عادته

أن يغيب أكثر من ساعات قليلة من دون إبلاغهن. عندها، طلبت هناء المساعدة من كل العائلة، وتوسلت إلى الجيران والأصدقاء للبحث عنه. وأخيراً، بعد ساعات من الاتصالات الهاتفية المنسعورة، عرفت رجاء- عمة دعاء- من صديقة لها في الأردن أنه تم توقيف شكري. فقد اكتشف المسؤولون عند الحدود أن سيارته تحمل أكثر من 220 باونداً من البضاعة المسموح بها. وبالإضافة إلى ذلك، كانت الأوراق التي أعطاها صاحب المصنع لشكري للسماح له بنقل البضاعة عبر الحدود مزوّرة. لذا، تم توقيف شكري في سجن في الأردن.

عرفت العائلة أن الظروف في السجن يمكن أن تكون مريعة، وانتابها القلق الشديد، وتخيلوه نائماً على الأرض في زنزانة مكتظة، وجائعاً وعاجزاً عن الاستحمام أو التحرك. ولم يكن بوسعهم دفع تكاليف محامٍ، لذا خشيت العائلة من كيفية مواجهتها تعقيدات النظام القضائي الأردني.

ومع مرور الأيام، ازداد قلق أفراد العائلة. ولم يكونوا قلقين فقط على حال شكري، وإنما لم يكن بإمكانهم العيش من دونه قط. فبالكاد استطاعوا سابقاً العيش بالمال الذي أحضره إلى المنزل، وها قد باتوا الآن من دون مدخول. عندها، تدخلت عائلة هناء للمساعدة، وقدمت الطعام وكل المال الممكن. وبما أن عائلة الزامل فقيرة، وليست لديها أية علاقات مع الأشخاص النافذين في الحكومة الذين قد يستطيعون المساعدة، لم يجرؤوا على إبلاغ المسؤولين المحليين بأن شكري موجود في السجن في الأردن، خشية أن يسبب له ذلك المزيد من المشاكل القانونية عند عودته.

لم يُسمح للعائلة بزيارة السجن أو التحدث إليه عبر الهاتف.

وهكذا، كانوا يتلقون أخبار شكري القليلة من أشخاص يعيشون في الأردن، لكن تلك الأخبار كانت بمعظمها مربكة، وجعلتهم أكثر قلقاً على حاله. بكت دعاء وأخواتها كل يوم. وفي الليل، بعد نوم الفتيات، بكت هناء أيضاً، متسائلة عما إذا كان زوجها سيعود يوماً إلى المنزل.

اجتمعت العائلة الكبيرة كلها لإيجاد طريقة لإخراجه من السجن. وبعد مرور أربعة أشهر على اعتقال شكري، قام صديق لأخيه- اسمه عدنان- بدفع مبلغ عشرة آلاف ليرة سورية (أي ما يوازي 500 دولار) لمحامٍ مشهور في الأردن بهدف مساعدة شكري. وكان المحامي مطلعاً على النظام القضائي الأردني، ويعرف المسؤولين عن السجن، والقاضي الواجب رشوته ليتم إطلاق سراح شكري.

وهكذا، بمبلغ عشرة آلاف ليرة، اشترى عدنان أجود أنواع زيت الزيتون السوري- البالغ سعر الكيلوغرام الواحد منه مئتي ليرة سورية- للمسؤولين عن القضية، وأجود أنواع اللحوم للقاضي، وأُقنِع القاضي أن شكري قد تعرض للخداع من قبل صاحب المصنع وأنه مجرد رجل بسيط يحاول إعالة عائلته. وأخيراً، نجحت الرشوة في إطلاق سراح شكري من السجن.

لم تتعرف دعاء وعائلتها تقريباً على الرجل النحيل ذي اللحية الطويلة الذي وصل ذات ليلة إلى باب منزلهم في ساعة متأخرة. وعندما سمعت الفتيات صوته ركضن إليه، وصرخن فرحاً، ثم طوّقنه بأذرعهن. بعد أربعة أشهر، استردت دعاء والدها، ولم تشأ التخلي عنه مجدداً.

عادت الحياة إلى طبيعتها بسرعة بعد إطلاق سراح شكري.

فقد عاد إلى أيامه في صالون الحلاقة، فيما استمرت هناء في إعداد الوجبات العائلية. واستمروا جميعاً في السعي وراء حلمهم في امتلاك منزل خاص بهم. وفي النهاية، وجدوا شقة مقبولة في منطقة رخيصة في درعا، فوضبوا أغراضهم وانتقلوا إليها.

كان المنزل الثاني لدعاء عبارة عن شقة من ثلاث غرف في ضاحية طريق السد النامية والمحافظة والفقيرة. احتاج شكري وهناء إلى أشهر عدة لإيجاد تلك الشقة التعيسة التي كانت في حال يرثى لها. لكن هنا، لا داعي للقلق بشأن إزعاج الأعمام والعمات، وتستطيع الفتيات الركض بحرية والتصرف على سجيتهن. شرعت الفتيات فوراً في مساعدة والديهن في تنظيف الغرف وجعلها في حال أفضل.

اعتادت أخوات دعاء فوراً على المنزل الجديد. أما دعاء فقد واجهت صعوبة في التكيف؛ إذ كرهت التغيير واشتاقت إلى أقربائها، واشتاقت خصوصاً إلى مدرستها القديمة، فقد احتاجت إلى وقت طويل جداً للانفتاح على أساتذتها ورفاقها في الصف، وهي الآن مضطرة للبدء بكل شيء مجدداً. في مدرستها الجديدة، تقوقعت على نفسها بخجل، فيما تعرفت أخواتها إلى أصدقاء جدد. كما تظاهرت غالباً بالمرض كي لا تذهب إلى المدرسة. غير أنها كانت من أولئك الفتيات اللواتي يجعلن الآخرين يتعاطفون معهن، ومع مرور الوقت، عقدت ببطء صداقات جديدة، وبدأت تستمتع ببيئتها الجديدة.

وفي العام 2004، احتفلت عائلة دعاء بولادة الشقيق الأصغر

لدعـاء والـذي يدعـى "محمد"، أو حمـودي. وأخيراً، صار في العائلة صبـي، فعشـقته الفتيـات وتشـاجرن علـى الاهتمام بـه. وبعد انضمام الصبـي إلـى العائلـة، قـام أعمام دعـاء وعماتها بدعوتهـم للعودة إلى منزل العائلة مجدداً، لكن هناء رفضت ذلك. فقد استقروا في منزلهم الجديد الآن، وتأقلموا ضمن بيئتهم الجديدة.

لكن عندما أصبحت دعاء في الرابعة عشرة من عمرها، جاءهم خبـر مفـاده أن صاحـب الشـقة التي باتـوا يحبونها يحتـاج إليها، وأنه يتوجب على العائلة تغيير المنزل مجدداً. وهكذا، اضطرت دعاء التي تكره التغيير أن تبدّل حياتها مجدداً.

بـدا العثـور علـى منـزل جديد براتب شـكري المتواضـع تحدياً هائـلاً. فقـد انتقـل المزيـد مـن الأشـخاص إلـى درعا لإيجـاد عمل، وارتفعـت الإيجـارات. وبعـد بحث لمدة ثلاثة أشـهر، وجدت عائلة دعـاء أخيـراً منـزلاً أقل مـن توقعاتها، وكان عبارة عن شـقة متواضعة من ثلاث غرف في منطقة الكاشـف، مع مطبخ صغير يملأه الضوء، وسقف مكسو بالدوالي. امتلك شكري وهناء غرفتهما الخاصة، فيما نامـت الفتيـات فـي غرفة واحدة تم اسـتعمالها بمثابـة غرفة للجلوس خلال النهار. وفي ذلك الوقت، كانت الأخت الكبرى آية قد تزوجت وانتقلت للعيش مع أهل زوجها.

إلا أن دعـاء لـم تـرَ أي شـيء إيجابي في المنـزل الجديد، وإنما مجـرد خسـارة للأصدقـاء الذيـن تعرفـت إليهم في المنطقة السـابقة، وللأشخاص الذين فهموها من دون أن تبذل أي جهد. ومجدداً، غلبها الخجل في بيئتها الجديدة، فرفضت الكلام في المدرسة، وتدهورت علاماتها.

في البداية، قاومت أية محاولات لعقد الصداقة. ومهما ألحت عليها أختاها- أسماء وعلاء- لعقد صداقات جديدة رفضت ذلك، وأكدت لهما أنه ما من أحد يستطيع إجبارها على فعل أي شيء لا تريده. وقد وفر لها خجلها وعنادها الشديد الحماية، وسمحا لها بالسيطرة على الأوضاع غير المألوفة. إذ احتاجت دعاء إلى وقت طويل للوثوق في الأشخاص أو للسماح لأي كان بمعرفتها على حقيقتها.

لكن مع مرور الوقت، وكما حصل سابقاً، بدأت الجدران التي شيدتها دعاء حولها تتهدم، وخرجت أخيراً من قوقعتها؛ فتعرفت إلى صديقات جديدات، وذهبت معهن غالباً قي نزهات في المنطقة. كما زارت الفتيات منازل بعضهن بعضاً للدراسة والثرثرة والتحدث عن الشباب. وصعدن غالباً إلى سطح منزل دعاء- وهو مكانها المفضل في منزلها الجديد- للاستلقاء تحت الشمس. وعند الغسق، كانت الفتيات ينتقلن إلى الداخل لسماع الموسيقى العربية والرقص على أنغامها، وترداد كلماتها مع بعضهن.

وعندما أصبحت دعاء أخيراً سعيدة في بيئتها الجديدة ومع صديقاتها الجديدات، اتضح جلياً أن حياة الفتاة السورية التقليدية لن تكون كافية لدعاء؛ فقد تحول عناد طفولتها إلى عزيمة وإصرار على تحقيق شيء ما. صحيح أن مجتمع درعا تقليدي، ولكنها عرفت من المسلسلات التلفزيونية والأفلام أن بعض النساء يدرسن ويعملن؛ حتى في بلدها. فقد أعلنت الدولة السورية دعمها للمساواة بين النساء والرجال، وازداد التوتر في المجتمع بين أبنائه الذين انقسموا إلى قسمين: قسم يعتقد أنه يفترض بالنساء أن يصبحن سيدات منازل

خاضعات للآباء والأزواج المدبّرين، وقسم آخر يعتقد أنه باستطاعة النساء إكمال تعليمهن العالي، والحصول على مهن، واختيار أزواجهن بأنفسهن. والمعلمة المفضلة عند دعاء كانت امرأة قالت لتلميذاتها يوماً: "عليكنّ أن تدرسن بكدّ لتصبحن أفضل الفتيات في جيلكنّ. فكرن في المستقبل، وليس فقط في الزواج". عندما سمعت دعاء ذلك، أحست بشيء يتحرك داخلها، ويحثها على كسر افتراضات الناس بشأنها، كما يحثها على عيش حياة مستقلة.

بعد الصف السادس، لم يكن الصبيان والبنات يتشاركون الصف نفسه، وكانت دعاء وصديقاتها يتحدثن عن الشباب. لكن، من غير المقبول ثقافياً أن يتحدثن معهم. وفي عمر الرابعة عشرة، اقتربت هي وصديقاتها من السن المناسبة للزواج حسب ما تفرضه التقاليد، لذا بدأت الفتيات يتوقعن من منهن ستتزوج أولاً. غير أن دعاء كلما فكرت في مستقبلها وما قد يخبئه لها، لم تستطع إلا التفكير في مساعدة عائلتها.

وكان مكانها المفضل خارج مدرستها ومنزلها صالونَ الحلاقة الخاص بوالدها. إذ أرادت أن تُظهر له كيف يمكنها أن تكون عاملة مفيدة وفعالة، حتى لو لم تكن صبياً. لذا، منذ أن كانت في الثامنة من عمرها، كانت دعاء تذهب إلى صالون والدها لمساعدته كلما استطاعت. وفيما كان شكري يتولى القص والحلاقة، كانت دعاء تكنس الشعر المتساقط أرضاً، وتظهر دوماً في الوقت الصحيح لحظة ينهي الحلاقة، حاملة بيدها منشفة نظيفة وجافة. وكلما وصل زبائن جدد، اختبأت دعاء في المطبخ الصغير في الجهة الخلفية من الصالون لتظهر بعد ذلك حاملة صينية عليها أكواب الشاي الساخن،

أو فناجين صغيرة من القهوة العربية المرّة.

أيام الخميس بعد المدرسة، كان شكري يسمح لدعاء بأن تحلق له ذقنه باستعمال الآلة الكهربائية. وكان يضحك لدى رؤيته ملامح وجهها الجدية فيما هي مركزة على مهمتها ويناديها "محترفتي". وقد حرّك ذلك اللقب إحساساً كبيراً بالفخر داخلها، وجعلها أكثر إصراراً على جني المال بنفسها ذات يوم لدعم والدها.

وعندما تزوجت أختاها أسماء وعلاء في عمر السابعة عشرة والثامنة عشرة، وبدأت عائلتها تمازحها بالقول "أنتِ التالية"، كانت دعاء تبلغ الجميع فوراً بضرورة نسيان الموضوع لأنها غير مهتمة إطلاقاً بالزواج في القريب العاجل. وبعد الدهشة الأولى التي شعر بها والداها، تقبّلا فكرة أن تأخذ ابنتهما مساراً مختلفاً عن مسار الفتيات الأخريات. حتى إنهما حلما أحياناً بأن تكون ابنتهما الأولى في العائلة التي تذهب إلى جامعة. إذ لطالما حزنت هناء لأنه لم تتح لها تلك الفرصة، وأحبت أن تحقق إحدى بناتها أحلامها المهنية.

ذات يوم، فاجأت دعاء الجميع عندما أعلنت أنها تريد أن تصبح شرطية. فقالت هناء: "شرطية! يجب أن تصبحي محامية أو أستاذة!".

ولم يحب شكري الفكرة أيضاً، وامتعض لدى تفكيره في تجوّلها في الشوارع، وتعاطيها مع كل فئات المجتمع، ومواجهتها المجرمين. كما أنه لم يكن يثق في الشرطة كثيراً. وهو من الطراز القديم، ويعتقد أن مهمة حماية المجتمع تقع على عاتق الرجل، ولاسيما حماية النساء، وليس العكس. لكنّ دعاء أصرّت قائلة إنها تريد أن تخدم بلدها، وأن تكون الإنسانة التي يلجأ إليها الأشخاص في أوقات الشدة.

وفيما اعترض والد دعاء على فكرتها، سخرت أخواتها من حلمها بأن تصبح شرطية. لكنّ هناء لم تسخر من دعاء قط. وعوضاً عن ذلك، تحدثت إليها بهدوء وحاولت أن تفهم حوافز ابنتها. فاعترفت لها دعاء بأنها تشعر بنفسها مقيدة نظراً إلى كونها فتاة. فلماذا لا تستطيع أن تكون مستقلة وتؤسس حياتها الخاصة؟ ولماذا يجب أن ترتبط حياتها برجل دوماً؟

حينها، اعترفت هناء لابنتها دعاء أنها على رغم وقوعها في حب شكري، إلا أنها ندمت على زواجها في عمر السابعة عشرة. فقد كانت الأولى في صفها في المدرسة، وكانت متفوقة في مادتَي الرياضيات والأعمال. وأخبرتها أنها أملت في أن تذهب إلى الجامعة للدراسة، ولكن في ذلك الوقت، لم يكن أمام الفتيات خيارات سوى الزواج وتأسيس عائلة. إلا أن هناء رأت أنه بوسع دعاء أن تكون مختلفة ربما.

وعندما تلقت دعاء دعوة من عماتها للقيام برحلة إلى دمشق، سمح لها شكري بالذهاب على أمل أن تشفي هذه الرحلة غليلها وتشبع حبها للمغامرة. إلا أن تلك الزيارة زادت من إصرارها. فقد ذهلت دعاء بالمدينة المزدحمة، وتخيلت نفسها تجوب الشوارع، وتزور الجامع الأموي الجميل، وتفاوض في السوق التجارية المزدحمة، وتمشي في أروقة الجامعة الكبيرة حيث أملت أن تدرس ذات يوم. لقد فتحت دمشق عينَي دعاء، وثبتت عقلها على فكرة الحلم بمستقبل مختلف عن المستقبل التقليدي المتوقع منها.

إلا أن تلك الأحلام تبددت سريعاً. ففي 19 ديسمبر 2010، بعد تنظيف أطباق العشاء، اجتمعت العائلة كالعادة حول شاشة التلفزيون

لتصفح القنوات وسماع الأخبار، فبثت قناة الجزيرة خبراً عاجلاً من تونس عن بائع متجول شاب اسمه محمد بوعزيزي. فقد أحرق الشاب نفسه بعدما صادرت الشرطة عربة الخضار الخاصة به. إذ أجبرت قلة الفرص الاقتصادية في البلاد الشاب على بيع الفاكهة والخضار، وعند مصادرة عربته اعتبر ذلك بمثابة الجزء الأخير الذي يحطّ من كرامته، فأنهى حياته في احتجاج مرعب أمام العموم. وكان تصرفه ذاك هو الذي أضرم شعلة ما سيُعرف لاحقاً بالربيع العربي. فكل شيء في المنطقة كان على وشك التبدل.

بما في ذلك درعا. لكن ليس مثلما أملت مدينة دعاء.

الفصل الثاني

بداية الحرب

بـدأ كل شـيء مـع رسـوم الغرافيتـي التي رسـمتها مجموعة من تلاميذ المدرسة على أحد الجدران.

حصـل ذلـك فـي فبرايـر 2011، وكان أهل درعا قد راقبوا طوال أشهر عدة كيفية تحدي الشعوب للأنظمة القمعية في الشرق الأوسط وإسـقاطها. ففي تونس، قام الشـباب المحرومون من حق التصويت، والذين فهموا تماماً يأس محمد بوعزيزي الذي دفعه إلى إحراق نفسه، بإشعال السيارات وتحطيم نوافذ المتاجر تعبيراً عن يأسهم وإحباطهم. ونتيجة لذلك، وعد الرئيس التونسي المتشدد، زين العابدين بن علي، الذي استلم السلطة منذ العام 1987، بأن يوفر لشعبه المزيد من فرص العمـل، وأن يسـمح بحريـة الصحافـة، وقال إنه سـيتنحى عن منصبه عند انتهاء ولايته عام 2014. إلا أن تصريحاته لم تقنع الشعب كثيراً، فاندلعـت أعمـال الشـغب في كل البـلاد للمطالبة باسـتقالته الفورية. عندها، استجاب بن علي لذلك بإعلان حالة الطوارئ وحلّ الحكومة، فضعفـت سـيطرته علـى البلـد، وانقلبت ضده المجموعـة التي كانت داعمة له في الجيش والحكومة. وفي 14 يناير، أي بعد أقل من شهر

على حرق محمد بوعزيزي نفسه، استقال الرئيس من منصبه، وهرب مع عائلته إلى المملكة العربية السعودية.

وكانت تلك هي المرة الأولى في المنطقة العربية التي تنجح فيها مظاهرة شعبية في إسقاط دكتاتور. في سوريا، راقبت العائلات- مثل عائلة دعاء- ما حصل بذهول. غير أنّ أحداً لم يتخيل أنه بوسعهم تحدي النظام السوري. فرغم أن الجميع كانوا مستاءين من بعض الأمور في الحكومة- مثل استمرار قانون الطوارئ، وسوء الحالات الاقتصادية، وانعدام حرية التعبير- إلا أن الناس تعلموا كيفية التعايش معها. وقد شعر الجميع بأنه ما من شيء يمكن القيام به. وفي ذلك الحين، انتشر جهاز الاستخبارات في كل المناطق، وراقب صانعي المشاكل جيداً. وكان الناشطون في دمشق الذين طالبوا بالإصلاحات بعد موت الرئيس السابق حافظ الأسد قد باتوا في السجن؛ وذلك لمنع الناس من التحدث عن النظام بالسوء، ولعدم المطالبة بأي شيء؛ لغاية تلك اللحظة. غير أن الثورة في تونس أظهرت للسوريين العاديين أن كل شيء ممكن.

حينها، بدأت دعاء التي باتت في السادسة عشرة من عمرها وأخواتها بالإلحاح على والديهنّ لمعرفة ما يحصل في المنطقة، وبالتساؤل عن إمكانية حصول ذلك في سوريا أيضاً. لكنّ والدهنّ أثبط عزيمتهن خشية تشجيعهن، وقال لهن إن سوريا مختلفة عن تونس، وإن الحكومة فيها مستقرة، وإن ما حصل في تونس شيء لا يتكرر، أو هذا ما اعتقده.

ثم جاء دور مصر، وليبيا، واليمن. وفي كل بلد، أخذت الاحتجاجات منحى مختلفاً، ولكنها كلها طالبت بالشيء نفسه:

الحرية. لقد نجح احتجاج رجل يائس في إضرام الثورة في كل الشرق الأوسط، فوُلد الربيع العربي، ومنح الأمل للشعوب غير الراضية، ولاسيما الشباب، فيما بثّ الخوف في نفوس الحكام. وعندما حصلت الاحتجاجات في مصر، انتبه السوريون جيداً إلى ما يحصل. ففي عام 1958 اندمج البلدان لفترة وجيزة امتدت ثلاث سنوات وأصبحا الجمهورية العربية المتحدة، ثم انسحبت سوريا من ذلك الاتحاد عام 1961، لكن الروابط الثقافية بين البلدين ظلت قوية. وهكذا، عندما أُجبِر الرئيس المصري حسني مبارك على التنحي في 11 فبراير 2011، احتفل العديد من السوريين بسقوطه كما لو أنه زعيمهم.

راقبت دعاء وعائلتها التقارير الإخبارية بذهول، فيما نزل آلاف الثوار إلى ساحة التحرير في القاهرة للاحتفال بفرح، وأنشدوا الأغاني مع تكبيرات "الله أكبر" و"مصر حرّة".

لطالما اعتبرت درعا قاعدة دعم موثوقة للرئيس الأسد وحزب البعث التابع له. ولكن بعد سقوط مبارك، بدأ سكان درعا يتهامسون عن النظام القمعي لديهم، ويتساءلون عمن يجرؤ على مواجهة الحكومة السورية. فقد اشتُهر الأسد بمجابهته الاستياء بالعنف. لذا، يستطيع ربما أشخاص عاديون مناهضون لنظام قوي تبديل الأمور في الدول الأخرى، ولكن ليس في سوريا حتماً.

إلا أن مجموعة من الشباب الذين شارفوا على بلوغ سن الرشد كانوا أوائل المشاكسين الذين لفتوا الانتباه في سوريا. ففي ليلة هادئة من أواخر شهر فبراير في العام 2011، رسم أولئك الشبان رسم غرافيتي على جدار المدرسة مستوحين من الصرخات المسيطرة في الربيع العربي، وقد جاء فيه: إجاك الدور يا دكتور؛ في إشارة إلى بشار

الأسد نظراً إلى كونه متخصصاً في طب العيون. وبعد أن أنهوا الرسم، عاد الشباب إلى منازلهم وهم يضحكون ويمزحون، متحمسين لما اعتبروه مزحة غير مؤذية، وتحدياً بسيطاً.

عرفوا أن رسوم الغرافيتي يمكن أن تغضب القوى الأمنية، ولكنهم لم يتخيلوا قط أن عملهم الصغير سيشعل ثورة في سوريا، وسيفضي إلى حرب أهلية ستدمر البلاد وتقسّمها.

وفي صباح اليوم التالي، رأى مدير المدرسة رسوم الغرافيتي، فاتصل بالشرطة للتحقيق. تم توقيف خمسة عشر صبياً، وجرى اصطحابهم إلى مكتب الأمن السياسي ليخضعوا للاستجواب، أي ذراع النظام المخابراتي السوري الذي يراقب المعارضات الداخلية. وبعد ذلك، تم نقلهم إلى أحد أخطر مراكز الاعتقال في دمشق.

عرفت عائلة دعاء بعض أولئك الشباب وأقربائهم، وكان الجميع يعرفهم تقريباً. ففي مدينة درعا، يرتبط الجميع ببعضهم نوعاً ما؛ إما من خلال الزواج أو من خلال البيئة. لم يعرف أحد ما إذا كان أي من المعتقلين قد شارك فعلاً في ذلك، فقد أُجبِر بعض الشبان على الاعتراف أو توريط الأصدقاء، وتم استجواب شبان آخرين لأن أسماءهم كانت مكتوبة على جدار المدرسة قبل وقت من رسوم الغرافيتي. لم يصدق أحد حينها أن يتم اعتقال أولئك الأولاد بسبب تصرف بسيط.

بعد أسبوع تقريباً، قامت عائلات الشبان بزيارة عاطف نجيب- قريب الرئيس الأسد ومسؤول الفرع المحلي لمكتب الأمن السياسي- لطلب إطلاق سراح أولادهم. لكن حسب مصادر غير مؤكدة، طلب نجيب من الأهل أن ينسوا أولادهم، وقال لهم إنه كان يجدر بهم

تعليمهم حسن التصرف. ويُحكى أيضاً أنه سخر من الرجال قائلاً لهم: "أنصحكم بأن تنسوا أنكم أنجبتم أولئك الأولاد. عودوا إلى منازلكم، وناموا مع زوجاتكم، وأنجبوا أولاداً جدداً إلى العالم. وإذا لم يكن بوسعكم فعل ذلك، أحضروا زوجاتكم إلينا ونحن سنتولى المهمة عوضاً عنكم".

كانت هذه الإهانة هي التي جعلت الكأس تفيض بالنسبة لأهل درعا. وفي 18 آذار، نزل المحتجون إلى الشوارع، وطالبوا بإطلاق سراح الأولاد. جاء ذلك بعد ثلاثة أيام فقط على تنظيم مئات الأشخاص تظاهرة نادرة في مدينة دمشق القديمة للمناداة بإصلاحات ديمقراطية، وإنهاء قوانين الطوارئ، وإطلاق سراح جميع السجناء السياسيين. أنشدوا "سلمية، سلمية" خلال التظاهرة للإعلان عن طبيعة تحركهم. ويقال إنه تم توقيف ستة متظاهرين ذلك اليوم.

في 18 آذار، في تصرف منسق، نزل الناس في دمشق وحمص وبانياس إلى الشوارع للتضامن مع أهل درعا، وللمطالبة بإطلاق سراح أولاد درعا، فيما أنشدوا: "الله، سوريا، حرية".

حينها وقفت دعاء خارج منزلها، وراقبت المتظاهرين وهم يمشون صارخين: "أنهوا قانون الطوارئ"، ومطالبين بإطلاق سراح السجناء السياسيين، بمن في ذلك أولاد درعا. وقفت على حافة الرصيف أمام باب منزلها، فيما مرّ المتظاهرون أمامها، وكانوا قريبين منها جداً لدرجة أنه كان بوسعها مدّ يدها ولمسهم. فرحت كثيراً بالطاقة والحماسة اللتين كانتا واضحتين في المظاهرة. فقد قيل لها طوال حياتها إن أهل سوريا لا يتحدون حكومتهم أبداً، وإنه عليها قبول الأشياء كما هي. وفيما كانت واقفة هناك تراقب

المتظاهريـن الذيـن يمرّون أمامها، شـعرت لهنيهـة بالرغبة في النزول عـن الرصيـف والانضمـام إليهم، والمشـاركة في مـا يمكن أن يكون سـوريا جديـدة. ولكـن فجـأة، بدأت الشـرطة بإطلاق الغاز المسـيل للدموع على المتظاهرين، وراحت ترشهم بالمياه من شاحنات كبيرة. عندها، تحوّلت حماسـتها إلى ذعر، فيما ركض المتظاهرون في كل الاتجاهـات صارخيـن، أو ارتمـوا علـى الأرض عاجزيـن. وخـلال لحظة، تحوّل الشـارع أمام منزلها إلى سـاحة مواجهة، فذعرت دعاء وانكفأت إلى داخل منزلها.

وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، اجتمع متظاهرون خارج الجامع العمـري فـي وسـط المدينة ونظموا اعتصامـاً، معلنين أن اعتصام يوم الجمعة هو اعتصام الكرامة، وطالبوا بإطلاق سراح الأولاد وباستقالة حاكم درعا. هذه المرة، عمدت قوات الأمن إلى استعمال رادع أقوى من الغاز المسيل للدموع، فقد أطلقت النار على المتظاهرين، وقتلت أربعة أشخاص على الأقل.

كان أولئك القتلى هم الضحايا الأوائل في حرب ستقتل أكثر من 250 ألف شخص، وستجبر نصف سكان البلد على مغادرة منازلهم؛ إذ أصبـح أكثـر مـن 5 ملايين سـوري لاجئين فـي الخارج، ونحو 6.5 ملايـين مهجّريـن داخل البلد. هرب معظم سـكان درعا من منازلهم، فيما تحولت المدارس والمنازل والمستشفيات إلى ركام.

عندهـا، تصـدرت الأخبـار العالمية تقارير عن اسـتعمال العنف ضد المتظاهرين المسالمين في درعا، وجاء الرد سريعاً من المجتمع الدولـي. ففـي الأمـم المتحدة فـي نيويورك، أصدر الأميـن العام بان كي مون بياناً عبر الناطق باسـمه مفاده أنه من غير المقبول اسـتعمال

القوة القاتلة ضد المتظاهرين، وتم الإلحاح "على السلطات السورية للامتناع عن استعمال العنف، وللالتزام بالمعاهدات الدولية المتعلقة بحقوق الإنسان لضمان حرية الرأي والتعبير، بما في ذلك حرية الصحافة وحق التظاهر بسلام".

وقال الأمين العام للأمم المتحدة إنه "يتوجب على الحكومة في سوريا الإصغاء إلى المطالب القانونية للناس، والتعاطي معها عبر حوار سياسي وإصلاحات حقيقية، وليس من خلال القمع".

إلا أن الحكومة السورية روت الأحداث بطريقة مغايرة. فحسب وكالة الأنباء الحكومية السورية، سانا، "استفاد متسللون من تجمّع المواطنين قرب جامع العمري في مدينة درعا بعد ظهر يوم الجمعة لإحداث الفوضى والقيام بأعمال الشغب، ما أدى إلى أضرار في الملكيات الخاصة والعامة". وزعمت سانا أن المتسللين أضرموا النار في السيارات والمحلات، وهاجموا قوى الأمن.

غير أنه بالرغم من ردة الفعل العنيفة التي أبدتها الحكومة، استمرت التظاهرات في أنحاء سوريا، وطالب المواطنون الغاضبون بالإصلاحات. وفي يوم عيد الأم الواقع في 21 آذار، نقلت وكالة سانا خبراً عن مصدر موثوق في إدارة الأسد مفاده أنه تم إنشاء لجنة للتحقيق في الصدامات العنيفة التي جرت في درعا، وتم اتخاذ القرار بإطلاق سراح عدد من "الشباب".

أعيدت الملابس والحقائب إلى أولاد درعا، وتم اصطحابهم إلى منازلهم بعد إطلاق سراحهم في ساحة السرايا أمام آلاف المتظاهرين المهللين. إلا أن تلك الحماسة تحولت سريعاً إلى رعب؛ إذ اتضح جلياً أن بعضهم قد تعرضوا للتعذيب، علماً أن مِن بينهم

مَـن هـم فـي الثانية عشـرة مـن أعمارهم فقط. وقد كشـفت ظهورهم عن جروح عميقة ناجمة عن كابلات كهربائية استعملها رجال الأمن بمثابة أسـواط، كما كشـف الأولاد عن حروق بأعقاب السـجائر على وجوههم، فيما تم اقتلاع أظفار بعضهم. وقد فجّرت الحالة التعيسـة التي خرج بها الأولاد المعتقلون المزيد من الغضب؛ فمن غير المقبول تعذيـب الأولاد حتـى فـي نظام معـروف بقمعه للمعارضـة. وهكذا، أصبح أولاد درعا رموزاً للثورة الناشئة، وازدادت الاحتجاجات.

أملـت الحكومـة فـي أن يؤدي إطلاق سـراح الأولاد إلى تهدئة الاحتجاجات، وأرسلت مبعوثاً رفيع المستوى من قبل مكتب الرئيس للتحدث إلى حشود المتظاهرين. ذكّر المبعوث الحشود بأن الرئيس قد أطلق سـراح الشـبان وهو مدرك تماماً لمطالب المتظاهرين، وقال أيضاً إنه يجري التحقيق في من سـبّب أعمال العنف التي نشـأت بعد الاعتقالات، وإنه يُعتقَد أن هناك مندسين انتحلوا صفة قوات الأمن. وأضاف أن الرئيس الأسـد سيرسـل مندوبين شـخصيين إلى عائلات المتظاهرين الذين قُتلوا بهدف تقديم واجب العزاء.

إلا أن هـذه التصرفـات لـم تُـرضِ أحـداً. وفيمـا اسـتمرت الاحتجاجـات، اتهمـت الحكومة المتظاهريـن بتجاهل هذه الأعمال بهـدف الإطاحـة بالحكم، وبدأت قـوات الأمن تدخل المدينة بأعداد كبيـرة. وفـي الأنبـاء الصـادرة عـن الإعـلام الرسـمي، جـرى اتهـام المتظاهرين بأنهم على صلة بإرهابيين. وأُلقي اللوم على "الخارجين عن القانون" مثل ريبال رفعت الأسد- ابن عم الرئيس الأسد- الذي نفـي مـن سـوريا حين كان ولداً وأصبح منتقـداً علنياً للحكم، أو عبد الحليم خدام، وهو نائب سابق للرئيس انقلب ضد النظام عام 2005

وسافر إلى فرنسا، ونادى بتغيير النظام. وزعم الأسد أيضاً أن عناصر خارجية تحاول تدمير البلاد.

يوم عيد الأم ذاك، تبدّل عالم دعاء إلى الأبد. ففي كل سنة، وبمثابة تقليد عائلي، كانت هي وأمها وأخواتها وأخوها الصغير يزورون منزل الجد لتناول الغداء، ثم يزورون القبر لقراءة الفاتحة على روح جدتها، وكان هذا التقليد مهماً بالنسبة إلى دعاء. وبعد قراءة الفاتحة، كان الأولاد يوزعون المعمول المحشو بالتمر، والأزهار على بقية زوار المدافن، ويتلقون في المقابل هدايا صغيرة أيضاً.

في ذلك اليوم تحديداً، أحست هناء أنه يجدر بها البقاء في المنزل. فخارج باب منزلهم، كان الشارع الذي يضج عادة بالمارّة والمتسوقين صامتاً بشكل غريب. وتمّ الحديث عن وجود قناصين، ومراكز تفتيش، وصدامات بين المتظاهرين والقوى الحكومية. وللوصول إلى منزل والدها، كان يتوجب على هناء وأولادها الذهاب إلى وسط المدينة، حيث الصدامات في أشدها. وبالإضافة إلى ذلك، كان شكري في العمل ولا يستطيع مرافقتهم إلا في وقت متأخر من اليوم.

إلا أن دعاء لم توافق على البقاء في المنزل، إذ كانت تحب زيارة منزل جدها القديم المشتمل على حديقة، حيث تلعب مع أقاربها الأصغر سناً. ويفترض أن يجتمع ثلاثون فرداً على الأقل من عائلتها هناك، وهي لا تريد تفويت هذه المناسبة.

أصرّت قائلة: "ماما، إننا نذهب كل سنة. لا يمكننا التوقف عن فعل شيء نحبه".

وفي النهاية، وافقت هناء على مضض؛ لأنها عرفت أنها إذا لم

تأخـذ ابنتهـا، فيحتمـل أن تحاول دعاء الذهـاب بمفردها، تاركة إياها في المنزل قلقة. ففي خضمّ الوضع المتوتر في سـوريا، أرادت هناء أن تمنح بناتها وحمودي إحساساً بأن الأمور لا تزال طبيعية. لكنّ ما انتظرهم في تلك الزيارة لم يكن طبيعياً قط.

قررت هناء أن الوسيلة الأكثر أماناً للذهاب إلى منزل والدها هي اسـتقلال سـيارة أجرة. لذا، ارتدى الجميع أفضل الملابس، وحملوا بعناية علب "جاتوه" الشوكولا والحلويات، ثم خرجوا.

فـي البدايـة، بـدت مخـاوف هنـاء غيـر مبـررة. فحيـن خرجت هناء ودعاء وسـجى ونوارة وحمودي من الباب، ونظروا إلى شـارع الكاشـف، لاحظـوا وجود أشـخاص أقـل من المعتاد، لكـن المتاجر كانـت لا تـزال فاتحـة أبوابها أمام الزبائـن، فيما تابع الناس أعمالهم. ولمحت دعاء التجمع الاعتيادي للجيران في السـاحة المظللة، فيما وقف أمام محل الفلافل الشعبي الخاص بأبي يوسف الرتل الاعتيادي مـن الزبائـن الذيـن ينتظرون أدوارهم. أما المتجـر عند الزاوية، حيث تشـتري دعـاء وأخواتهـا الحلويـات ورقاقات البطاطـا المقلية، فكان مفتوحـاً أيضـاً. لهنيهة، نسـيت العائلة العنف الـذي يعصف بمدينتهم ويعكّر صفو حياتهم، ومشـت دعاء في الشـارع مبتسـمة لدى تفكيرها في زيارة قبر جدتها وقضاء اليوم مع عائلتها.

كانت الرحلة إلى منزل جد دعاء تسـتغرق خمس عشـرة دقيقة فقط في السيارة، وتكون سيارات الأجرة عادة كثيرة وأجرتها رخيصة: خمس وثلاثون ليرة للوصول إلى وسط المدينة. لكن في ذلك اليوم، مرّ عدد قليل من السيارات، وكانت نوافذها مرفوعة إلى الأعلى، ولم تتوقـف عنـد تلويـح هناء لهـا بذراعها. وأخيراً، توقفت سـيارة أجرة،

وأنزل السائق نافذته لإطلاعها على التسعيرة؛ 250 ليرة، أي بارتفاع نسبته 500 في المئة. وقال لها السائق إن هذه "أجرة المخاطرة". ذهلت دعاء من المبلغ الكبير الذي طلبه السائق، لكنها أدركت أنهم إذا كانوا يريدون الوصول إلى منزل جدها، فما من خيار أمامهم سوى دفع المبلغ الذي طلبه.

ركبوا جميعاً في سيارة الأجرة، وحرصوا على عدم سحق الحلويات أو تجعيد ملابسهم الجديدة. لمحت دعاء نفسها في المرآة الجانبية، وسوّت حجابها المطبع بنقوش ساطعة، إذ أرادت أن تبدو في أبهى حلة في الاحتفال.

كان السائق الشاب متوتراً جداً، وكان يتنفس بصعوبة، وينظر دوماً إلى جانبيه. وفيما شقوا طريقهم عبر المناطق المسلحة في درعا، سمعوا إطلاق رصاص، ما جعل السائق يقفز في مكانه، وبدأت دعاء تفكر في أن مخاوف أمها لم تكن وهمية. وعند كل منعطف، كانوا يتوقفون أمام حاجز عسكري. لذا، حاول السائق تفادي تلك الحواجز بسلوك طرقات خلفية، ووعد العائلة بإيصالها إلى أقرب مكان من مقصدها.

وفيما اقتربوا من وسط المدينة، لمحت دعاء دخاناً رمادياً داكناً يتصاعد من مبنى مجاور. وحين انعطفت السيارة عند زاوية، رأوا النيران تشتعل في مركز شرطة. خرجت النيران من السقف، وتدفقت بعنف من النوافذ، وبدأت رائحة الدخان تملأ سيارة الأجرة، وتحرق حنجرة دعاء.

في تلك اللحظة، خرج رجال الشرطة من المبنى مسرعين للهرب من النيران، فضغط السائق على المكابح. وصرخ فيما توقفت السيارة

فجأة: "لقد أشعله المتظاهرون". لكن دعاء بالكاد استطاعت سماعه بسبب هسيس النار، وصراخ الناس في الشارع. تأملت دعاء المشهد عبر الزجاج الخلفي، ولمحت فجأة عبر الدخان المتظاهرين وهم يرمون الحجارة ويصرخون على رجال الشرطة الهاربين، فاقتربت من النافذة أكثر في محاولة لرؤية ما يحصل بشكل أوضح.

"الآن سوف تخرج الأمور عن السيطرة". الخوف الذي بدا في صوت السائق أرعب دعاء. "أنا آسف، لكن عليكم الخروج. ابقوا قريبين من الجدران وإلا فسيطلقون عليكم النار". لم تصدق دعاء ما سمعته؛ سوف يتركهم السائق وسط هذه الفوضى! ولماذا ستطلق حكومتها النار عليها لمجرد وجودها في الشارع؟ دفعت هناء المال لسائق الأجرة على مضض، وخرجت العائلة من السيارة. حرصت هناء على إبقاء حمودي قريباً منها، فيما احتشدت الفتيات قرب بعضهن. أحسوا جميعاً بحرارة النيران فيما بدأوا يمشون بأسرع ما يمكن، وينظرون حولهم بحذر. تسارع خفقان قلب دعاء فيما أدركت أن أمها كانت محقة. فها هي الأمور تخرج عن السيطرة. والمتظاهرون الذين رأوهم لم يعودوا يحملون أغصان الزيتون ويرمون الحجارة، بل باتوا الآن يشعلون النيران، فتواجههم القوى الأمنية بخراطيم المياه، والغاز المسيّل للدموع، والرصاص الحيّ. وكانت عائلة دعاء عالقة وسط كل ذلك. وهي التي أصرّت على ذهابهم. إنها سبب تواجد عائلتها في خطر.

عند ارتفاع صوت الرصاص في مكان مجاور، أمسكت هناء بيد حمودي، وركضوا جميعاً ورؤوسهم متجهة إلى الأسفل إلى أقرب مبنى. أحسّوا أنهم مكشوفون فالتصقوا بالجدار، فيما حلقت

الرصاصات فوق رؤوسهم. لم يعرفوا من أين جاءت الرصاصات، ولم يعرفوا كيفية تفاديها. ولم يستوعب عقل دعاء أن الناس يطلقون النار عليها. ثمة جزء منها لم يستطع تصديق ما يجري حولها. لم تستطع تصديق أن حياتها العادية الهادئة قد انقلبت خلال لحظة، وأن عائلتها باتت الآن في خطر ومذعورة فيما الرصاصات تحلق في الهواء، والنيران تشتعل في الشارع. وثمة جزء آخر منها فكّر في خطة لحماية عائلتها. عرفت أنه عليهم المضي قدماً؛ فالعودة إلى المنزل خطيرة بقدر المتابعة إلى الأمام، لذا قرروا المتابعة باتجاه منزل جدهم. في مرحلة ما، زحفوا على أيديهم وركبهم عبر الشوارع. وكانت دعاء تصرخ باستمرار مخاطبة أخواتها اللواتي أمامها: "ابقين بالقرب من الجدار!". فيما أجهش حمودي ونوارة في البكاء. تجاهلت دعاء طعم الخوف في فمها فيما حاولت مواساتهما: "لا تخافا. انهضا الآن واركضا!". فقد عرفت أنهم إذا شعروا بالذعر فثمة احتمال أكبر بأن يقتلوا. تخلصت العائلة من الحلوى ونهضت، وتحركت بحذر بمحاذاة الجدران، مختبئة في ممرات المنازل قبل أن تعود إلى الطريق مجدداً. المسافة التي يفترض أن تستغرق عشر دقائق احتاجت إلى ساعة كاملة.

أخيراً، وصلوا إلى المنزل في منطقة العباسية، وطرقوا على الباب بذعر. فتح خال دعاء الباب، وأدخلهم إلى المنزل بوجه شاحب نتيجة القلق لدى رؤيته عائلته وسط النيران. وصرخ في وجه هناء بعد أن أصبحوا جميعاً بأمان في الداخل: "هل أنت مجنونة؟! ألا تعرفين ما يجري في الخارج!؟".

كانت سجى ونوارة وحمودي في حالة صدمة، فانكفأوا بسرعة

إلـى الجهـة الخلفيـة مـن المنزل، بعيـداً عن أصوات النـار والموت، ومرتجفين خوفاً. أما دعاء فشعرت أنه عليها معرفة ما يحصل. وبعد دقائـق مـن إلقـاء التحية على أقاربها، وضعت كيس البسـكويت على الطاولة، وركضت على السـلالم في طريقها إلى السـطح، وهي على علـم بأنها تسـتطيع من هناك رؤية السـاحة حيـث تجري الصدامات. نادتها هناء وطلبت منها عدم الذهاب، لكن دعاء تجاهلتها.

ركضت على السـلالم في طريقها إلى الأعلى، وفتحت الباب، وتوجهـت إلـى جـدار يرتفـع حتـى صدرهـا ويحيط بحافة السـطح. تنفست بسرعة، ونظرت من فوق الجدار إلى الساحة التي أمام منزل جدها. خلال طفولتها، أمضت دعاء ساعات على ذلك السطح وهي تراقـب السـاحة المحاطـة بالمتاجـر والمنازل. تأملـت المنطقة الآن، ولفتها مشهد المتظاهرين الذين احتشدوا في الساحة وراحوا ينشدون "نريد الحرية"، فيما مشوا حاملين اللافتات وأغصان الزيتون وتوجهوا نحو رتل من رجال الأمن. وعلى عكس المتظاهرين الموجودين على مسافة قريبة، كانت هذه التظاهرة في الساحة أمام منزل جدها سلمية.

بـات المتظاهـرون علـى مسـافة خمسـمئة متر تقريبـاً من موقع دعـاء التـي كانـت متواجدة في النقطة المثالية لمراقبة التظاهرة. وقف المحتجون في أرتال، وتقدموا ببطء عبر السـاحة، فيما بدأت القوى الأمنية تطلق الغاز المسـيل للدموع عليهم. وطارت القنابل المعدنية في الهواء، وأصابت بعض المتظاهرين، قبل أن تسـقط أرضاً وتطلق الغاز. هرب بعض الأشخاص، فيما استمر آخرون في التقدم والإنشاد "لا لقانـون الطـوارئ" و"الشـعب السـوري لن يذلّ". ركـع العديدون منهـم علـى ركبهـم، وفركوا عيونهم فيما اختنقوا نتيجة الغاز المسـيّل

للدمـوع. وبعـد ذلـك، رأت دعـاء جنـوداً يرفعون بنادقهـم ويطلقون الرصاص الحي على الحشـود مباشـرة. وسـمعت نفسـها تصرخ: "يا الله"، قبل أن تصل موجة من الغاز المسيّل للدموع إلى فمها وتحرق حنجرتهـا. حرقـت المـواد الكيميائية عينيها، فبدأت تسـعل بطريقة لا إرادية، وبدأت تشـعر بأنها سـتفقد وعيها فيما أمسـكت بحافة جدار السـطح. رأت النـاس يسـقطون أرضاً، بعضهـم جرحى، وبعضهم لا يتحركـون أبـداً. حتـى مـن بعيد، كانت دعاء واثقـة من أنهم قد ماتوا، فبـدأت تبكـي حزنـاً عليهـم متعجبة مـن قتلهم بوحشـية. الدولة التي كبرت فيها وأرادت أن تصبح شـرطية لخدمتها تطلق الآن النار على مواطنيها، على ناس من منطقتها. عندها، أدركت أن كل الأمور التي اعتادت تصديقها بشأن بلدها كانت خاطئة.

"انزلي إلى هنا!". استطاعت دعاء سماع صراخ أمها المذعور من أعلى السلالم، فتراجعت إلى الخلف وهي نصف عمياء نتيجة الدخان والدمـوع. ولحظـة أن وصلـت إلـى أمها، انهارت بيـن ذراعيها لاهثة بسبب الغاز المسيل للدموع، ومرتجفة نتيجة الصدمة. فقد كانت تلك هي المرة الأولى التي ترى فيها دعاء شخصاً يموت أمامها، ولا يسعها فعل أي شيء حيال ذلك. كانت متفرجة عاجزة.

بعينين دامعتين نزلت دعاء مع أمها السلالم وصولاً إلى المنزل، ودخلتـا غرفـة نوم للاسـتراحة ومحاولة اسـتيعاب مـا قالت دعاء إنها رأتـه. وبعـد دقائـق قليلة، أخرجها جدها من الغرفة؛ فقد أراد الحفاظ علـى طقـوس وجبـة عيـد الأم. وهكـذا بـدأت العائلة تتنـاول الطعام بصمـت رهيـب وثقيـل. لكـن عندمـا حاولـت دعـاء الأكل شـعرت بالغثيـان، فتركـت طبقها المليء بأطعمتهـا المفضلة على حاله. دخل

شكري عبر الباب فيما كانوا على وشك تناول الحلويات، وانضم إليهم لشرب القهوة وتناول الحلويات، ولكنه أعلن أنهم سيغادرون قبل حلول العتمة. فصحيح أن إطلاق النار قد انتهى، وأن المتظاهرين قد تراجعوا، لكن الجو في الخارج لا يزال متوتراً. "يمكننا زيارة قبر الجدة في يوم آخر". هذه المرة، لم تعترض دعاء.

عندما غادروا المنزل محتشدين قرب بعضهم بعضاً، رأوا بقع الدم على الرصيف حيث حصل إطلاق النار. وكانت الشوارع مقفرة، باستثناء بعض الرجال الذين راحوا ينقلون المصابين إلى السيارات لأخذهم بعيداً. بدأ الجميع يشعرون بحرقة في عيونهم التي دمعت بسبب الغاز المسيل للدموع غير المنظور الذي لا يزال منتشراً في الهواء. أخذ شكري العائلة إلى شارع مجاور مزدحم، وبدا غير متأثر بالعنف الذي حصل على مسافة مبنى واحد، ثم أوقف سيارة أجرة للعودة مع عائلته إلى المنزل.

اكتشفوا لاحقاً أن المتظاهرين أضرموا النار أيضاً في المقر الرئيس لحزب البعث وفي محكمة. وتم أيضاً استهداف فرعين لشركة "سيرياتيل"؛ وهي شركة الهاتف التي يملكها الملياردير رامي مخلوف، قريب الرئيس الأسد.

قُتل خمسة عشر متظاهراً في ذلك اليوم؛ حسب شهود عيان، وسجّلت إصابات عديدة. أعلنت الحكومة في دمشق أنها ستحقق في أسباب الوفيات، ولكنها بدأت فوراً بإلقاء اللوم على مسؤولين محليين في درعا. وبعد ذلك، ازداد حجم الاحتجاجات، وحصل المزيد من الصدامات بين المتظاهرين والشرطة. وفي غضون ذلك، ارتفع عدد القتلى. وكردة فعل على فظاظة الحكومة، بدأ جناح من

المعارضة المسلحة بالظهور من حركة الاحتجاج السلمية.

بعد شهر واحد من حادثة عيد الأم، رافقت هناء أختها لزيارة صديقة لهما تدعى أم أحمد، والتي كان ابنها البالغ من العمر أربعة عشر عاماً أحد الأولاد الذين جرى اعتقالهم. وعندما عادت هناء إلى المنزل، كانت مضطربة ودامعة. إذ أصبح أحمد نحيلاً جداً، لا بل مثل شبح. وقد قالت أمه لهناء: "لم نتعرف إليه تقريباً عندما عاد إلى المنزل". وعندما التقت هناء الصبي، رأته جالساً بلا حراك، ومحدقاً إلى الفضاء، وعاجزاً عن الإجابة عندما تحدثن إليه. كان وجهه المتورم مغطى بالجروح الحمراء اللامعة، فيما امتلأت ذراعاه بالرضوض. وبالإضافة إلى ذلك، كانت أصابعه متشققة وأظفاره ناقصة. فشرحت أمه أنه تم ضرب يديه بالكابلات كعقاب على رسوم الغرافيتي.

انتشر خبر سوء معاملة الأولاد أثناء تواجدهم في السجن، واستمر عدد القتلى بين المتظاهرين في الارتفاع، وانضم المزيد من الأشخاص إلى الاحتجاجات الأسبوعية في الجوامع، وبدأت المظاهرات تزيد من مطالبها الأساسية التي كانت تتمثل بإنهاء العنف وقانون الطوارئ. فقد باتت المظاهرات الآن تنادي بتغيير النظام. وازدادت الاحتجاجات بسرعة من حيث الحجم والتواتر، فبدأ المزيد من الجنود ينتقلون من دمشق لقمع حركة الاحتجاجات.

سمعت دعاء أنه تم تشجيع النساء على المشاركة في التظاهرات. وبعد ما رأته من سطح منزل جدها، وما سمعته من أمها عن جسم أحمد المرضوض والمضروب، أصبحت تواقة للانضمام إليها؛ فقد تحرك شيء ما داخلها. فالفتاة الخجولة التي كانت تخشى التغيير في

ما مضى صارت الآن راغبة في أن تكون جزءاً من الثورة.

حصلت إحدى المظاهرات في منطقتها، وجاء العديد من الأشخاص من الريف والمناطق المجاورة للمشاركة فيها. كان الجو شديد الابتهاج، وبدأ أهل درعا يصدقون أنه بإمكانهم إحداث فرق حقيقي في بلدهم. وعندما سمعت دعاء أصوات المتظاهرين تقترب من منزلها، جمعت أخواتها وأخاها حمودي وصديقتيها آمال وهدى، وانضموا جميعاً إلى صف من النساء والفتيات الشابات اللواتي يسرن في آخر التظاهرة. حينها، شعرت دعاء بالكثير من الفرح. فللمرة الأولى في حياتها أحست بأن لديها هدفاً كبيراً، وكانت مصممة على أن تؤدي دوراً في ما أملت أن يصبح حركة لتغيير مسالم في البلد الذي أحبته.

وهكذا، كلما شاركت دعاء في المزيد من التظاهرات كانت تصبح أكثر جرأة، كما وجدت طرائق مختلفة للمساهمة في القضية. فقد تطلّب أحد أدوارها كمعارضة مساعدة الأشخاص الذين تعرضوا للغاز المسيل للدموع، وذلك من خلال عصر الليمون الحامض على فوط ليضعوها على عيونهم المتحسسة، أو قطع البصل إلى أنصاف لتوليد الدموع التي تزيل عند سيلانها المادة الكيميائية. أما إحدى أخطر مهماتها فكانت التقاط القنابل المسيلة للدموع وإعادة رميها على القوى الأمنية. إذ كانت القنابل الساخنة تحرق يديها، وكان هناك خطر كبير في تعرّض وجهها للغاز المسيل للدموع في حال انفجرت القنبلة أثناء حملها لها. كما خاطرت أيضاً بلفتها انتباه القوى الأمنية، لكنها لم تكترث لذلك. فقد باتت الآن متلزمة بالثورة تماماً، وبدأت صديقاتها بالانخراط فيها أيضاً.

وفي النهاية، أصبحت الاحتجاجات حدثاً اجتماعياً، حيث يجتمع الشباب لمشاركة بعضهم آمالهم بشأن المستقبل. وانضمت آمال وهدى غالباً إلى دعاء وأخواتها بعد المدرسة، وفي عطلات نهاية الأسبوع للمشاركة في الاحتجاجات؛ وذلك كلما سمحت لهنّ أمهاتهن بذلك. لكنّ معظم صديقات دعاء بقين محتجزات في المنازل، وكنّ ينتظرن دعاء بقلق لتخبرهن بما حصل في كل تجمّع. وهكذا، لم تعد محادثات دعاء مع صديقاتها تقتصر على الشباب أو الزواج أو الثرثرة المحلية، بل بتن يتكلمن الآن عن المقاومة والتمرد.

وفي الليل، لم تعد دعاء تشاهد التلفزيون، وإنما راحت تمضي أوقات فراغها في التفكير في نداءات ملهمة وشعارات قوية لطباعتها على لافتات تأخذها معها إلى المظاهرات ليحملها الآخرون. وبدأت أيضاً تصنع الأساور والخواتم من الخرز بألوان علم الثورة: أحمر وأسود وأخضر. احتاج إعداد كل سوار أو خاتم إلى ساعات عدة. وكلما نفد منها الخرز كانت تتوسل إلى والدها ليشتري لها المزيد. في البداية، رفض شكري ذلك خشية أن تجازف دعاء بسلامتها بسبب إعدادها الحلى الخاصة بالثورة. ولكنه استسلم لها في النهاية، كما يحصل عادة. وضعت دعاء الأساور في كلا معصميها، ووزعتها على صديقاتها، وطلبت منهن إخفاءها تحت أكمامهن عند قيام رجال الأمن بجولاتهم. عرفت أن ما تفعله فيه مجازفة كبيرة؛ لدى اكتشاف تلك الأساور، ولكنها كانت مصرّة على المساهمة في القضية بأية طريقة ممكنة. خافت أمها من أن يكتشف أحدهم أن دعاء تصنع بنفسها رموز الثورة الصغيرة تلك، وخشيت من اعتقال ابنتها. لذا، كانت هناء تخفي أغراض دعاء عند خروجها من المنزل، لكن هذه

الأخيرة كانت تجدها مجدداً وتعود للعمل على صنع الحلي ليلاً أثناء نوم والديها.

شرحت لوالديها: "سأجن إذا لم أفعل ذلك". إذ لم يكن بإمكانها التظاهر ليلاً حين يتظاهر الرجال فقط، ولكنها لم تتحمل فكرة الجلوس وعدم القيام بأي شيء في ذلك الوقت.

كانت التظاهرات قريبة جداً من منزلها، حيث استطاعت سماع الشعارات التي أطلقها المتظاهرون. وكلما سمعتها دعاء، أحست برغبة كبيرة في المشاركة. خلال النهار، كانت ترتدي سروال الجينز والكنزة الصوفية، وتضع علم الثورة فوق كتفيها استعداداً للخروج. وكلما رأتها أمها ترتدي ملابسها، كانت تتوسل إليها للبقاء في المنزل بعيداً عن الأذى.

كانت هناء تتوسل إلى ابنتها قائلة: "حياتي، أرجوك لا تذهبي. سوف تتعرف إليك القوى الأمنية وتنتقم منك".

لكن دعاء لم تصغِ إليها. "ماما، لا يمكننا الجلوس في المنزل وعدم فعل أي شيء".

عرفت هناء أنها ستخوض معركة إذا حاولت منع دعاء من الخروج. وكانت في أعماقها فخورة بشجاعة ابنتها وتصميمها على المشاركة في الثورة التي يمكنها أن تغير سوريا، ولذلك سمحت لها بالذهاب.

ومع مرور الأيام، لاحظت هناء تحوّلاً في دعاء. فبدلاً من الفتاة الخجولة والخائفة والمقاومة دوماً للتغيير، باتت دعاء الآن مؤيدة له. وقد ملأت حماستها الأجواء وهي تخبرهم عن مشاركتها في التظاهرة في ذلك اليوم وما حصل معهم.

كان شكري يصغي إلى دعاء بخوف؛ فقد خاف كثيراً على بناته. إذ سمع قصصاً عن نساء يتم اعتقالهن واغتصابهن من قبل رجال الأمن أمام عيون عائلاتهن. وثمة نساء أخريات اختفين ببساطة. كان هذا أسوأ كابوس يمكنه أن يحصل له، وقد شعر بالكثير من القلق كلما غادر إلى عمله تاركاً الفتيات وهناء بمفردهن.

كلما عاد شكري إلى المنزل، أصرّ على بقاء الفتيات في الداخل طوال الوقت، إلا للذهاب إلى المدرسة، الأمر الذي رفضته دعاء. وكانت تقول له: "بابا، تقول لنا إنه يجدر بنا المطالبة بحقوقنا، ولكنك لا تسمح لنا بالخروج والانضمام إلى التظاهرات".

فيهزّ شكري رأسه قائلاً: "مهمتي هي حمايتك أنت وأخواتك. اتركي التظاهرات للرجال في هذه المدينة". وبدأ يصرّ على هناء لتبقي الجميع في المنزل أثناء وجوده في العمل. لكن دعاء رفضت ذلك، وبكت وعبست ورفضت الأكل أو الكلام طوال أيام عدة؛ فقد أحست أنها من دون جدوى وحبيسة في المنزل.

وفي مرات عدة، عندما أحست دعاء بأنها مضطربة كثيراً، كانت تهرب وتنضم إلى التظاهرة. وكان شكري يغضب بشدة كلما اكتشف ذلك، لكن لم يسعه فعل الكثير. وفي النهاية، توقف عن محاولة احتجازها في المنزل بعيداً عن الخطر. فقد تفوق عناد دعاء على عناده.

أصبحت التظاهرات جزءاً من الحياة اليومية في المنطقة. إذ يجتمع الرجال والنساء والأولاد للمشاركة أو المراقبة. وقد صادفت دعاء غالباً أقاربها وأصدقاءها في المدرسة، وكلما التقت صديقتيها المقربتين- آمال وصديقة أخرى تدعى دعاء أيضاً- كانت تمسك

بيديهما وينشدن معاً ويسرن معاً في التظاهرة.

وفي 30 آذار 2011، وجّه الرئيس الأسد خطاباً في البرلمان تناول فيه للمرة الأولى الاضطرابات الحاصلة في بلاده. وعندما دخل البرلمان، وقف النواب، وصفقوا بأيديهم بحماسة، وراحوا ينشدون بصوت عالٍ: "الله، سوريا، بشار".

وفيما شاهدت دعاء إعادة بث الخطاب في أخبار المساء تلك الليلة، أملت في أن يلبي الرئيس كل طلبات المتظاهرين. لكنه عندما اعترف بالوفيات التي حصلت في درعا، قال إنها قضايا معزولة ومجرد "خطأ". وأشار إلى أنه لكل مواطن طلباته، وإلى أن حكومته تعمل على حلها. ولكنّه حذر من تنفيذ "المتآمرين لأجندة إسرائيلية" تؤثر في أولئك الذين نزلوا إلى الشوارع بنوايا طيبة. وأطلق على أولئك المتآمرين اسم "العملاء الأجانب"، فيما سمّى المتظاهرين "إرهابيين"، وزعم أن القنوات التلفزيونية العربية الفضائية جزء من المخطط الذي "يولّد الفوضى تحت ذريعة الإصلاح". كما أعلن أنه قد يفكر في إجراء بعض التعديلات في النظام، ولكن بعد عودة البلاد إلى الاستقرار وبعد تحسن الاقتصاد. وزعم أن أشرطة الفيديو والصور التي تبثها وسائل الإعلام لجمهورها وتظهر كيفية تعرض العناصر الحكومية للمدنيين زائفة، وأكّد أنه لن يستسلم لطلبات الذين اعتبرهم إرهابيين، فصرخ رئيس الوزراء حينها: "الله، سوريا، بشار".

شعرت دعاء بالارتباك حين شاهدت البث التلفزيوني. عندما تحدث الأسد عن "الإرهابيين"، هل كان يشير إلى أصدقائها وعائلتها وجيرانها!؟ لسنا إرهابيين! قالت لنفسها. لكن في ما يتعلق بإطلاق النار على المتظاهرين غير المسلحين في درعا، اكتفى الأسد بالقول

إن ذلك كان "خطأ" حصل، "وليس كل المتظاهرين متآمرين"، ولم يُدِن أعمال القمع الوحشية التي نفذتها القوى الأمنية. في تلك اللحظة، أدركت دعاء أن الصراع قد بدأ للتو، وأن بلادها بدأت تنهار.

بعد خطاب البرلمان، استمرت الاضطرابات بالانتشار في سوريا، وبدأت التظاهرات في مدن دمشق وحمص وحلب ودوما واللاذقية. بدا وكأن الموجة تنقلب لصالح المعارضة، حيث بات الناس في سوريا ضد الحكومة. فأصبح المتظاهرون أكثر جرأة، وأقسموا على الاستمرار في تحركهم إلى حين تحقيق طلباتهم. بعدها، في 21 نيسان، أي بعد شهرين فقط من حادثة رسوم الغرافيتي، أعلن الرئيس الأسد عبر التلفزيون الحكومي أنه سيلغي قانون الطوارئ المعتمد منذ العام 1963.

إلا أن هذه التسوية كانت صغيرة جداً ومتأخرة جداً بالنسبة إلى المعارضة. فإلغاء القانون لم يعد كافياً الآن، إذ صار الناس يطمحون إلى تغيير النظام، ولكنهم أدركوا سريعاً أن الرئيس الأسد يجري تبديلاً خاصاً به؛ لتعزيز قوته من خلال استبدال النظام القديم الذي ورثه عن والده بآخر جديد بحجة محاربة الإرهاب. فقد بدّل الأسد القوانين، حيث بات أي شخص تعتبر أفعاله مضرة بالدولة أو مهينة للحزب الحاكم أو لزعمائه، أو أي شخص شارك في التظاهرات أو حمل الأسلحة، متهماً بمساعدة "الإرهابيين" أو تحريضهم.

واستجابة لهذا القمع واستغلال السلطة ازدادت التظاهرات. وفي اليوم التالي، أو في ما بات يعرف بيوم الجمعة العظيم، حصلت التظاهرات في الوقت نفسه في أكثر من عشرين مدينة في أرجاء البلاد. ومجدداً، استعملت القوى الأمنية الغاز المسيل للدموع والذخيرة

الحية لقمع المتظاهرين.

في شوارع درعا، أصبحت المواجهات بين المتظاهرين والجنود الحكوميين أكثر عنفاً، لكنّ هذا لم يردع دعاء التي استمرت في الخروج على أية حال. وذات مساء، فيما كانت تظاهرة شاركت فيها دعاء ونوارة وآية وسجى على وشك الانتهاء، ظهرت فجأة القوى الأمنية وتقدمت صوب الحشود رافعة الأسلحة. عندها، عرف الجميع ما سيحصل لاحقاً؛ الغاز المسيل للدموع والضرب، وربما الموت. خاف الناس وبدأوا يصرخون ويركضون في مختلف الاتجاهات، فأضاعت دعاء أخواتها وسط هذه المعمعة. لكن، فيما تفرق الناس في كل الاتجاهات، سمعت دعاء أحد المنظمين يناديها قائلاً:

"خبئي مكبر الصوت والطبلة. فإذا اكتشفوا أننا نستعملهما سيتم اعتقالنا". فأي شخص يتم إلقاء القبض عليه حاملاً أشياء تخص التظاهرة سيتم ربطه بالتظاهرة، وبالتالي سيصنّف كمساعد للإرهابيين أو إرهابي.

ومن دون تردد، أمسكت دعاء بالطبلة ومكبّر الصوت وخبأتهما تحت عباءتها. ففي هذه الأيام، طلب شكري من الفتيات ارتداء العباءة- أي ثوب أسود طويل يغطي الجسم من الرأس إلى القدمين- في حال أصررن على الخروج إلى الشارع. فالنساء اللواتي يرتدين العباءات لا يلفتن الكثير من الانتباه، ويسمح لهن أيضاً بالاختلاط مع نساء أخريات في الشارع، ما يوفر شيئاً من الحماية لدعاء وأخواتها. في البداية، رفضت دعاء ذلك لأنها تكره الثوب الطويل الفضفاض الذي يخفي هويتها. ولكنها في تلك الليلة شعرت بالامتنان للعباءة؛ إذ إن إخفاء الطبلة ومكبر الصوت تحتها يسمح لها بنقلهما إلى مكان

آمن. كان منزلها على بعد شارعين فقط، لذا استدارت وركضت في اتجاهه.

وبعد أن تقدمت بضع خطوات فقط، توقفت فجأة سيارتان أمامها. كانت الأولى مليئة بالمتظاهرين، فيما الثانية مليئة برجال الأمن الذين طاردوهم. وفيما خرج رجال الأمن من السيارة لاعتقال المتظاهرين، أدركت دعاء أنها في ورطة. فإذا ألقوا القبض عليها ومعها الطبلة ومكبر الصوت فسيتم اعتقالها أيضاً، أو ربما تتعرض لما هو أسوأ. حاولت إبعاد الذعر عنها، ونظرت حولها بسرعة، فلمحت مبنى مهجوراً مباشرة خلفها فركضت صوبه. لم تنتبه إليها القوى الأمنية التي كانت مشغولة باعتقال المتظاهرين. خفق قلب دعاء بسرعة كبيرة فيما ركضت إلى غرفة فارغة في الطابق الثاني واختبأت وراء عمود، ثم انتظرت بصمت محاولة التقاط أنفاسها. لكن بعد لحظات قليلة، امتلأ المبنى برجال الشرطة الباحثين عن المتظاهرين. عندها، حبست دعاء أنفاسها، وامتنعت عن التحرك، وجفّ فمها، وضاق صدرها، وتيبست أصابعها، وارتجفت ذراعاها، فيما ارتخت قبضتاها على مكبر الصوت والطبلة. إذا وقعا على الأرض، فسيتم حتماً إلقاء القبض عليها. بدأت دعاء تدعو في سرها للتحلي بالقوة.

وبعد دقائق مليئة بالرعب، سمعت أصوات رجال الشرطة وهم يخرجون من المبنى، عائدين إلى ما بقي من التظاهرة. عندها، تنفست الصعداء، ووضعت الطبلة ومكبر الصوت أرضاً لإراحة ذراعيها قليلاً. راقبت من داخل المبنى رجال الشرطة وهم يفتشون المتاجر والمطاعم المجاورة لاعتقال الأشخاص. وأخيراً، عندما اختفى رجال الشرطة عن نظرها، رفعت دعاء الطبلة والمذياع وخرجت إلى الشارع

للعـودة إلـى منزلها. لكن لحظة وطأت قدماها الرصيف، أدركت أنها ارتكبـت خطـأ. فأحـد رجال الأمـن لم يكن قد غـادر المنطقة، وكان يقف مباشـرة أمام المبنى، على مسـافة مئة متر تقريباً من حيث كانت تختبـئ. وقـد لمحهـا على الفور فيما كانت تخرج من المبنى، فصرخ مشيراً إليها: "أمسكوا بها! إنها واحدة من المتظاهرين!".

أحست دعاء بالذعر، وركضت بأسرع ما يمكنها. لم تكن تخبئ الطبلة ومكبر الصوت فقط، وإنما كان علم الاستقلال لا يزال ملفوفاً حـول كتفيهـا، لـذا لا مجـال أبـداً لتركها وشـأنها إذا تـم إلقاء القبض عليها. انعطفت دعاء بسـرعة حول زاوية، فاختفت عن نظر الشـرطة لهنيهة، وطرقت على أول باب رأته.

وتوسـلت عبـر فتحـة الباب: "اسـمحوا لي بالدخـول. أرجوكم خبئوني وإلا فسيتم اعتقالي!".

وعندما فتح الباب، أحسـت بأن الله قد اسـتجاب لتضرعها. إذ إن امرأة بعمر أمها تقريباً أمسـكت بها وأدخلتها إلى المنزل بسـرعة، ثـم أغلقـت البـاب على أصوات إطلاق النار. رافقت المرأة دعاء إلى الجهة الخلفية من المنزل، وقالت لها:

"بدّلي ملابسـك الآن. خذي عباءة ابنتي وضعي حجاباً مختلفاً. وإذا أتوا، فسأقول إنك ابنتي".

لكـن دعـاء رفضـت أخذ ملابس المـرأة. إذ لم تكن تنوي البقاء لوقت طويل، ولا تريد أيضاً تعريض المرأة للمزيد من الخطر. وبدلاً مـن ذلـك، جلسـت دعـاء فـي زاوية الغرفـة مرتجفة، إلـى أن اختفت أصـوات الرصـاص فـي الخارج. وكل بضع دقائق، كانت المرأة تأتي للاطمئنـان عليهـا. "يـا بنتـي، ابقي هنا حتى هبـوط الليل لتتمكني من

العودة إلى المنزل بأمان. يمكننا إخفاء أغراضك ليوم آخر".

وعندما هبط الظلام بعد ساعة تقريباً، شكرت دعاء المرأة على إنقاذها حياتها. عرفت أنه يجب عليها العودة إلى المنزل، ولذلك فتحت الباب الأمامي وخرجت. كان رجال الأمن لا يزالون يجوبون الشوارع، ولكن بعد التخلص من علم الاستقلال، لم تعد دعاء مثيرة للشكوك في عباءتها. فقد رأى فيها الجنود مجرد فتاة سورية عادية تسير محنية الرأس. كان منزل دعاء على مسافة خطوات قليلة من مخبئها. وبعد أن باتت الآن قريبة من الأمان، مشت دعاء بأسرع ما يمكنها من دون أن تلفت الانتباه. رأت أختها الكبرى آية التي كانت تقف في الخارج.

صرخت آية من بعيد: "دعاء! أين كنت؟ قلقنا عليك كثيراً!".

فاستدار رجال الأمن صوبهما، ورأتهم دعاء ينظرون إليها باهتمام مفاجئ. خافت أن يتعرفوا عليها، فركضت صوب منزلها. وما إن وصلت إلى آية حتى أمسكت بذراع أختها، وقالت لها بصوت خافت فيما نظرت من فوق كتفها:

"هل يمكنك السكوت؟ فأنت تلفتين انتباههم". غير أن رجال الأمن باتوا الآن ينظرون إلى الفتاتين ويشيران إليهما. لكن دعاء وآية تابعتا طريقهما إلى المنزل. وما إن وصلتا إلى الباب حتى جرتهما هناء إلى الداخل، وعانقت دعاء بقوة. إذ شعرت بالكثير من القلق عندما عادت الفتيات جميعاً إلى المنزل من دون دعاء، وخافت أن تكون قد تعرضت للاعتقال.

وفيما اجتمع أفراد عائلتها حولها، أخبرتهم دعاء بما حصل، فتأثرت أخواتها بشجاعتها. أما هناء فشعرت بالكثير من الراحة

لسلامة دعاء، ما حال دون شعورها بالغضب منها الآن.

قالت هناء وهي تضمّ دعاء وتداعب شعرها: "حبيبتي، أعرف أنك شجاعة، ولكنك لا تزالين فتاة صغيرة، والله يعلم ما الذي سيفعلونه بك إذا ألقوا القبض عليك. يجب توخي الحذر".

استدارت دعاء صوب والدها متوقعة منه معانقتها؛ تماماً مثلما فعلت أمها. ولكنه عوضاً عن ذلك وقف مطبقاً قبضتَي يديه، ووجهه أحمر نتيجة الغضب. تقدمت دعاء خطوة صوبه، ثم توقفت بعد أن أدركت الغضب الواضح في لغة جسده. إذ لم يكن شكري يعبّر عن غضبه غالباً، ولكنه حين يفعل ذلك يكون الأمر مخيفاً. ولم تكن دعاء قد رأت من قبل مثل هذا الغضب في عينيه، فعرفت أنها تخطت الحدود هذه المرة.

صرخ: "أمنعك من الذهاب إلى تظاهرة أخرى مجدداً".

ابتعدت عنه سجى ونوارة وراقبتا دعاء بحذر، وحاولت هناء تهدئته، فيما انفجرت دعاء في البكاء. إذ لم تكن تتحمل فكرة بقائها بعيدة عن التظاهرات. لكنّ شكري كان مصراً؛ إذ ذعر مما كاد يحصل لو تم اعتقال دعاء. فقد سرت شائعات عن فتيات يتم اغتصابهن في الشوارع أمام أهلهن بسبب خروجهن عن الخط وعدم التزامهن بالقانون. كما تم اعتقال نساء أخريات واختفت أخبارهن بعد ذلك. لذا، قرّر شكري أن يحبس دعاء في المنزل إذا كان هذا ضرورياً لمنعها من الخروج إلى الشوارع، ولمنعها من تعريض نفسها للخطر. وللمرة الأولى في حياة دعاء، لم يكترث أبوها لدموعها، بل قال بصرامة: "هذه كلمتي الأخيرة".

وبالرغم من عنادها، كانت دعاء لا تزال فتاة سورية تقليدية في

الصميـم، وعرفـت أنـه عليها إطاعـة والدها، كما عرفت أنه لا يمكنها الاعتراض هذه المرة، ولذلك وافقت على مضض على البقاء داخل المنـزل. لكـن قبولهـا بذلك القرار لن يدوم طويلاً؛ لأن قلبها بقي مع الثورة.

الفصل الثالث

حصار درعا

بدأ يوم الاثنين 25 نيسان 2011 مثل أي يوم ربيعي آخر. وكانت دعاء في طريقها إلى السطح لنشر الغسيل؛ المهمة المنزلية التي لا تعارضها أبداً لأنها تستطيع إنجازها أثناء ثرثرتها مع صديقتها المفضلة آمال، التي تطل شرفة منزلها على سطح منزل دعاء. كما أنها فرصة أيضاً لرؤية الداخلين والخارجين إلى الحيّ من نقطة مراقبة ممتازة.

ذلك الصباح، دفعت باب السطح بإحدى وركيها، فيما حملت السلة البلاستيكية المليئة بالملابس والأوشحة والقمصان المغسولة حديثاً على الورك الأخرى. سطعت الشمس على وجهها، فيما لفح النسيم البارد حجابها. وعندما رفعت السلة البلاستيكية للإمساك بها بشكل أفضل، سمعت صوت هدير منخفضاً، فذهلت، ووضعت السلة أرضاً، وأسرعت للنظر من فوق الحافة. من علو أربعة طوابق، استطاعت رؤية شوارع الكاشف بشكل واضح؛ الفرن في الجهة المقابلة من الشارع، والأرصفة حيث يلعب أولاد الجيران. لكن الآن، بدلاً من الجو الهادئ الاعتيادي، رأت أشخاصاً يركضون في كل الاتجاهات مذعورين وخائفين. وبعيداً، استطاعت رؤية أشكال

سوداء كبيرة تتقدم صوب المدينة. انحنت أكثر من فوق حافة السطح للتمكن من الرؤية بشكل أوضح. وعندما نظرت جيداً إلى الأشكال، أدركت أنها دبابات عسكرية تتقدم ببطء في الشارع المؤدي إلى منزلها. بدا وكأن وزن تلك الدبابات الثقيلة يسحق أرض الشارع، وأحست بالسطح يهتز تحت قدميها. وبالترافق مع الدبابات، رأت مئات الجنود المسلحين، فيما حلقت المروحيات العسكرية في الجو، وغمر هديرها بقية الأصوات الاعتيادية في المدينة.

تشبثت دعاء جيداً بحافة السطح، وأحست بالباطون الخشن ينغرز في يديها. شعرت بالغثيان المخيف فيما تذكرت الحكاية التي سمعتها عن مدينة حماة وما حصل فيها قبل ثلاثة عقود. فقد سحق الرئيس حافظ الأسد المعارضة آنذاك حين أمر جنوده بمحاصرة المدينة. ويُقال إن عشرة آلاف إلى أربعين ألف شخص قتلوا خلال تلك العملية. لا تزال مجزرة حماة بمثابة رواية تحذيرية في سوريا، وقد تم حينها فرض قانون الطوارئ لقمع المعارضة.

راقبت دعاء الدبابات وهي تدخل مدينتها، وتساءلت عما إذا كان الرئيس بشار الأسد سيحذو حذو والده ويقتل كل من تجرأ على تحدي سلطته.

وفيما وقفت دعاء قرب حافة السطح تراقب الدبابات وهي تدخل المدينة، كان والدها في العمل في صالون الحلاقة، وأمها خارج المنزل تزور العائلة. وكان حمودي والفتيات يلعبون في الخارج في الشارع أمام المنزل، فيما آية الأخت الكبرى لدعاء التي كانت تزورهم مع ولديها تراقب. كانوا جميعاً مباشرة في طريق الدبابات الآتية والرجال المسلحين.

ركضت دعاء على السطح بسرعة، ونزلت السلالم بمعدل درجتين كل مرة، ثم خرجت مسرعة من الباب الأمامي لتحذير إخوتها، وصرخت عالياً: "ادخلوا بالله عليكم. سوف تقتلون جميعاً!". ثم أمسكت بذراع حمودي وسحبته إلى داخل المنزل، فيما لحقت بها أخواتها إلى الداخل. شعرت آية بالغضب والارتباك، فأمسكت بولديها وأدخلتهما إلى المنزل بسرعة، ثم صرخت: "هل جننت؟! ماذا حلّ بك؟ ماذا يحصل؟".

فأخذت دعاء أختها آية إلى النافذة الأمامية المطلة على الشارع، وأشارت قائلة: "هذا ما يحصل! سوف يقضون علينا!".

وفيما اقتربت الدبابات من المنزل، بدت أكثر ترهيباً. استطاعت دعاء رؤية الرجال الذين ارتدوا بذلات سوداء وغطوا وجوهم بالأقنعة لإخفاء هوياتهم، فيما وقفوا في كوّات المدفعية. وبدوا وكأنهم يوجّهون أسلحتهم مباشرة إلى منزل دعاء وعائلتها.

طغى الخوف على دعاء، فركضت إلى الهاتف محاولة الاتصال بأمها، ولكن من دون أن تحصل على جواب. أصابها اليأس، فعاودت الاتصال بالرقم نفسه مراراً وتكراراً، لكنّ الهاتف ظل يرنّ ويرنّ من دون مجيب. ولم يكن والدها يملك هاتفاً خلوياً، ولا يوجد هاتف عادي في صالون الحلاقة أيضاً. لذا، استمرت دعاء في الاتصال بأمها، محدقة جيداً إلى الهاتف، كما لو أنها بذلك تجبر أمها على الرد.

وفيما دخل الجنود مدينتهم، تدفقت أفكار الذعر إلى رأس دعاء، وبدأ ولدا آية بالبكاء. أين والداي؟ هل هما بخير؟ ماذا لو لم يعودا إلى المنزل؟ تساءلت دعاء في سرها بخوف شديد. اختبأت

دعاء مع إخوتها في الغرفة الخلفية الأبعد عن الشارع. لم تكن تحب الشعور بالعجز، ولكن لا يسعها فعل أي شيء لحماية عائلتها من الخطر المحدق بها خارج الباب.

وبعد ما بدا لها مثل عصور طويلة، دخلت أمهم فجأة عبر الباب. فرغم أنها كانت على مسافة دقائق قليلة فقط من المنزل، إلا أنها احتاجت إلى أكثر من ساعة في سيارة الأجرة لاجتياز حواجز التفتيش والعودة إلى المنزل. بدت مرهقة، وملأ القلق عينيها فيما نظرت إلى آية وحفيديها، ومن ثم إلى حمودي ودعاء وسجى ونوارة، لتطمئن نفسها بأن الجميع بخير. ركض إليها حمودي فركعت وضمته إلى صدرها، فيما تحلقت حولها الفتيات، وطوّقنها بأذرعهن. قالت هناء منقطعة الأنفاس: "يبدو الجو مشحوناً جداً في الخارج. أين شكري؟". فيما نظرت في أرجاء الغرفة ولاحظت غياب زوجها.

خشيت العائلة الأسوأ. فماذا لو تم إلقاء القبض على شكري في خضم الفوضى الحاصلة في الخارج ورُميَ في السجن؟ انتظرت العائلة لساعات طويلة محدقةً عبر النافذة الأمامية، في محاولة لرؤية أكبر مساحة ممكنة من الشارع. حاولت دعاء إقناع نفسها بأن والدها قد تأخر بسبب حواجز التفتيش؛ مثلما حصل مع أمها، لكن القلق سيطر عليها. وأخيراً، لمحته الفتيات عبر النافذة، محدباً إلى الأمام على دراجته الهوائية التي يقودها بسرعة في طريقه إلى المنزل. ملابسه المرتبة عادة باتت مجعدة، وشعره الداكن مبلل بالعرق. أسرعت هناء لفتح الباب له. وبعد أن أصبح داخل المنزل، نظر في أرجاء الغرفة؛ تماماً مثلما فعلت هناء، للتأكد من أن الجميع في الداخل، وارتاح لدى رؤيته كل عائلته بأمان. اجتمعت العائلة حوله فيما أخبرهم عن

الجنود الذين رآهم في مواقع رئيسة في المدينة، مستعدين للهجوم في أية لحظة. ثم نظر إلى آية وولديها وقال لابنته: "من الخطر أن تعودوا إلى منزلكم. عليكم البقاء هنا هذه الليلة".

وفيما هبطت الظلمة في الخارج، ذهبت دعاء لإنارة المصباح لكن لم يحصل أي شيء. فجرّبت إنارة مصباحين آخرين قبل أن تدرك أنه تم قطع التيار الكهربائي. بعد ذلك، ذهبت هناء إلى المطبخ لتحضير الشاي، لكن لم تنزل سوى بضع قطرات فقط من الحنفية؛ تم قطع المياه أيضاً. شعرت بالارتباك، فعادت إلى غرفة الجلوس، ووضعت حمودي في حضنها، فيما حدقت دعاء وسجى ونوارة إلى خارج النوافذ. راقبن بحذر فيما استقر الجنود في الخارج في أماكنهم، متكئين على الدبابات المركونة خارج الباب. عندها، بدأت العائلة تدرك أن هذا الوضع قد يطول أكثر مما توقعوا.

أدار شكري جهاز الراديو الذي يعمل بالبطارية لسماع الأخبار ومعرفة المزيد.

فقال المذيع إن درعا محاصرة، وإنه تم إرسال الجيش للقضاء على الإرهابيين الذين يحاولون تدمير البلاد.

عندها، أحست العائلة بالاضطراب لدى سماعها هذا الخبر، وبدأت تتساءل عن كيفية تأثير هذا الأمر في حياتها اليومية.

وفي وقت لاحق من تلك الليلة، فيما حاول أفراد العائلة النوم، استلقت دعاء مستيقظة، وعاجزة عن تجاهل الإحساس بأن شيئاً مريعاً على وشك الحصول. استلقت من دون حراك، وأصغت إلى أنفاس سجى ونوارة اللتين كانتا تتنفسان بعمق قربها، فيما تردد صدى ضحكات الجنود وصراخهم في الخارج. وأخيراً خلدت إلى النوم،

لتستيقظ مجدداً عند الساعة الرابعة والنصف فجراً، على صوت المنبّه الـذي ضبطتـه لإيقاظهـا عند صلاة الفجر. تمددت صوب المنبه، وما إن ضغطت أصابعها على الزر لإيقافه حتى أضيئت المصابيح القليلة التي كانت تعمل قبل قطع التيار الكهربائي. لا بد أن التيار الكهربائي قد عاد مجدداً لحظة رنّ المنبه.

أحسـت دعـاء بالضياع، فجلسـت على سـريرها هنيهـة محاولة اسـتجماع قواهـا، ثـم سـمعت فجـأة صراخاً وصوت إطـلاق نار في الشـارع. ارتابت دعاء من هذه الأصوات المخيفة، فأسـرعت صوب النافـذة الأماميـة، ورأت أشـخاصاً يركضـون فـي الشـارع والدبابات تتحرك. انضمت إليها آية عند النافذة، ثم اجتمعت العائلة كلها لتراقب بذعـر، فيمـا بـدأت القـوى الأمنيـة تهدم منـازل الناس. خـرج رجال وأولاد صغار بعمر الحادية عشـرة إلى الشـارع، وأجبروا على وضع أيديهم خلف ظهورهم والمشي محنيي الرؤوس، ودفعهم الجنود إلى السيارات وهم يصرخون عليهم كما لو أنهم إرهابيون.

ذعـرت عائلـة دعـاء مما رأته، وقررت اللجوء إلى تلاوة القرآن، وأجبـر الجميـع أنفسـهم على الابتعاد عن النوافـذ، وتجمعوا معاً في غرفة الجلوس بعدما اتضح لهم جميعاً أن الحصار لن ينتهي قريباً.

وفـي وقـت لاحـق من ذلك الصباح، بدأت هنـاء تخطط لكيفية إطعـام العائلـة بمـا هو موجود في المطبخ: بعـض بقايا الجبن واللبن والسـلطة في البراد، بالإضافة إلى بعض الأشـياء التي تحتفظ بها في الخزانـة: مربـى، وكبيس، وزيتون، وبعض الخضـار المعلبة. وجدت كيساً من الأرز، ولكنها تذكرت أنه لا يوجد ماء لسلقه. وبالإضافة إلى ذلك، لم يكن بوسع آية وولديها العودة إلى منزلهم، وبالتالي فالطعام

القليل الموجود لديهم يجب أن يطعم ثلاثة أشخاص إضافيين. وبعد تحديد الكميات الموجودة لديها، قررت هناء بسرعة أنه يتوجب على أفراد العائلة الاكتفاء بوجبة صغيرة فقط في منتصف اليوم إلى أن يتمكنوا من مغادرة المنزل مجدداً لإحضار المزيد من الطعام.

وأثناء الوجبات، بذلت هناء ما بوسعها لتقسيم الطعام القليل الموجود لديهم، فيما ارتشفوا جميعاً قطرات صغيرة من الماء من كوب واحد تشاركته العائلة كلها. وكانوا قد حصلوا على الماء من البقايا الموجودة في القناني لديهم في المنزل. لم يكن بوسعهم حضور البرامج التلفزيونية خلال المساء بسبب انقطاع التيار الكهربائي، فجلسوا جميعاً على ضوء الشموع، وتنابوا على قراءة القرآن، وكانوا يبدأون غالباً بآية الكرسي.

وبعد استعمالهم كل الشموع لديهم، جلسوا في العتمة، وراحوا يصغون بصمت مطبق إلى أصوات الرصاص، والانفجارات، والصراخ في الخارج. في بعض الأحيان، سمعوا أصوات الرصاصات وهي ترتطم بجدران منزلهم. وفي كل ليلة، خلدوا إلى النوم جائعين، ومتسائلين عن المدة التي سيدوم فيها حصارهم.

مرّ أسبوع كامل على الحصار، وكان احتكاكهم الوحيد بالعالم الخارجي عندما يطرق رجال مسلحون يرتدون بذلات عسكرية وأحذية مليئة بالوحول على باب منزلهم، طالبين الدخول لتفتيش المنزل. كان هذا الأمر المزعج والمتطفل يجري ثلاث مرات تقريباً كل يوم. وفي كل مرة، كان شكري ينهض لمرافقتهم. وكان يبدو متعاوناً ومطيعاً بهدف حماية عائلته. في بعض الأحيان، دخل الجنود المنزل، ووجهوا أسلحتهم صوبهم، كل على حدة وهم يقولون:

"نبحث عن إرهابيين". فتقول دعاء في سرها: "هذه أنا"؛ لأنها أدركت أن جميع الذين شاركوا في التظاهرات باتوا يُعتبرون الآن إرهابيين من قبل الدولة. وكانت واثقة من أنهم يعرفون أنها شاركت مع أخواتها في المظاهرات، ويحاولون الآن إخافتهن لإجبارهن على الاعتراف بذلك.

ذات مرة، نظر جندي إلى دعاء مباشرة وقال لها: "أتريدون الحرية أيها الكلاب؟ سنعطيكم إياها". ثم بدأ ورجاله برمي الأشياء عن الرفوف، وقلب الكتب، وتحطيم الأواني والأشياء الأخرى. ثم انتقلوا بعدها إلى المطبخ، وحطموا آخر قنينة من زيت الزيتون النفيس، مع الأوعية الباقية من الخضر والفاكهة المعلبة. حطموا كل شيء على الأرض، وتوجّب على العائلة بعد رحيلهم ترتيب الفوضى والتفكير في كيفية الصمود بعد أن اختفت كل احتياطاتهم.

وفي مرة أخرى، أثناء تفتيش المنزل، أخذ الجنود الهاتف الخلوي الخاص بدعاء، وفتشوا فيه بحثاً عن صور أو فيديوهات قد تظهر مشاركتها في المظاهرات. وكان قد تم تحذيرها سابقاً من التقاط الصور أثناء التظاهرات لأن ذلك قد يورّطها، ولذلك امتنعت عن توثيق مشاركاتها.

ذات مرة، وجّه أحد الجنود مسدسه صوب حمودي الذي كان في السادسة من عمره آنذاك، فارتجف حمودي خوفاً وتشبث بأمه. وخشيت هناء أن يعتقله الجنود مثلما اعتقلوا أولاداً صغاراً آخرين، فحملته بين ذراعيها وتوسلت إلى الجنود لتركه وشأنه. وعندما غادروا المنزل أخيراً، أحست هناء بالارتياح. لكن كلما جرى تفتيش منزل العائلة، كان الخوف بأن يتم إلقاء القبض على أحدهم يتجدد.

وفي إحدى المرات، فيما كانت دعاء تغلق الباب خلف مجموعة من الجنود الذين غادروا منزلها للتو بعد تفتيشه، دخلت مجموعة أخرى فجأة عبر الباب، وصوّب أحد الجنود بندقيته على بطنها، ودفعها على الأرض صارخاً: "لماذا تغلقين الباب في وجوهنا؟". فيما أبقى بندقيته على بطنها.

عندها، تجمدت دعاء في مكانها، وقالت وهي تنظر إليه: "كان زملاؤك هنا للتو، وقد أنهوا تفتيشهم".

وبعد ثوانٍ قليلة، أخفض بندقيته ووجّه انتباهه إلى شكري قائلاً له: "خذني إلى السطح". وأصرّ على أن تصعد العائلة السلالم قبله، لأنه في حال وجود متمردين في الأعلى ينصبون كميناً للجنود فسيتم إطلاق النار على أفراد العائلة أولاً. رافقهم شكري مع كل أفراد العائلة الذين احتشدوا على السلالم خلفه. أحست دعاء بالغضب يتراكم داخلها فيما نظرت إلى وجه الجندي. فهذا منزلها، وهذه عائلتها. بأي حق يأمرهم الجندي ويهددهم؟ واستاءت كثيراً لدى رؤيتها والدها الأبي مجبراً على إطاعة هؤلاء المتنمرين، غير أنها عضّت على الجهة الداخلية من وجنتيها لمنع نفسها من توجيه الشتائم إليهم. اكتشف الجنود بسرعة أنه لا يوجد أي شيء على سطح، وتنفست دعاء الصعداء عندما غادرت المجموعة الثانية من الجنود المنزل. لقد نجت العائلة من غارة أخرى.

كلما جرى تفتيش المنزل، كان شكري يخاف أن يختطف الجنود بناته. لذا، طلب من دعاء وأخواتها النوم في عباءاتهن، حيث تكون أجسامهن مغطاة كلها في حال حصل تفتيش في منتصف الليل؛ الأمر الذي بدأ يصبح روتينياً. كما أعطى كلاً منهن سكيناً وقال لها:

"اطعني أي رجل يقترب منك كثيراً". ونصحهن بإخفاء السكين تحت العباءة أثناء جولات التفتيش.

وفي الليلة التي تلت توزيع السكاكين عليهن، جمعت دعاء أخواتها وهمست لهن بصوت خافت كي لا يسمعها والداها: "إذا حاول أي جندي اغتصابنا، فعلينا أن نكون مستعدات لقتل أنفسنا. إذ لا يمكننا العيش مع هذا العار؛ فشرفنا هو كل ما بقي لدينا". عندها، أمسكت سجى البالغة من العمر ثلاثة عشر عاماً، ونوارة ذات الأعوام العشرة بيديها وأومأتا دليل موافقة.

وبعد فترة وجيزة، جاء الجنود إلى المنزل لتفتيش الغرفة الخلفية حيث كانت دعاء تجلس مع أفراد العائلة. كان أحدهم في بداية العشرين من عمره، وذا شعر أسود طويل ومجعد. نظر إلى دعاء بطريقة وجدتها غير ملائمة، فتحركت بانزعاج بسبب نظرته. صحيح أن شكري طلب منهم جميعاً الحفاظ على الصمت أثناء جولات التفتيش وعدم معارضة أحد، لكن دعاء لم تستطع كبح نفسها هذه المرة، فحدقت إليه بغضب، ولم تحاول إخفاء الاشمئزاز والغضب في نظرتها.

سألها الجندي: "لماذا تنظرين إليّ هكذا؟".

فأجابت بنبرة تحدٍّ وقد اشتعل وجهها غضباً: "أنا إنسانة حرة، وأستطيع أن أفعل ما أشاء". وعرفت دعاء أن كلمة "حرة" ستغيظ الجندي.

انزعج الجندي من كلامها، وتقدم صوبها طالباً رؤية هويتها. فقالت له: "لا أملك واحدة".

"لا تملكين واحدة! لماذا؟ كم عمرك؟".

"خمسة عشر عاماً".

"لماذا لا تملكين هوية لغاية الآن؟!".

"حاولت الحصول على واحدة، وتقدمت بطلب هوية لدى المركز الحكومي، ولكنهم رفضوا إعطائي واحدة".

ضحك الجندي عندما سماعه ذلك وسألها: "إذاً، لماذا لا تذهبين للمشاركة في تظاهرة بسبب ذلك؟".

عندها، أدركت دعاء بوضوح أن مشاركتها في التظاهرات ليست سراً، وأحسّت بقلبها يخفق بقوة داخل صدرها، ولكنها رفضت الخضوع لخوفها، وأجابت بوقاحة: "نعم، ربما سأفعل".

اتّقدت عينا الجندي غضباً فيما رفع بندقيته محذّراً، وأمرها: "لا تجيبي".

عندها، تجمّدت العائلة كلها خوفاً في انتظار انفجار غضب الجندي، غير أنه بعد أن حدق إلى دعاء لبعض الوقت أخفض بندقيته أخيراً، ثم استدار وتوجّه إلى الباب متمتماً: "من الأفضل أن تنتبهي إلى نفسك لأننا نراقبك. لا تنسي ذلك".

وعندما أغلق الباب خلفه، انفجرت هناء غاضبة: "لا تتحدثي إلى الجنود بهذه الطريقة إطلاقاً! فأنت تعرّضين نفسك للخطر!".

قال شكري فيما نهض واقفاً قرب دعاء: "أنت تعرضيننا جميعاً للخطر. منذ الآن فصاعداً، عليك البقاء صامتة حين يدخلون".

كانت دعاء خائفة وغاضبة جداً فلم تجب، حتى إنها لم تزعج نفسها بالإيماء، بل أخفضت رأسها عوضاً عن ذلك وحدقت إلى الأرض. وفي قرارة نفسها، كانت سعيدة لأنها تحدت الجندي، ولكنها عرفت أيضاً أنه لا يمكنها الاعتراف أبداً بذلك أمام عائلتها. أحست

بالفخر عندما همست لها أخواتها في وقت لاحق من ذلك اليوم أنهن يحترمن شجاعتها، وحين عبّرن في الوقت نفسه عن دهشتهن لما أصبحت عليه أختهن الخجولة.

في صباح 5 أيار، أي بعد 11 يوماً على بدء الحصار، وقفت هناء أمام الخزانة الفارغة متسائلة عن كيفية تمكنها من إطعام العائلة. فجأة، سمعت صوتاً يصدح خارج النافذة عبر مكبّر الصوت، ولكنها خشيت كثيراً من فتح النافذة لأن هذا منافٍ لقواعد الحصار. اقتربت العائلة كلها من النافذة لسماع الإعلان الصادر من سيارة شرطة كانت تتجول في المنطقة: "اليوم هناك منع للتجول بين السابعة صباحاً والواحدة ظهراً. عليكم البقاء في منازلكم. بين الساعة الواحدة والثانية من بعد الظهر، تستطيع النساء مغادرة منازلهن لشراء الطعام، وسيتم تفتيش كل النساء اللواتي يغادرن منازلهن. وسيستأنف منع التجول في تمام الساعة الثانية". تم رفع الحصار، لفترة وجيزة فقط.

تنفست هناء الصعداء، وفكرت فقط في الأغراض التي ستتمكن أخيراً من إحضارها إلى المنزل لعائلتها الجائعة. لكنّ شكري غضب كثيراً من الإعلان؛ إذ إن لمس النساء غير مقبول في الدين الإسلامي. وأحسّ أن هذا الأمر محاولة لاستفزاز الرجال في درعا بسبب توق السلطة إلى السيطرة على الشعب.

قال شكري: "لن أسمح لهم أبداً بأن يضعوا يدهم عليك طالما أنا على قيد الحياة". ورفض السماح لهناء بالمغادرة. ولكنها كانت مصرّة؛ فالأولاد أصبحوا أكثر نحولاً يوماً بعد يوم، وكان ولدا آية يبكيان باستمرار بسبب الجوع.

توسلت إليه هناء برفق، فيما نظرت مباشرة إلى عينيه قائلة: "علينا

إطعـام عائلتنـا. لـم يبقَ أي شـيء في المنزل. أنا مسـتعدة لتحمل ذلّ التفتيش".

عندها، نظر شكري إلى عائلته الضعيفة ووافق على مضض.

عندما خرجت هناء أخيراً من منزلها، وجدت المنطقة كلها مليئة بالجنـود والدبابـات والأسـلحة. وعلى بعد مئـات الأمتار من منزلها، رأت مجموعة من أكثر من مئة جندي يجلسون حول طاولات كبيرة مليئة بالطعام. فأدركت أنه فيما تضورت عائلتها وبقية المواطنين في درعا من الجوع، تناول الجنود ولائم الطعام خارج أبوابهم.

بدأت هناء تجتاز الشارع ببطء للتوجه إلى المخبز. ولكن بعد أن سارت بضع خطوات فقط، أحست بعيون الجنود تراقبها. وفجأة، بدا لها أن كل جندي في الشارع يحدق إليها، فذعرت من فكرة تفتيشها، وعجزت عن التقدم خطوة واحدة إلى الأمام، وارتجفت في الشارع، وقررت بسرعة العودة إلى أمان منزلها.

بعد لحظات، سُمع طرق على الباب، وأجاب شكري وهو يفتح الباب بحذر.

فقال صوت رجل عبر الفتحة: "من هي المرأة التي غادرت هذا المنزل للتو؟ أريد التحدث إليها".

عندها، اسـتدعى شـكري هناء التي جاءت إلى الباب، ووجدت "جنـرال" فـي الجيـش طويـل القامـة وصـارم المظهر يقـف هناك مع مسدس على خصره.

"تلك أنا يا حضرة الجنرال. أردت إحضار خبز لعائلتي".

"إذاً، لماذا عدت؟".

فأخفضـت هنـاء عينيهـا بتهذيب وقالت: "خفـت كثيراً يا حضرة

الجنرال، إذ يوجد الكثير من الرجال في الشارع".

وفيما أصغى إليها، كشفت عينا الجنرال عن تعاطفه وأخفض صوته: "أصرّ على أن تذهبي لإحضار الطعام لعائلتك. لكن عليك الذهاب الآن، حين لا يتواجد قناصون. فهم لا يخرجون أبداً بين الظهر والساعة الرابعة".

ذهل شكري وهناء لأن هذا الرجل يحاول مساعدتهما، وأجابت هناء: "شكراً لك يا حضرة الجنرال. شكراً لك. الله معك". فيما حملت كيس التسوق ولحقت به إلى الخارج. عاد إلى مجموعة جنوده، ولكنه راقب هناء وهي تختفي داخل المتجر، ثم تخرج أخيراً مع ستة أرغفة من الخبز. وعندما مرّت أمامه في طريق عودتها إلى المنزل، سألها برفق: "هل أزعجك أحد؟". فهزّت رأسها نافية، فيما ظلت تنظر إلى الأرض، فقال: "جيد. عليك العودة إلى المنزل الآن".

عادت هناء إلى المنزل بسرعة. وعندما أصبحت في المطبخ، قالت: "لا تزال هناك إنسانية عند بعض الأشخاص". فيما فتحت أرغفة الخبز واجتمعت العائلة لتناول وليمة بسيطة.

ومع استمرار الحصار، اكتشفت عائلة دعاء ببطء أن العديد من الجنود الشباب لا ينوون إيذاءهم. فأربعة جنود تحديداً- علي الأسمر والوسيم، وبهاء ذو العينين الخضراوين، ونيرو القصير وطفولي الوجه، وعبد العزيز طويل القامة- كان مقرهم أمام منزلها، وكانوا دوماً لطفاء مع العائلة. كان علي الأكثر لطافة على الإطلاق، وكان أثناء وجوده في الخدمة يمرر لهناء غالباً رغيف خبز وبضع حبات من البندورة مع ابتسامة خجولة. جولات تفتيش المنزل التي أجراها هؤلاء الشباب كانت صورية؛ إذ تجوّل الشباب بسرعة بين الغرف،

وتركوا الرفوف على حالها والأدراج غير مفتوحة. وكانوا يبقون أحياناً لبعض الوقت في المنزل، لشحن هواتفهم الخلوية، والتحدث عن أخبار اليوم، أو اللعب مع ولدَي آية. وفي بعض الأحيان، قدموا المال لشكري لشراء الطعام. أحست دعاء وأخواتها أنهن تحت حماية هؤلاء الرجال، فلم يمسكن بالسكاكين مثلما يفعلن عند دخول جنود آخرين المنزل. أدركت دعاء أن هؤلاء الجنود اللطفاء لا يريدون البقاء هنا؛ تماماً مثلما لا تريدهم عائلتها.

وذات يوم، سُمع طرق قوي على الباب، فاستعدت دعاء لمواجهة جولة تفتيش أخرى، ولكنها تفاجأت لدى رؤيتها شاباً في أول العشرينات يرتجف خوفاً. كان يحمل مسدساً، ووجهه مغطى بالكوفية المطبعة بالأسود والأبيض.

توسل إليها: "ساعديني! أنا مع الجيش السوري الحر والنظام يطاردني. سوف يقتلني الجنود!". سمعت دعاء أن العديد من الرجال الذين شاركوا في التظاهرات انضموا الآن إلى معارضة مسلحة ضد الحكومة، وأطلقوا على أنفسهم اسم الجيش السوري الحر.

أجابت دعاء فوراً: "ادخل"، فيما نظرت إلى طرفَي الشارع. صحيح أنه لا يمكنها تركه في الخارج ليقتل، ولكن لا يمكنها أيضاً إيواء جندي من الجيش السوري الحر. توصّلت بسرعة إلى خطة لإخفائه، فأخذت هي وسجى أربعة صناديق كرتونية، وطلبتا من الرجل الجلوس في زاوية غرفة مليئة بالفرش والطاولات الصغيرة، ثم رتبتا على الكرتون حوله، وغطتاها ببطانية لتشبه كرسياً. بدا الكرسي غريباً قليلاً، ولكنهما اعتقدتا أن الخطة ستنجح إذا أجرى الجنود الطيبون جولة التفتيش التالية.

انتظرتا ساعة كاملة قبل سماع الطرق على الباب، وشعرتا بالارتياح لدى رؤيتهما "علي" أمام الباب، ولكن وقف خلفه جندي لم تتعرفا إليه، فشعرتا بالذعر.

دخل الجنود المنزل، وبعد جولة سريعة في أرجاء الغرفة قال علي: "لا يوجد أحد هنا". كانت دعاء واثقة من أنه لاحظ "الكرسي" الجديد، لكنه لم يقل شيئاً. فحبست أنفاسها في انتظار مغادرة الجنود. لكنّ الجندي الغريب طلب من علي مرافقته إلى السطح. صعدا السلالم فيما انتظرت العائلة في الأسفل، ثم عادا بعد دقائق قليلة، بعد أن أنهيا التفتيش. غادر الجنود المنزل أخيراً، وعندما أغلق الباب خلفهم، أسرعت دعاء وسجى إلى البطانيات وفكتا الكرسي، فخرج الرجل الشاب من مخبئه. أحضرت له هناء كوب ماء، وفيما تمدد لأخذه، قبّل يدها، ونظر إلى العائلة. "شكراً لكم. لقد أنقذتم حياتي". وبعد وداع سريع، صعد السلالم المؤدية إلى السطح وهرب من فوق المبنى.

وفيما راقبته دعاء يذهب، أحست بالانتصار والرضى داخلها. فبعد أسابيع من الخضوع للجنود والإحساس بالعجز، حققت نصراً صغيراً ضد الرجال الذين يحاصرون منزلها. وبدأت تتساءل عما تستطيع فعله أيضاً.

بعد أحد عشر يوماً على الحصار، أعلنت وكالة سانا الإخبارية التابعة للدولة أن الحكومة قد أنجزت مهمتها في "مطاردة عناصر المجموعات الإرهابية" و"إعادة الأمن والسلام والاستقرار" إلى درعا. وأعلن الجنرال رياض حداد، مدير القسم السياسي في الجيش أن الجيش سيسحب ستة آلاف جندي على مراحل، وأن المدينة ستعود

إلى سابق عهدها. لكن خلال الأحد عشر يوماً، فيما بقيت دعاء وعائلتها داخل المنزل، انتبه العالم كله إلى مشكلتهم، وبدأت التقارير الإخبارية تعطي تفاصيل عن حالات الوفاة المئتَين والمعتقلين الألف خلال فترة الحصار. وحسب الإعلام السوري الرسمي، مات أيضاً نحو ثمانين جندياً. عند انتشار الخبر في أرجاء العالم، حذرت وزيرة الخارجية الأميركية هيلاري كلينتون الدولة السورية من "حصول عواقب وخيمة لهذه الإجراءات الصارمة والوحشية"، وبدأ الزعماء الأوروبيون يناقشون مسألة العقوبات. كما أشارت مجموعة حقوق الإنسان إلى أن ستمئة شخص على الأقل ماتوا في سوريا خلال سبعة أسابيع منذ اتخاذ إجراءات صارمة بحق المتظاهرين، وتم حبس أو اختفاء ثمانية آلاف شخص.

لاحظت دعاء بارتياح أن الدبابات خارج منزلهم بدأت تغادر مواقعها، وجاب الشوارع عدد أقل من الجنود المسلحين. رغم كل ذلك، اتضح جلياً أن الأمور لن تعود أبداً إلى طبيعتها. فالجثث المتحللة للمتظاهرين بقيت ملقاة في الشوارع، وملأت الهواء رائحة كريهة من جراء ذلك. وبالإضافة إلى الموت، خيّم أيضاً شبح الدمار. فالفتيات لم يذهبن إلى المدرسة منذ بدء الحصار، وكن تواقات للعودة إلى مدرستهن ورؤية صديقاتهن واستئناف الدروس. إلا أن المدرسة بقيت مغلقة، والطريق المؤدي إليها بات الآن مليئاً بالمباني المهدمة التي بات بعضها مهجوراً، فيما بقيت الأبواب مفتوحة كاشفة عن المساحات الحميمة التي عاش فيها الأشخاص سابقاً.

رغم ذلك، كان شكري تواقاً للعودة إلى عمله لأن ماله نفد أثناء الحصار. لكن كلما غادر متجهاً إلى صالونه، تساءلت عائلته عما إذا

كان سيعود إلى المنزل حياً. فقد سمعوا قصصاً عن قناصين وحوش تابعين للنظام، يتسلون على ما يبدو بتقنيص الأشخاص؛ بصرف النظر عن عمرهم أو جنسهم. وبالفعل، كلما خرج الناس من منازلهم لجمع الجثث المتروكة في الشوارع، كانوا يتعرضون للقنص بدورهم. لم يعد أحد بأمان في هذا الجنون، وألحت هناء على شكري لتوخي الحذر، وذكّرته بأنها رأت شخصياً رجلاً يقتل بالرصاص أثناء مغادرته المسجد. كما رأوا أيضاً شريط فيديو لامرأة حامل ميتة في الشارع بعد أن تم إطلاق النار على بطنها.

شعر شكري بالخوف، ولكنه كان مصمماً على دعم عائلته، ولذلك حرص يوماً بعد يوم على شق طريقه على دراجته الهوائية بين حواجز التفتيش لفتح صالونه. لكن معظم زبائنه خافوا ولم يأتوا. فقد كان صالونه في قلب منطقة السرايا، أي مركز عمليات النظام في المدينة القديمة التي أصبحت هدفاً للمعارضة المسلحة الآن بشكل جيد. جلس شكري في صالونه، وراقب المعارك وهي تدور بين قوى النظام والمعارضة في السرايا والمباني الحكومية الأخرى.

قال له جيرانه: "ثمة حرب مشتعلة في هذه المدينة وتتوقع من الناس أن يذهبوا لقص شعرهم؟ هل أنت مجنون؟!". لكن شكري كان واثقاً من أن بعض زبائنه سيأتون للحلاقة وقص الشعر، لاسيما وأنه بحاجة ماسة إلى العمل لإطعام عائلته، فقال للناس: "سأموت حين يأمر الله بذلك".

بعد ظهر أحد الأيام، في أواخر شهر يونيو، فيما كان يقص شعر زبون، سمع شكري صوت إطلاق نار، فترك زبونه للنظر إلى خارج الباب، ورأى مجموعة من الرجال يركضون هرباً من الرصاص.

قال شكري لزبونه: "ها قد عدنا مجدداً". ثم تابع قص الشعر. أصبح شكري الآن معتاداً على أصوات الرصاص، وشعر بالفخر بنفسه لأنه تابع عمله بالرغم من الجلبة حوله.

فأجاب زبونه بتعب: "يوم آخر في الثورة. لكنني أحتاج إلى قص شعري، فقد مضت أشهر عدة. اللعنة عليهم جميعاً".

فجأة، سمع الرجلان صوت هدير عالياً. وبالنظر إلى مرآة صالون الحلاقة، استطاعا رؤية دبابة عملاقة تقترب ببطء، مباشرة في اتجاه الصالون. بدا لهما وكأنها على وشك سحقهما، فقفز الزبون عن كرسيه شاهقاً من الخوف، وأبعد المنشفة عن عنقه وأوقعها على الأرض.

فقال له شكري محاولاً تهدئته: "لم أُنهِ قص شعرك بعد". لكنّ الزبون اختفى حول الزاوية، فيما شعره مقصوص جزئياً. انعطفت الدبابة فجأة ودارت حول الساحة.

في غضون ذلك، تعلمت دعاء كيفية معرفة الوضع في المدينة؛ حسب عدد الرصاصات الفارغة التي تجدها في الشارع أمام منزلها كل صباح. أرادت الانضمام إلى التظاهرات التي تم استئنافها بعد الحصار، ولكن تلك المظاهرات أصبحت أصغر الآن ولم تعد سلمية، واختفى منها جو الاحتفال وحل مكانه الغضب واليأس. وعرفت أن والدها لن يسمح لها أبداً بالمشاركة مجدداً في تلك التظاهرات الخطرة.

وبعد أن غادر معظم الجنود والدبابات المدينة، ظهر خطر جديد متمثل في القنابل. ففي الليالي الصيفية، جلست العائلة خارج المنزل في طقس جديد وغريب، لمراقبة المناطق الأخرى في المدينة وهي

تضـاء نتيجـة سـقوط القنابـل فيها. احتسـبوا الوقت الـذي تحتاج إليه القنابـل لتهبـط، وعرفـوا نـوع الدمار الحاصل فيها من خلال سـحابة الدخـان المتصاعـدة. وحلّـت أصوات المدافع الثقيلـة والانفجارات مكان زقزقة العصافير.

قالوا لبعضهم بعضاً: "الحمد لله لم تسقط هنا". وشعروا بالذنب لأن الحرب جعلتهم أكثر قساوة. وحين كانوا أحياناً يشاهدون الجيش السوري الحر وهو يسقط طائرة، كانوا يهتفون فرحاً.

في هذه الأيام، لم يعد يسمح لدعاء وأخواتها إلا بعبور الشارع لشـراء الطعام من السـوبرماركت، أو الخبز من الفرن. لكن الأسـعار تضاعفت تقريباً، وبات الطعام جيد النوعية باهظ الثمن.

ذات يـوم، نفـد الخبـز من منزل العائلة، فخرجت دعاء وسـجى ونوارة لشراء القليل منه. وفي طريقهن إلى الفرن، صرخ الجنود قائلين لهن: "إلى أين تذهبن؟ عدن!".

فأجابـت دعـاء: "نريـد فقط شـراء الخبـز". لكن الجنـود أصرّوا على ضرورة عودة الفتيات إلى المنزل. عندها، توقفت الفتيات وسط الشارع، وأحنين رؤوسهن معاً، وهمسن: "هل يجدر بنا العودة؟". كنّ جائعـات كثيـراً لدرجـة الإحسـاس بالألم في بطونهـنّ. صحيح أنهن يخشـين ما سـينجم عن عدم إطاعة الجنود، ولكنهن لا يتحملن أيضاً فكرة مرور يوم آخر من دون طعام. وبعد مناقشة سريعة، اتفقن على جعـل الأمـر يبـدو وكأنهن في طريقهن إلى المنزل. سـمعن أنه يوجد طعام في مخيم للاجئين الفلسطينيين في ضاحية مجاورة على مسافة ثلاثين دقيقة سيراً، فقررن الذهاب إلى هناك عوضاً عن ذلك. وهكذا، اسـتدرن ومشـين في ذلك الاتجاه. أصبحن على مسـافة مئتَي متر من

المخيـم تقريبـاً عندما لمحهن الجنود مجدداً. شـعر الجنود بالغضب لأن الفتيات تحدينهم، فصرخوا: "عُدن إلى هنا أيتها الكلاب!".

عندهـا، جـنّ جنـون دعـاء. فهنّ لا يتظاهرن أو يهـددن الجنود، بـل كانـت تحـاول مع أختيها منـع عائلتها من التضور جوعاً، وها هم الجنود يعترضون على ذلك ويتنمرون عليهنّ. لذا، من دون أن تستدير صوب الجنود صرخت: "نريد الطعام. أنتم تجعلوننا نتضور جوعاً!".

وأضافت سجى: "نريد فقط إحضار الطعام".

وقبل أن يجيب الجنود، سمعت الفتيات صوت إطلاق رصاص في اتجاههن، وصوت دبابة تتحرك صوبهن. لم يكن واثقات مما إذا أصبحـن هدفـاً لقناصة الجيـش لأنهن تحدين أوامر الجنود، أو ما إذا كن قد علقن فجأة وسط تبادل لإطلاق النار. غير أنهن رمين أنفسهن علـى الأرض فـوراً، وهبطـن بقـوة على الزفت. أحسـت دعاء بالهواء يخرج من رئتيها فيما ألصقت وجهها بالأرض، وسمعت الرصاصات وهـي تحلـق فوقهـن مثل النحل في الغاب، وأحسـت نوارة برصاصة تكشط ظهرها، وأدركت أنها لو انخفضت ربع إنش أكثر لقتلتها.

مـا إن توقـف إطـلاق النار حتى سـاعدت دعاء وسـجى أختهما نوارة على الوقوف، وركضن عبر الشوارع الجانبية إلى داخل المخيم، واختبـأن فـي الممـرات إلـى أن شـعرن بالأمـان الكافـي للعـودة إلى المنـزل. تخليـن عـن فكرة إحضار الطعـام لأن الخوف من الرصاص تغلب على الجوع. وفيما اقتربن من منزلهن، كنّ شاحبات ومرتعدات بعد أن أدركن أنهن أوشكن على الموت فعلاً، فيما ظهر أثر حرق في قميـص نـوارة حيث لامسـتها الرصاصـة. كان علي في الخدمة خارج منزلهـن، ولاحـظ فـوراً مع رفاقه الجنود انزعاج الفتيات، فامتلأ وجه

علي الوسيم واللطيف بالقلق، وسألهن عما حصل. وفيما أسرعت سجى ونوارة إلى المنزل لمعانقة هناء، توقفت دعاء لإخبار علي بأنهن عجزن عن شراء الطعام للعائلة بسبب إطلاق الرصاص عليهن. ثم عادت إلى منزلها وهي تشعر بالإخفاق، لأنها عادت إلى المنزل من دون طعام. وبعد ساعة واحدة، طرق علي على الباب وأعطى هناء رغيف خبز وكيساً مليئاً بالبندورة الناضجة، فشعرت هناء بالامتنان له، وقبلت هديته، ودخلت بسرعة إلى المنزل لتحضير وجبة لعائلتها ومواساة بناتها.

بعد رفع الحصار واستمرار الاحتجاجات، بدأت دعاء تمضي الكثير من الوقت على السطح لسماع ما يحصل على الأرض. فإذا كانت لا تستطيع المشاركة شخصياً في الاحتجاجات، فإن هذا يكفيها.

شاركت دعاء وأخواتها في هتافات "الله أكبر"، و"كيف يمكنكم قتل أبنائكم؟" و"الحرية!". فالهتاف من على سطح منزلهن كان وسيلتهن للمشاركة. عرفت دعاء أنه يجدر بهن توخي الحذر لعدم لفت الانتباه، لأن التواجد على السطح يجعلهنّ هدفاً سهلاً للقناصين الذين يراقبون الحشود من الأعلى. كلما نظر جندي في اتجاهها، خفق قلبها بقوة.

لكن رغم خوفها، وتواجدها على السطح، حيث تستطيع رؤية المتظاهرين والمشاركة في الهتاف تشعر أنها مرتبطة بالمعارضة.

ذات يوم، فيما كانت في موقعها الاعتيادي متكئة على حافة السطح وهي تهتف مع المتظاهرين، لمحها جندي من مبنى مجاور حيث كان متمركزاً لمراقبة الحشود، ويطلق النار بين الحين والآخر

على الشوارع.

صرخ قائلاً لها: "انزلي أيتها الإرهابية". وعندما لم تتحرك دعاء، هددها بالقول: "ادخلي وإلا فسأقتلك".

في ذلك اليوم، شعرت دعاء بجرأة كبيرة نتيجة خوفها، فصرخت في وجهه: "أنت الإرهابي! أنت من يقتل الناس! لقد رأيتك!".

عندئذ، رفع الرجل بندقيته، ووجهها مباشرة صوب دعاء، فأدركت بسرعة أن هذا الجندي ينوي قتلها فعلاً. عندها، ركضت صوب الباب، وما إن فعلت حتى أحست بدفق هواء فيما مرّت رصاصة قرب أذنها وأصابت الباب الحديدي أمامها، تاركة خلفها ثلماً قبل أن ترتد إلى الخلف وتقع على الأرض. لو اقتربت إنشاً واحداً أكثر، لماتت دعاء.

فتحت الباب وركضت إلى الداخل صوب منزلها. التقطت دعاء أنفاسها، وتفاجأت حين أدركت أنه بالرغم من مرور الرصاص أمامها لم تكن خائفة. وتساءلت عما إذا أصبحت محصنة من الخوف. كل يوم، عرفوا بالمزيد من الأشخاص الذين قتلتهم القوى النظامية، ولكنها شعرت نوعاً ما في قرارة نفسها، أنه لم يحن الوقت بعد لتنتهي حياتها. أحست أن قدرها بين يدي الله، وأن أفضل طريقة لخدمته تقضي بفعل ما تراه صحيحاً. لم تكن دعاء تريد أن يسيطر الخوف عليها أو على عائلتها، وأصرّت على متابعة العيش بهذه الطريقة.

خلال فصلَي الخريف والشتاء المليئين بالعنف ونقص الطعام والكهرباء والمياه بذلت عائلة الزامل، كما كل العائلات، كل ما بوسعها للتنقل في مدينة تحولت إلى ساحة حرب. فقد أحضر شكري إلى المنزل مالاً يكفي فقط لشراء الطعام، فيما بذلت العائلات

والجيران كل ما يمكن لمساعدة بعضهم بعضاً.

ذات يوم في شهر يونيو من العام 2012، عندما وصل شكري إلى صالونه، وجد أن صاروخين قد أصابا محله، وحوّلا الجهة الخلفية إلى ركام. طوال أكثر من ثلاثين عاماً، كان صالون الفنانين مصدر رزقه وجزءاً من هويته، وها قد تحول الآن إلى ركام.

راقب الأضرار، وكنس القطع المكسورة من المرآة، ونظف الركام عن الكراسي، ثم أخرج من بين الحطام المقصات والفراشي، ومسح الغبار عنها برفق، ثم وضعها بعناية على رف نصف مكسور. وبعد ذلك، أزاح بقايا ركام السقف إلى زوايا المحل، ونقل الكرسي الوحيد غير المتضرر إلى الجهة الأمامية، ثم انتظر طوال اليوم كي يأتي زبون. ولكن لم يأتِ أحد.

وعندما عاد إلى المنزل في تلك الليلة، لاحظت دعاء تغييراً فيه. إذ كانت كتفاه محنيتين ووجهه خالياً من التعبير. وبدا نوعاً ما أصغر من المعتاد. "بابا، ما المشكلة؟ ماذا حصل؟".

"الصالون..." كان ذلك كل ما استطاع قوله. حاولت العائلة مواساته، وأكدوا له أنهم يرتاحون لفكرة وجوده في المنزل طوال اليوم كي لا يقلقوا على سلامته طوال الوقت. ولكنه لم يجد المواساة في كلماتهم؛ فخسارته صالونه سلبت منه روحه. أمضى ما تبقى من اليوم جالساً في البقعة نفسها في زاوية المنزل يدخن النارجيلة، ولا يتكلم إلا إذا طرح عليه أحد سؤالاً. أحست دعاء أن خسارته لمصدر رزقه كان أشبه بخسارته لرجولته، وأرادت إيجاد طريقة لمساعدته. لكن كل ما كان بإمكانها فعله هو محاولة إبقاء معنوياته عالية. "سينتهي الأمر قريباً بابا. علينا التحلي بالصبر".

لـم يكـن صالـون شـكري الـدكان الوحيـد الذي تهـدم، فمتجر البقلاوة الشعبي الذي يملكه زوج آية في أسفل الشارع قصف أيضاً. وكان قـد ذهـب إلـى العمـل متأخراً فـي ذلك اليوم، بعـد دقائق قليلة من قصفه. قال للعائلة: "الله أنقذني". وبعد أيام، دمّرت سـيارة بسـبب القصـف، فقـال لآيـة: "كان هـذا كل ما أملكه". ثم كشـف لها عن نيته بالهـرب إلـى لبنـان حيـث يعيش أخوه. إذ يسـتطيع أخـوه أن يجد له عملاً، ويسـتطيع إرسـال المال لها وللأولاد. لم يرغب زوج آية في المشاركة في الصراع المسلح مع أي من الطرفين، بل أراد فقط إعالة عائلته، ولذلك انضم إلى مجموعة متنامية من السوريين الذين يدفعون الرشـاوى على الحواجز للخروج من بلادهم والذهاب إلى لبنان في انتظار انتهاء الحرب. ستلحق به آية مع الأولاد بعد فترة وجيزة، حين يدفع لمهرّب لنقلهم عبر الحدود، ويخبر الجنود على حواجز التفتيش أنهم متوجهون إلى هناك لزيارة أقارب.

بـدأ المزيـد والمزيـد مـن الناس يغـادرون درعا، رغـم أن فكرة الهـرب مـن المنـزل لـم تخطر في بال دعاء قـط. إذ كانت مقتنعة بأن الثورة ستنتهي قريباً، وأنه يمكنهم استعادة حياتهم الطبيعية. وشعرت أن الأشخاص الذين هربوا يهجرون قضية أكثر أهمية من البقاء على قيد الحياة، ولم تتخيل نفسها تغادر يوماً المنزل الذي أحبته كثيراً.

لكن، فيما أصبح كل يوم في درعا مسـألة حياة أو موت، بدأت ضغوطات الصمود تلقي بثقلها على العائلة كلها. فقد عانت الفتيات مـن الأرق ونوبـات الذعـر، وكـنّ دوماً متوتـرات وعصبيات، ورحن يتشـاجرن باسـتمرار على أمور بسـيطة. أما حمودي فكان يبكي كلما سمع صوتاً عالياً، فيما أصوات القنابل في الخارج جعلته مرعوباً على

الدوام، وصار يتشبث بهناء، ويلحق بها في المنزل خشية خسارتها.

بدأت دعاء أيضاً تشعر بالتأثيرات الجسدية الناجمة عن التوتر. فقد خسرت شهيتها وأصبحت نحيلة جداً. وشكّت هناء في أن دعاء تعاني من فقر دم. كما بدأت تعاني أيضاً من التهاب دائم في عينيها، وقد استيقظت ذات يوم لتكتشف أن جفنها متورم بالكامل.

فقالت لها هناء عندما رأتها: "علينا الذهاب الآن إلى الطبيب يا حياتي. فعينك ملتهبة".

لكن الرحلة إلى العيادة كانت محفوفة بالمخاطر، إذ يتوجب عليهما اجتياز مناطق فيها اشتباكات قبل الوصول إلى العيادة، وتستغرق الرحلة ساعة على الأقل. ولكن بالرغم من الخطر، اتصلت هناء لأخذ موعد في ذلك اليوم، ووجدت سيارة أجرة تقلهما. تواجدت القوى الأمنية في كل زاوية، فيما تواجد عدد قليل فقط من المدنيين في الشوارع. وعندما وصلت هناء ودعاء إلى العيادة، دخلتاها بسرعة.

ألقى الطبيب، وهو أحد أفراد العائلة الكبيرة، نظرة على عين دعاء، وقال إن عليه إزالة الشحاذ فوراً. لكن هناء لم تكن تملك المال، لذا شرحت له أنها لا تستطيع تأمين مبلغ خمسمئة ليرة الضروري للعملية.

فقال الطبيب فيما ابتسم لدعاء: "لا تقلقي يا عزيزتي. سأنجز العملية من دون مقابل. فنحن عائلة واحدة في النهاية، ولا أريدك أن تخسري هذه العين الجميلة". كانت دعاء متوترة جداً بشأن العملية لتبتسم له، وأمسكت بقوة بيد أمها.

عندما رأت دعاء الإبرة الطويلة التي سيستخدمها الطبيب لحقن

البنج في عينها، والشفرة التي سيستخدمها لإزالة الشحاذ، انفجرت في البكاء. حاول الطبيب مواساتها، وطلب منها إغماض عينيها وكأنها نائمة، فأطاعته، وباشر الطبيب فوراً بعمله. حقن البنج، واستأصل من الشحاذ، ثم غطى العين بضمادة. وبعد ذلك، أعطاها وصفة من المضادات الحيوية وأرسل دعاء وأمها إلى المنزل، وطلب منهما العودة خلال أسبوع.

لم تستغرق العملية أكثر من ساعة واحدة، لكن خلال هذا الوقت، اندلع القتال في الشوارع، فاستحال العثور على سيارة أجرة لتقلهما إلى المنزل، وبدأت دعاء تشعر بالدوار بعد العملية. وكانت أخت هناء تعيش على مسافة خمس عشرة دقيقة سيراً، لذا اتصلت بها هناء لإبلاغها بأنهما قادمتان، وانطلقتا صوب منزلها. كل ما أرادته دعاء هو الجلوس على الرصيف ووضع رأسها بين ذراعيها. فقد أحست بالضعف والعجز، واضطرت إلى الاتكاء بقوة على كتف أمها والإمساك بيدها للمشي. أثناء سيرهما، اقتربت منهما سيارة مليئة برجال بدوا وكأنهم من رجال النظام.

قالوا لدعاء فيما أخرجوا رؤوسهم من السيارة: "إلى أين تذهبين يا حبيبتي؟ ماذا حصل لعينك الجميلة؟".

فضغطت هناء على يد دعاء وهمست: "لا تجيبي يا حبيبتي. انظري إلى الأرض".

أطاعت دعاء أمها، علماً أن فمها قد جفّ نتيجة الخوف وهي لا تزال ضعيفة نتيجة العملية والبنج.

صرخ أحد الرجال: "هاي، تحدثي إلينا حين نتكلم معك. من الفظاظة عدم الإجابة".

بقيت هناء ودعاء صامتتين خشية أن يفضي أي جواب إلى تشجيع الرجال. وكان منزل خالة دعاء قد بات الآن في الجهة المقابلة من الشارع، فيما بدأ الرجال يفقدون صبرهم مع المرأتين، ويشعرون بالغضب فعلاً.

صرخ أحدهم: "هاي، أيتها العاهرة. طلبت منك الإجابة عندما أتحدث معك". عندئذ، بدأ بقية الرجال يضحكون، وبدا جلياً أنهم مستمتعون بما أصبح لعبة بالنسبة إليهم.

نظرت دعاء حولها طلباً للمساعدة، لكن لم يكن هناك أحد في الشارع. لذا، استمرتا في المشي، فيما لحقت بهما السيارة ببطء. كانتا قد أصبحتا على بعد خطوات من منزل خالة دعاء عندما سمعتا باب السيارة يفتح خلفهما، ثم خرج الرجال من السيارة. لقد انتهت لعبتهم واقتربوا أكثر من دعاء وأمها.

أدركت هناء ودعاء أنه عليهما الهروب، فركضتا صوب المنزل، وصرخت هناء فيما طرقت على الباب: "أختي، افتحي لنا. ثمة شخص يحاول خطف دعاء!".

وخلال ثوانٍ قليلة، فتحت إيمان، خالة دعاء، الباب وسحبتهما إلى الداخل، ثم قالت لهما بعد أن أغلقت الباب خلفهما: "كنت أتضرع إلى الله كي تصلا إلى هنا".

باتت دعاء بيضاء اللون نتيجة الخوف، وخشيت هناء أن يغمى عليها. رافقتها هناء بسرعة إلى أقرب كرسي، فيما أسرعت إيمان إلى النافذة للتحقق مما إذا كانت السيارة لا تزال هناك.

ثم قالت لهما: "أنتما بخير. إنهم يغادرون".

طمأنت هناء ابنتها دعاء: "ارتاحي الآن. سوف يبدأ حظر التجول.

نحن بأمان هنا".

قالت إيمان: "أنتما لا تعرفان كم أنتما محظوظتان. لقد رأيتهم البارحة يأخذون بعض الفتيات إلى تلك الحديقة العامة في الجهة المقابلة من الشارع. إنهم يعذبون الناس هناك! كل ليلة، أستطيع سماع الصراخ الآتي من ذلك المكان". عند سماع ذلك، أطلقت دعاء العنان لمخيلتها. لو خطفوها، لاستعملت سكينها لقتل نفسها، فهي لا تتحمل أبداً العار الذي كان أولئك الرجال ينوون إلحاقه بها.

في الوقت الحاضر، باتت دعاء في أمان، لكن عذابها لم ينته.

عند هبوط الظلام، قررت هناء ودعاء العودة إلى المنزل. كان من الخطر خروجهما بعد حظر التجول، وكانتا تحتاجان إلى شراء المضادات الحيوية لعين دعاء، وإلا فستلتهب مجدداً. قررتا المجازفة والسير في الطرقات الخلفية للعودة إلى منزلهما. وضبت إيمان كيساً صغيراً من الطعام، وأعطت خمسمئة ليرة لكل من هناء ودعاء. وهكذا خرجت هناء ودعاء في العتمة بحذر.

في طريق عودتهما، رأتا صيدلية صغيرة لا تزال مفتوحة. ولحقت دعاء بأمها إلى داخل الصيدلية، وفاجأتا الطبيبة المسؤولة في الصيدلية التي صدمت لرؤيتهما في هذه الساعة. "من الخطر التواجد في الشوارع الآن. ماذا تفعلان؟".

أجابتها هناء: "نحتاج إلى دواء. خضعت ابنتي لعملية في عينها للتو".

عندما رأت الطبيبة عين دعاء أعطتهما الدواء على الفور. أحست دعاء بالمزيد من الدوار دقيقة تلو الأخرى. ولم تكن واثقة من أنها تستطيع الاستمرار في الوقوف، فيما كبحت دموع الغضب والإحباط.

وبعد أن أعطتهما الطبيبة الدواء، قالت لهما بإلحاح: "اذهبا بسرعة. لقد قتلوا للتو رجلاً في الخارج. سمعتُ إطلاق النار، ثم سمعتهم وهم يرمون جثته في مكب النفايات".

ذعرت هناء من هذه القصة، وأخرجت بعض المال للدفع لطبيبة الصيدلية واستعدت للمغادرة فوراً، لكن الطبيبة رفضت أخذ المال، وقالت عوضاً عن ذلك: "الله معكما. أخفضا رأسيكما، ولا تنظرا إلى جهة مكب النفايات".

لكنهما عندما خرجتا لم تستطيعا منع نفسيهما من النظر. تقطر الدم من الفتحة السفلية لبرميل النفايات وسال في الشارع. شعرت دعاء بالغثيان بعدما أدركت ما حصل للتو، ولكنهما تابعتا طريقهما. وبعد أن تقدمتا قليلاً في الشارع، سمعتا صوت سيارة تقترب، فاختبأتا بسرعة في ظلال مبنى مجاور، وانتظرتا هناك وهما تراقبان مجموعة من الرجال الذين خرجوا من السيارة، وفتحوا الصندوق، وحملوا جثة أخرى ورموها في مكب النفايات. ثم سمعتا أحد الرجال يقول لرفاقه: "أطلقوا النار عليه مجدداً للتأكد من أنه مات". فصدح صوت الرصاص، ثم عاد الرجال إلى السيارة واختفوا بعيداً.

خرجت دعاء وأمها من مخبئهما لمتابعة رحلة العودة إلى المنزل، وصرخت دعاء فجأة بعدما شعرت بالغثيان: "ماما، لا أستطيع المشي. أشعر أنه سيغمى عليّ".

عندها، أمسكت هناء بابنتها وقالت لها: "حياتي، عليك أن تمشي. سنتقدم ببطء وأنا سأدعمك".

استجمعت دعاء كل قوتها، ولحقت بأمها. وطوال الساعة التالية، مشتا بمحاذاة الجدران، في محاولة للاختباء بين المباني. وعندما رأتا

أخيراً أنوار منزلهما، شعرت دعاء أنه سيغمى عليها نتيجة الارتياح، فيما شكرت هناء الله. فهما لم تشعرا سابقاً بخوف مماثل لما شعرتا به اليوم.

تلك الليلة، بعد أن نام الأولاد، قرر شكري وهناء أن الوقت قد حان لمغادرة سوريا. فمن السذاجة الاعتقاد أن حياتهم ستعود إلى طبيعتها في وقت قريب، وعرفا أنهما أوشكا فعلاً على خسارة دعاء في ذلك اليوم. لقد خسر شكري أصلاً مصدر رزقه، وعرف أنها مسألة وقت فقط قبل أن يخسر بناته. فالمنطقة عندهم تفرغ يوماً بعد يوم، وقد اختفى جميع الرجال الذين كانوا في سنّ القتال؛ إذ انضموا إلى الجيش السوري الحر، أو تم توقيفهم أو قتلهم.

في الصباح، رفع شكري سماعة الهاتف واتصل بالشخص الوحيد الذي يعرف أنه يملك الإمكانات المادية والعلاقات الضرورية لمساعدتهم. إنه ابن حميه إسلام الموجود في أبو ظبي. وعندما أجاب، قال له شكري: "سنغادر سوريا. ساعدنا للوصول إلى مصر".

الفصل الرابع

حياة اللاجئين

ركعت دعاء على المقعد الخلفي للسيارة، ونظرت عبر دموعها من النافذة الخلفية، فيما اختفى بلدها وراءها. جلست سجى ونوارة وحمودي قربها، ما زاد عليها صعوبة التنفس. أما والداها فقد تشاركا المقعد الأمامي مع خالد، صديق والدها الذي سينقلهم إلى خارج البلاد، وحدّق بثبات أمامه. خارج النافذة، استطاعت سماع الأصوات المكتومة لإطلاق الرصاص المتقطع، وازداد يأسها عندما أدركت أن هذه الرحلة ليست رحلة عائلية قصيرة، كما ازداد بكاؤها حين أدركت أن هذا الرحيل قد يستمر إلى الأبد.

لم تكن تريد المغادرة، فقد وعدت نفسها بأنها لن تتخلى أبداً عن الثورة، وتوسلت إلى والدها ليبقى، وقالت له بصوت مرتجف: "ترك سوريا سيكون مثل أخذ روحي مني".

فأجاب: "أنا والدك، وأريدك أن تبقي على قيد الحياة".

أبلغوا موعد مغادرتم مساء قبل ساعات قليلة فقط. فتوجب عليهم توديع أصدقائهم بسرعة، وكان الوداع مؤثراً جداً مع أختهم أسمى التي بقيت مع زوجها وأولادها. واتصلوا أيضاً بآية التي كانت

قد غادرت قبل أسابيع قليلة للانضمام إلى زوجها في لبنان. جاءهم الاتصال من إسلام، زوج علاء، الأخت الكبرى لدعاء، قرابة الساعة العاشرة مساء. قال إنه حوّل المال لهم ثمناً لتذاكر الرحلة من الأردن إلى مصر، ونصحهم بالمغادرة إلى الأردن على الفور. بكت دعاء وسجى ونوارة فيما وضبن أغراضهن وعانقن أسمى وأقاربهن مراراً وتكراراً. قالت لهم أسمى: "سوف تعودون". وتساءلت دعاء: لكن متى؟ فيما نظرت إلى وجه أختها في محاولة لحفظه.

في صباح اليوم التالي، في تمام الساعة التاسعة، وضعوا حقائبهم في صندوق سيارة صديق شكري وركبوا في السيارة. وعند آخر مركز تفتيش في طريقهم إلى الحدود، تمتمت دعاء بصوت عالٍ: "أشعر بأنهم يغلقون غطاء تابوتي". ثم نظرت إلى خارج النافذة، وبدأت تهمس مودعة كل شيء رأته. "وداعاً أيتها الشوارع. وداعاً أيتها الأشجار. وداعاً درعا. وداعاً أيها الطقس. وداعاً". وانهمرت دموعها على مقعد السيارة فيما أخرجت رأسها من النافذة لتنشق الهواء.

استدار شكري في مقعده للنظر إلى دعاء، وامتلأت عيناه بالقلق عندما رأى حزنها. أدرك أن عائلته حزينة، ولكنه اتخذ هذا القرار الصعب المتمثل بترك الحياة التي أسسوها معاً بهدف حمايتها. عرف أن دعاء وإخوتها قد لا يفهمون ذلك الآن، ولكنه أراد منها أن تعلم أن ما يحاول القيام به هو الأفضل.

سألها: "هل تعتقدين أنني أردت مغادرة درعا؟". فيما كافح لإبقاء صوته ثابتاً. كان مستعداً للقيام بأي شيء لإبعاد الألم عن عائلته. "لا أملك خياراً. لا أتحمل فكرة خطفكن أيتها الفتيات".

عندها، بكت الفتيات الثلاث، فتدخل خالد لتوفير الدعم

لصديقه. "والدكن محق بإبعادكن عن هذا الجنون. إنه يفكر فقط في سلامتكن".

وثقت دعاء في خالد؛ الشخص الذي عرفته طوال حياتها، وثمة شيء في داخلها أنبأها بأنه محق. وكانت ممتنة له لمساعدته والدها على الاهتمام بالعائلة، وبذلت ما بوسعها لإخفاء خيبة أملها. لم يتخيل أحد ممن يجلسون في السيارة ما سيحصل لاحقاً، ولكنهم سيعلمون بعد أشهر قليلة أن "خالد" قد قتل في الحرب في درعا.

امتدت سبعة حواجز تفتيش على طول الكيلومترات الخمسة عشر التي توصل إلى الحدود. وعند أحد الحواجز، فتح رجال الأمن صندوق السيارة، ومن ثم الحقائب، وبعثروا أغراض العائلة. وفي حاجز آخر، تم استجوابهم، إذ أراد الجنود معرفة سبب مغادرتهم سوريا، فكذبت هناء قائلة: "زوجي مريض، وعلينا المغادرة لتوفير الرعاية الطبية له". ثمة جزء صغير في دعاء أمل سراً أن تتم إعادتهم إلى منزلهم مجدداً، لكن عند سماعه جواب أمها، هزّ الجندي كتفه ولوّح لهم للمضي قدماً. وعندما وصلوا أخيراً إلى الحدود الأردنية، نظرت دعاء إلى وطنها، محاولة استيعابه كله.

همست: "أحسد الجبال والأشجار والصخور لأنها ستتمكن من تنشق هواء درعا، فيما أنا لن أستطيع ذلك". ونظرت للمرة الأخيرة إلى وطنها.

كان ذلك في تشرين الثاني 2012، أي بعد عام وثمانية أشهر على بدء أعمال العنف في سوريا. وبالرغم من اختلاف الأرقام حسب المصادر، فإن المرصد السوري لحقوق الإنسان، الذي يحصي عدد الوفيات في النزاع، قدّر عدد الوفيات بأكثر من تسعة وأربعين ألف

شخص حتى ذلك الحين. كان من المستحيل معرفة عدد الذين اختفوا أو سجنوا وراء القضبان في سجون النظام، وقد أصبحت الحرب أكثر وحشية. وفي عامها الخامس- حسب تقديرات الأمم المتحدة- قتل أكثر من 250 ألف شخص، وأصيب أكثر من مليون. في غضون ذلك، أجبر 5 ملايين سوري، مثل عائلة دعاء، على الهرب عبر الحدود، فيما اضطر 6.5 ملايين شخص إلى تغيير مقرهم داخل البلد، وأجبروا مرات عدة على الانتقال إلى أنحاء مختلفة في البلد حيث الأمان. وفي العام 2016، أصبح السوريون أكبر شعب مهجر في العالم.

فيما قاد خالد سيارته إلى مركز نصيب الحدودي، لاحظت العائلة أنه توجد أكثر من مئتَي سيارة مصطفة للدخول إلى إربد؛ المدينة الأردنية المحاذية للحدود. تقدمت السيارات إلى الأمام ببطء شديد، فراقب أفراد العائلة بعض السيارات التي عبرت الحدود، فيما عادت سيارات أخرى أدراجها. وعندما اقتربوا أكثر من مقدمة الرتل، لاحظت دعاء أن توتر والديها قد ازداد، وبدا ذلك واضحاً على كتفَي أمها وفكّي والدها الذي تصلّب على المقعد الأمامي. جلست دعاء في السيارة من دون حراك لوقت طويل جداً، حيث أرادت الآن الصراخ. أخيراً، عندما وصلوا إلى نقطة التفتيش الحدودية، قال الجندي لشكري إن عبور الحدود يكلف عشرة آلاف ليرة للشخص الواحد. وكان شكري يملك سبعة آلاف ليرة سورية فقط، وثلاثمئة جنيه مصري. حاول التفاوض مع حرس الحدود، ولكن من دون جدوى. فقد شبك الجنود أذرعهم وهزوا رؤوسهم. تمنت دعاء لو أنها تستطيع الصراخ في وجوههم اللامبالية. طُلب من العائلة أن تعود أدراجها، فاقترح عليهم خالد أن يركنوا السيارة جانباً لبعض

الوقت للتفكير في خطة جديدة، ووافق شكري وهناء على ذلك. كانوا قد تركوا المنزل صباحاً في تمام الساعة التاسعة، وبعد كل حواجز التفتيش وأرتال السيارات التي تحاول المغادرة، قاربت الساعة الآن على منتصف الليل. ركنوا السيارة جانباً، ونزلوا منها مرتجفين في برد شهر تشرين الثاني، وحاولوا التوصل إلى خطة جديدة.

لم يعد بوسع دعاء الجلوس دقيقة أخرى على المقعد الخلفي مع إخوتها. لذا ما إن توقفت السيارة حتى خرجت منها، ومدّت ذراعيها فوق رأسها، إذ آلمتها عضلاتها المشدودة بعد الرحلة الطويلة. وفيما مشت في مرأب السيارات، رأت أرتالاً طويلة من السيارات المليئة بأشخاص عالقين فيها تماماً مثلها. تم رفض إدخالهم إلى الأردن، لكن لم يشأ أي منهم العودة إلى سوريا. سمعت بين الحشود نساء يبكين وأطفالاً يصرخون. وتجول الرجال والنساء بين السيارات المركونة طالبين المساعدة، ومحاولين عبثاً إيجاد طريقة لعبور الحدود، فيما جلس الأولاد على الأرض يلعبون بعد أن باتوا مرهقين نتيجة الرحلة الطويلة. بدا وكأن نصف درعا باتت عالقة عند الحدود. راقبت دعاء المشهد، وتمنت لو أنها في أي مكان آخر ولكن ليس في هذه المساحة المزدحمة والمليئة باليأس. فجأة، لمحت خالها "وليد"، شقيق هناء، جالساً أمام طاولة متزعزعة عليها كومة من الجرائد. كان في ما مضى مهندساً، ولكنه خسر وظيفته عندما اندلعت الحرب، ولجأ الآن إلى بيع الجرائد عند الحدود! لهنيهة، حدّقت إليه دعاء غير مصدقة أنه هو، ثم أسرعت صوبه. كان منكباً على قراءة جريدة فلم يلاحظ دعاء إلا عندما أصبحت واقفة أمامه. رفع وليد عينيه عن جريدته مذهولاً، ثم ارتسمت ابتسامة رضى على وجهه عند رؤيته

ابنة أخته. بدأت دعاء تشرح له فوراً ما حصل، وتحدثت بأسرع ما يمكن فيما أشارت إلى السيارة. أصبح وجه وليد جدياً فيما أصغى إلى قصتها، ثم أمسك يديها بيديه وشدّها إليه قائلاً لها: "عودي إلى السيارة وانتظري. لا تذهبوا إلى أي مكان". عادت دعاء إلى السيارة بسرعة، وأخبرت والديها بما حصل، ففعلوا مثلما طلب منهم. وبعد ساعة واحدة، أصبحت عائلة الزامل على لائحة الأشخاص الذين يسمح لهم بدخول الأردن، فافترضوا أن وليد دفع رشوة فتحت لهم الطريق إلى المنفى بصفة لاجئين.

كانت دعاء وأفراد عائلتها محظوظين. فعبور الحدود محفوف بالمخاطر والصعوبات، ويحتاج الأمر إلى الرشاوى والمحاولات المتعددة. ومع اندلاع الحرب، بات عبور الحدود أكثر صعوبة. إذ ازداد عدد اللاجئين في الدول المجاورة لسوريا مثل الأردن ولبنان وتركيا، إضافة إلى مصر والعراق، وبات العثور على ملاذ أكثر صعوبة. لذا، بدأت الدول المجاورة القلقة على أمنها، ومن أعداد اللاجئين الذين باتوا في عهدتها، تفرض رقابة مشددة على الحدود، سامحة فقط للقضايا الإنسانية الصعبة بالعبور.

بالفعل، كانت عائلة الزامل محظوظة لأنها غادرت. وبعد عبور الحدود إلى الأردن، توجهوا إلى مدينة إربد حيث يعيش أحد إخوة شكري الذي كان بانتظارهم هناك لاستقبالهم عندما وصلوا. خرجوا من سيارة خالد، وودعوه بامتنان، إذ توجب عليه العودة إلى درعا. أمضت العائلة الأيام الثلاثة التالية في إربد، في انتظار أن ينقلهم المركب إلى مصر. وكان شكري الأكثر توقاً بينهم للمغادرة. فبعد الفترة التي أمضاها في السجن، لم يعد راغباً في قضاء أية لحظة في

الأردن.

في فجر 17 نوفمبر 2012، ركبت دعاء وعائلتها الحافلة متوجهين إلى الشاطئ. سافروا على طول الأردن بمحاذاة الحدود مع إسرائيل، مروراً أمام البحر الميت، ووصولاً أخيراً إلى ميناء العقبة، حيث تنطلق المراكب إلى مصر.

انتظروا بتوتر صعودهم على متن المركب. حركت دعاء قدميها بتململ أثناء وقوفها في الرتل الطويل للوصول إلى الجمارك. وتشبث حمودي بذراع أمه، فيما جلست سجى ونوارة على حقائبهما، ولم تقفا إلا عندما تحرك الرتل إلى الأمام قليلاً. بدا لهم وكأن الانتظار أمر أساسي في كل مرحلة من مراحل الرحلة. وبدا وكأن المسؤولين عن الجمارك الأردنية يفتشون السوريين بدقة من أجل تدابير السلامة. وبعد الانتهاء من تفتيش مجموعة من المسافرين المصريين، طُلب من دعاء وعائلتها التقدم مع حقائبهم. رفعت دعاء حقيبتها على الطاولة ووضعتها أمام مسؤولي الجمارك. وعندما فتحوا حقيبتها، نظرت إلى ما اختارته على عجل خلال الساعات الأخيرة التي أمضتها في المنزل: فستانين، سروالين، سترتين، بعض التنانير، وعدد من الحجابات، وبعض الأكسسوارات. حدقت إلى محتويات حقيبتها القليلة، وفكرت في الكتب التي تركتها لأنها ثقيلة جداً؛ واحد منها عن تفسير الأحلام، وبعض الروايات، وشعر نزار قباني، وكتاب للقواعد الإنكليزية. وتذكرت دبها القماشي الصغير الذي كان يضيء ويصدر صوت قبلة كلما ضغطت عليه، وتصاميم الملابس التي حلمت بارتدائها في المستقبل.

فجأة، نظرت بعيداً عن حقيبتها، وطرفت عينيها لمنع نفسها

من البكاء، وقالت لنفسها بحرقة: تركت حياتي في سوريا! لم تشأ أن تسبب لعائلتها المزيد من الحزن، وتذكرت أن أغراضها الثمينة باتت محفوظة الآن في منزل جدها. وأملت أن يؤدي وجودها هناك إلى حماية مدينتها وإبقائها في أمان خلال غيابها. وفكرت في سرها بتفاؤل أنها إذا تركت شيئاً يخصها في درعا، فستعود إلى هناك حتماً يوماً ما.

تأجل انطلاق المركب أربع ساعات بسبب الطقس السيئ. فجلست دعاء تنتظر تبدل الطقس، وتخشى الساعات الخمس المقبلة من رحلتها التي ستنقلهم عبر خليج العقبة. لم تتخطَّ قط خوفها من الماء، ولم تركب يوماً في مركب. كانت الأمواج عالية، وارتطمت بحواف المركب، ما جعله يتمايل ذهاباً وإياباً عند الرصيف. بقيت خائفة، ولكنها في الوقت نفسه شعرت بشيء من الطمأنينة نظراً لحجم المركب الكبير وشكله الثابت، وفكرت أن رحلتهم ستكون آمنة. وكلما دفعت موجة المركب نحو الرصيف الخشبي، جفلت دعاء نتيجة صوت الارتطام القوي. وعندما حان الوقت، توجّب عليها استحضار كل عنادها وشجاعتها لإجبار نفسها على الركوب في المركب.

فيما استقرت أمها مع حمودي وحقائبهم في الطابق السفلي، أسرعت دعاء وأختاها إلى سطح السفينة للمراقبة. لكن عندما انتقلت سجى ونوارة إلى جانب السفينة للنظر إلى البحر، بقيت دعاء بعيدة قدر الإمكان عن الحافة. خلال الساعة الأولى من الرحلة، اتكأت أختاها بحماسة فوق الدرابزين لمراقبة المشهد، فيما جلست دعاء من دون حراك وسط السفينة، متشبثة بجانبَي المقعد الذي جلست

عليه من أجل الحفاظ على توازنها، فيما اختفت شواطئ الأردن عن الأنظار. وعندما آلمتها أصابعها، حرّكت جسدها قليلاً، ولكنها لم تجرؤ على الإفلات.

استدارت سجى للنظر إلى دعاء، وعندما رأت وجهها شعرت بالقلق. "دعاء! وجهك شاحب جداً".

فشرحت لأختها: "السبب هو أنني لم أعد أرى اليابسة". فيما نظرت صوب الشاطئ الذي لم يعد بوسعها رؤيته، وحاولت التحلي بالشجاعة. فبالرغم من عدم قدرتها على السباحة، ساعدها منظر اليابسة على التحلي بالهدوء؛ إذ فكرت في أنه بوسعها الوصول إلى الشاطئ نوعاً ما إذا احتاجت إلى ذلك. وعندما توغلوا أكثر في البحر، اعترفت دعاء أخيراً لأختيها: "أنا خائفة". وطلبت منهما مساعدتها على النزول للانضمام إلى أمهن وحمودي في الطابق السفلي. أطاعتها سجى ونوارة، واجتمعت العائلة كلها في الأسفل، وتشاركت طعاماً خفيفاً.

أخيراً، وصلوا إلى مرفأ النويبة في شبه جزيرة سيناء. وعندما نزل آل الزامل من المركب ووطأوا أرض مصر، كانت دعاء مرهقة جداً، حيث شعرت أنها قادرة على النوم لأسبوع كامل. حيّاهم موظفون مبتسمون فيما تحققوا من جوازات سفرهم من دون تفتيش دقيق، وختموا على المستندات، وشرحوا لهم أنهم حصلوا على إقامة تلقائية لمدة ستة أشهر قابلة للتجديد. كان محمد مرسي حينها رئيس مصر، واعتمدت حكومته سياسة الأبواب المفتوحة مع كل اللاجئين القادمين من سوريا.

انتظرت العائلة في رتل الهجرة، وراقبت المسافرين الآخرين

الذيـن تـم وزن حقائبهم، ولاحظـوا أن العديد منهم دفعوا المال ثمن فائض الوزن. بدا شـكري غير مرتاح بسـبب أمتعة عائلته، وخشـي أن يضطر لدفع المال أيضاً بسبب كل ما أحضروه معهم. لاحظت دعاء القلق البادي على وجهه، وتمنت لو أنها تملك وسيلة لمواساته، فقد عرفت أنهم لا يملكون المال الكافي لدفع أي رسوم. اقتربت العائلة بتردد من موظفي الجمارك.

وقال لهم شكري: "نحن سوريون نسعى وراء الأمان في مصر. هـذا كل مـا بقـي لدينا". وقفت هناء خلفه، فيما راقبت دعاء وإخوتها من الخلف ردة فعل موظفي الجمارك. حبسـت دعاء أنفاسـها منتظرة إهانة أخرى من موظف لامبالٍ.

لكنهـا تفاجـأت حين ابتسـم لهم الموظف المسـؤول عن ميزان الجمـارك وأخبرهـم أنهـم ليسـوا مضطريـن لدفـع أي شـيء رغم أن حقائبهم تخطت الوزن المسموح به. وقال لهم: "أنتم آتون من حرب وعانيتـم كثيـراً. سـوريا ومصـر مثـل العائلة الواحـدة". وجاء موظف جمـارك آخـر وسـاعدهم على حمل حقائبهم إلـى الحافلة المتوجهة إلى القاهرة، وتمنى لهم الحظ، فيما صرخت عائلة أخرى كانت تقف عند الشاطئ مراقبة الناس الذين يصعدون إلى الحافلة: "أهلاً بكم أيها السوريون!".

قالت سجى إنها أحست بنفسها ملكة. للمرة الأولى منذ أشهر، شعرت دعاء بالأمان والترحيب. سمعوا أن مصر مستعدة لاستقبالهم كلاجئيـن، وهـا هـو الدليل أخيراً. لكن بالرغم من الاسـتقبال الحار، بقيت دعاء قلقة من ضرورة بدء كل شيء مجدداً، وهذه المرة في بلد جديد. أنبأتها غريزتها أن أوقاتاً صعبة تنتظرها. نظرت حول الحافلة،

واستوعبت البيئة الجديدة، وتوقفت عندما لاحظت وجه أخيها؛ فللمرة الأولى منذ وقت طويل، كان حمودي الصغير يبتسم.

احتاجوا إلى عشر ساعات أمضوها في الحافلة للانتقال عبر صحراء وعرة والوصول إلى القاهرة. ومن هناك، توجب عليهم السفر لخمس ساعات أخرى للوصول إلى مدينة دمياطة الشمالية، على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، حيث وجد لهم صهر دعاء، إسلام، منزلاً في منطقة الجمصة. وكان أبو أحمد، صديق إسلام، قد وصل قبلهم بعام واحد بصفة لاجئ، فاستقلوا سيارة أجرة من القاهرة إلى منزله. بعد تقديم وجبة بسيطة لهم، أخذهم أبو أحمد إلى شقة مجاورة دبّرها لهم. كانت الشقة موجودة في الطابق الأرضي من مبنى متعدد الطبقات، وتشتمل على غرفتَي نوم وغرفة جلوس مع مفروشات قديمة، ومطبخ، وحمام. دفع إسلام الإيجار بدلاً عنهم لشهر مسبقاً. ولم يكن قد بقي مع شكري سوى 300 جنيه مصري، أي ما يوازي 40 دولاراً، وذلك بعد أن دفع كلفة وصول العائلة إلى القاهرة، فشعر بالقلق، وبدا يتساءل عن كيفية تمكنه من دفع إيجار الشهر التالي.

كانت الشقة متسخة، لكن دعاء وعائلتها ناموا تلك الليلة من دون أن يزعجوا أنفسهم بالتنظيف أو فتح الحقائب، إذ كانوا مرهقين من الرحلة، وغير مستعدين بعد لمواجهة بيئتهم الجديدة.

تقلبت دعاء كثيراً في الليلة الأولى. إذ كانت نيّقة جداً في ما يتعلق بمسألة النظافة، وراحت تتخيل الغبار على الأرض يزحف صوبها في نومها. وفي صباح اليوم التالي، ذهبت العائلة للتسوق من متجر محلي

بحثاً عن فطور وبعض أدوات التنظيف. وعندما عادوا إلى المنزل، انكبوا جميعاً على تنظيف الشقة. كان وجود شيء يشغلهم ويبعد تفكيرهم عن انزعاجهم في البيئة الجديدة أمراً جيداً. انكبّت دعاء على التنظيف، وبذلت ما بوسعها للسيطرة على وضعها الجديد.

بعد الظهر، بدأ الجيران يتدفقون إلى الشقة وهم محملون بالمأكولات منزلية الصنع أو الجاهزة من السوق: جبن دمياطة المالح، دجاج مقلي، أرز مسلوق، صواني بقلاوة، وسلال مليئة بالفاكهة الطازجة. كانوا لاجئين أيضاً من دمشق وحمص وحتى من درعا. عقدت عائلة الزامل صداقات سريعة مع الجيران، وتبادلوا جميعاً قصص حماسة الثورة ورعب الحرب التي أجبرتهم على ترك بلدهم والمجيء إلى مصر. الجو الذي أضفاه هؤلاء الأشخاص على غرفة الجلوس كان احتفالياً وودياً، ووجدت دعاء نفسها تضحك وتبتسم مع جيرانها الجدد، وارتاحت لتواجدها بين أشخاص من بلدها.

كانت عائلة دعاء جزءاً من أول موجة من السوريين الذين يهربون إلى مصر منذ بدء الصراع عام 2011، وقد جاء معظمهم للانضمام إلى أصدقاء وأقارب سوريين يعملون هناك. وثمة أشخاص آخرون امتلكوا علاقات عمل أو شبكات شخصية أخرى وفّرت لهم ملاذاً. وبغية الصمود، اعتمد معظم اللاجئين على مدخراتهم الشخصية، وعملوا في وظائف غريبة، أو بدأوا بأعمال خاصة بهم، واستطاع العديدون منهم الاعتماد على أنفسهم. وهذا ما أمله أهل دعاء أيضاً. لكن بعد فترة وجيزة من وصولهم، تدفق عدد أكبر من اللاجئين، فحصل المزيد من التنافس على العمل، وازدادت صعوبة العيش. وخلال النصف الأول من العام 2013، ارتفع عدد اللاجئين

السوريين بشكل كبير. فبعد عام واحد على وصول عائلة الزامل إلى مصر، سجلت الهيئة العليا للاجئين التابعة للأمم المتحدة ((UNHCR 125499 لاجئاً سورياً في البلاد. وحسب الحكومة المصرية، إن العدد الحقيقي يقارب 300 ألف لاجئ إذا تم حساب كل السوريين غير المسجلين.

ساعدت الهيئات الداعمة التي تشكلت بين اللاجئين عائلة دعاء على اجتياز مرحلة الانتقال، وخففت من وحدة دعاء، رغم اشتياقها الكبير لمنزلها. وكانت تتساءل دوماً: ماذا سنفعل لو لم يكن الانتقال مؤقتاً؟ ماذا سأفعل إن اضطرت للبقاء في هذا المكان الغريب إلى الأبد؟ كيف سأتكيف؟ إذ كانت تكره التغيير.

كانت شوارع المنطقة التي يعيشون فيها وسخة، وتفوح منها رائحة النفايات المتحللة. فيما بحثت الكلاب والقطة الشاردة عن طعامها في أكوام النفايات المكدسة في الشارع، وبدا أن الذبابات المحلقة حول النفايات موجودة في كل مكان. أين مصابيح الإنارة وسلال النفايات؟ تساءلت دعاء في قرارة نفسها عندما تجولت في المنطقة. كان أهل درعا يفتخرون بنظافة مدينتهم، لذا صدمت دعاء بالإهمال الكبير في بيئتها الجديدة. إلا أن جمصة تكشف عن شاطئ جميل، وقيل لها إن المدينة تتحول صيفاً إلى منتجع سياحي للطبقة العاملة. غير أن دعاء لم تصدق الأمر كثيراً نظراً إلى الشوارع المليئة بالنفايات.

أحست دعاء باشتياق شديد إلى مدينتها، وأمضت الكثير من الوقت في القلق بشأن مستقبل عائلتها. عرفت أن المال ينفد من والدها بسرعة. وبعد زواج أخواتها علاء وآية وأسمى، وعيشهن في

أبو ظبي ولبنان وسوريا، باتت دعاء الآن الفتاة الكبرى في العائلة. وقد حمّلها هذا الدور مسؤوليات لا تعرف كيفية تلبيتها، فشعرت بالعجز.

عرفت أنها باتت الآن بأمان مع عائلتها في مصر، وحاولت إقناع نفسها بأنهم أفضل هنا. كما حاولت التركيز على المعنى الجديد للأمان، ووجدت متعة في سماع الأصوات اليومية لشوارع المدينة بدلاً من أصوات القنابل والقذائف. لكن رغم كل ذلك، واجهت دعاء مشكلة في عدم قدرتها على اللامبالاة. ففي درعا كانت تملك هدفاً، وكانت فرداً معروفاً في مجتمع يدافع عن قيم معينة، ولكنهم تعرضوا للهجوم. أما هنا فشعرت أنها مثل ضيف يعيش بفعل الشفقة. فهي مجرد لاجئة، وواحدة من مجموعة متزايدة من الأشخاص العاجزين. والأسوأ من ذلك أنها شعرت أحياناً بأنها تخلت عن بلدها؛ رغم علمها بأن البقاء في سوريا كان من الممكن أن يقتلها. لكن، من هي من دون مجتمعها؟ وما هو الإنجاز المهم الذي يمكنها أن تحققه هنا فيما بلدها يدمر نفسه؟ حاولت دعاء إخفاء حزنها عن عائلتها، وذكرت نفسها غالباً بضرورة التحلي بالصبر. إنه تحدٍّ جديد، تحتاج عائلتك إلى أن تكوني قوية من أجلها. ما من شيء أكثر أهمية بالنسبة لك من راحة عائلتك.

بعد شهر على وصولهم، نفد مال العائلة، وتفاقمت حالة الاكتئاب التي سيطرت على شكري بعيد تهدم صالونه، فارتفع معدل الكولسترول وضغط الدم لديه، وأمضى ساعات جالساً على وسادة في غرفة الجلوس، يدخن أو يشرب الشاي المحلى، من دون أن يتحرك أو يتكلم. أحست دعاء أن والدها يبتعد عنها، وعرفت أنه يعتقد أنه خذل عائلته لكن كبرياءه تمنعه من الحديث عن ذلك. لم

يتذمر والداها أمامهم قط، لكن دعاء شعرت جلياً بضغوط الحياة الجديدة التي تصيبهم، وخصوصاً عندما اتضح لهم أنهم قد يبقون في مصر لوقت أطول مما توقعوا. وفيما شاهدوا التقارير الإخبارية التي تعرض المزيد من الصدامات والقنابل في بلدهم، قالت هناء: "الحمد لله لأننا غادرنا". لكنّ شكري كان يصرّ على أنه لن يمضي وقت طويل قبل أن يعودوا، وذكّرهم بالفترة الانتقالية التي حصلت في تونس بعد الثورة، وفي مصر بعد سيطرة الإخوان المسلمين. أرادت دعاء تصديق والدها، ولكنها عرفت أنه يتحدث بدافع يأسه. فكل ما رأته في الأخبار أوضح لها أنهم لن يتمكنوا من العودة إلى بلدهم قريباً.

في شهر شباط من العام 2011، حصلت تظاهرة شعبية في مصر ضد الرئيس حسني مبارك. ومع الوقت، اكتسب الإخوان المسلمون شعبية في البلاد، ووصلوا إلى السلطة. لكن الأشخاص العلمانيين وغير المسلمين في مصر انزعجوا كثيراً من هذه التطورات، وفي شهر حزيران من العام 2012، أي قبل أشهر قليلة من وصول دعاء وعائلتها إلى دمياطة، فاز رئيس الإخوان المسلمين، محمد مرسي، بالرئاسة بنسبة 51 في المئة من الأصوات في أول انتخاب ديمقراطي في مصر. وعد مرسي بتشكيل حكومة "لكل المصريين"، لكن الانتقادات طالته سريعاً بسبب منحه المناصب الحكومية الرئيسة للإسلاميين، وعدم تنفيذه الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية التي وعد بها خلال حملته الانتخابية.

عندما وصلت عائلة دعاء إلى مصر، لم يكن أي من أفرادها مدركاً المعارضة الشعبية التي بدأت تزداد ضد الإخوان المسلمين

والرئيس مرسي بعد أشهر قليلة على تسلمه منصبه. إذ كانت العائلة منشغلة في الأخبار الآتية من بلدها. وبالنسبة إليها، وفّرت لها حكومة الإخوان المسلمين الملاذ، وقدمت لها الكثير من المساعدة أثناء محنتها. كما عرفت العائلة أيضاً أن مرسي كان داعماً علنياً للمعارضة السورية في تمردها ضد الرئيس الأسد. ولغاية الآن، أقامت عائلة الزامل تفاعلات إيجابية مع الحكومة المصرية.

أجرى موظفون مسؤولون في الفرع المحلي من حكومة الإخوان المسلمين جولات تفتيش منتظمة على المباني التي تأوي اللاجئين السوريين للتحقق من أوضاعهم. وبعد جولات التفتيش المسببة للقلق التي عاشوها في سوريا، تجمّدت عائلة دعاء خوفاً عندما سمعت طرقاً على الباب للمرة الأولى، خشية وصول زوار غير متوقعين. وقفت دعاء قرب والدها مستعدة لدعمه فيما فتح الباب. لكن بدلاً من الجنود العدائيين الذين يحملون البنادق، وجدوا رجلين مبتسمين يقفان أمام الباب؛ الأول يحمل كيساً بلاستيكياً والثاني مجموعة من البطانيات.

قالا لهم: "أهلاً بكم هنا. أنتم إخوتنا". وقدما لشكري الأغراض التي كانت معهما. نظرت دعاء من فوق كتف والدها، واكتشفت أن الكيس الذي أحضراه مليء بالمعكرونة، والسكر، والأرز، والمواد الغذائية الأخرى. الرجل الذي كان يحمل الكيس البلاستيكي أعطاه لشكري، فيما انحنى الرجل الذي يحمل البطانيات ووضعها على الأرض داخل المنزل. عندها، أحس شكري بالصدمة، وتمتم لهما شاكراً.

صحيح أن مثل هذه المساعدات مفيدة، لكن العائلة لم تكن

تملك المال لدفع الإيجار. وبعد أسبوعين، بدأ شكري يبحث عن مكان أرخص للعيش فيه. وذهل حين سمع عن صاحب فندق مصري يريد مساعدة اللاجئين السوريين من خلال إيوائهم مجاناً خلال فصل الشتاء حين يكون فندقه خالياً، أي بين شهرَي أيار وتشرين الأول. فبعد ذلك الوقت، تمتلئ منطقة دمياطة بالمصريين العاملين الذين يأتون إلى الشواطئ والفنادق الرخيصة الممتدة على طول شاطئ البحر الأبيض المتوسط لقضاء العطلة الصيفية. لكن هذه المنطقة تصبح مهجورة خلال الشتاء.

لم تصدق دعاء وعائلتها أنه يمكن لشخص ما أن يقدم المأوى مجاناً. غير أن شكري ذهب للتحقق من المكان. وعندما عاد، كان متفائلاً. وهكذا، وضبت عائلة الزامل أغراضها مجدداً، وانتقلت إلى فندق الأميرة. يقع الفندق على طريق رملية، مقابل أحد أكبر الجوامع في جمصة. كان الطلاء الأبيض والأزرق يتقشر عن السوار الخارجي الذي انهار في بعض الأماكن كما لو أن سيارة قد ارتطمت به. أسرع خالد، مدير الفندق، مع زوجته وأولاده للترحيب بهم ودعوتهم لاستكشاف المكان واختيار جناح عائلي. فقد كانوا اللاجئين السوريين الأوائل الذين يصلون إلى الفندق، وبالتالي يمكنهم اختيار الغرف التي يرغبون فيها.

ظهر المزيد من الطلاء المتقشر داخل الفندق، وطقطقت الأسرّة نتيجة التلف والبلى. في المقابل، كانت الأدوات الكهربائية في المطبخ الصغير والحمام متصدعة وصدئة، لكن الغرف كشفت عن شرفة واسعة تطل على حديقة الفندق، حيث يمكنهم رؤية العشب الأخضر وشجرة نخيل كبيرة ومقاعد خشبية. كان الفندق رائعاً بالنسبة

إليهم، وشعروا بالكثير من الامتنان. اختاروا جناحاً مؤلفاً من غرفتين متلاصقتين، وأعطاهم خالد المفاتيح.

جاء صاحب الفندق، فدلون، بين الحين والآخر لتقديم احترامه وتعاطفه مع العائلة. وكلما عبّرت له عائلة الزامل عن امتنانها لكرمه، قال دوماً إنه مسرور بمساعدتهم. وكلما لمح حمودي ابن السنوات التسع بمفرده، أعطاه بعض الأوراق النقدية، إذ عرف أن شكري وهناء لن يقبلا المال منه. انتشرت أخبار كرم فدلون في المنطقة، وامتلأ الفندق سريعاً بعائلات اللاجئين السوريين. وخلال فترات بعد الظهر، كان اللاجئون يجتمعون حول طاولة خشبية كبيرة في الحديقة، ويتبادلون قصص الحياة قبل الحرب، والألم والمعاناة اللذين حصلا بعد ذلك. جاء إليهم عدد من السكان المحليين والمجموعات الدينية من المتعاطفين مع السوريين وقدموا لهم الملابس والبطانيات. ومجدداً، جعلهم الشعب المصري يشعرون بأنهم محط ترحيب.

ذات مساء، بعد مرور شهر كامل على عيش عائلة الزامل في الفندق، دعاهم خالد إلى منزله لتناول الغداء. فقد عاش مع زوجته وأبنائه الأربعة على مسافة ساعة بالسيارة في ضاحية صغيرة اسمها كفرالغاب. حضّرت لهم زوجة خالد الحساء والسلطة والبط مع الأرز. وبعد الانتهاء من تناول الطعام، أخذهم خالد في جولة في منطقته، وعرّف جيرانه عليهم بقوله إنهم أصدقاؤه السوريون. أصبح خالد أول صديق مصري لعائلة الزامل، وللمرة الأولى منذ مغادرة سوريا، أحست دعاء بالارتياح.

مع اقتراب نهاية فصل الشتاء، وامتلاء الفندق بالنزلاء، توجب على دعاء وعائلتها المغادرة. بحثوا عن مكان جديد، ولكنهم لم

يجدوا هذه المرة صاحب مبنى متعاطفاً وراغباً في مساعدتهم. فقد طلب أصحاب الشقق أسعاراً مرتفعة جداً من السوريين، مستفيدين من يأسهم.

كان شكري قد جمع القليل من المال نتيجة عمله في مهن متفرقة، ولكن المبلغ لم يكن كبيراً. انتقلت العائلة بسرعة إلى شقة صغيرة في منطقة مكتظة في الجمصة، مليئة بالنفايات والغبار نتيجة الطريق غير المعبّدة. انفطر قلب دعاء عندما رأت الشقة للمرة الأولى، وأزعج الضجيج العائلة ليلاً ونهاراً بسبب سهر المصريين لساعات متأخرة، وسماعهم الموسيقى، وتحدثهم بصوت عالٍ في الشوارع. استلقت دعاء في سريرها مستيقظة في أغلب الأحيان، وعاجزة عن النوم، ومتحسرة على الليالي الهادئة في درعا قبل الحرب.

عقدت أختاها صداقات مع فتيات الجيران، لكن دعاء أصيبت بالاكتئاب، وعجزت عن تناول الطعام، وقضت أياماً كاملة داخل الشقة مشاهدة الأخبار على قناة الجزيرة الإخبارية، وقناة الجيش السوري الحر، وهي تشعر برغبة قوية في العودة إلى وطنها والمشاركة في الثورة. وعبثاً حاولت الاتصال بصديقاتها في سوريا، فخطوط الهاتف كانت بمعظمها مقطوعة أو معطلة، ونادراً ما نجحت في التواصل معهن. واستطاعت أحياناً التكلم مع أختها أسمى لدقائق معدودة عبر السكايب.

ذات يوم، تلقت دعاء رسالة من أختها ملأتها بالقلق، وقرأتها بصوت عالٍ: "أنا مشتاقة لك، والحي مشتاق لك. يصعب العيش هنا من دونك. المنطقة كلها تبكي. أنت نور المنطقة، وحلّ الظلام من دونك". في سوريا، مات المزيد من الأشخاص كل يوم، وفرغت

المتاجر من البضائع تقريباً، وتهدمت مبانٍ جديدة كل أسبوع. توسلت دعاء إلى والدها لإعادتهم إلى سوريا حيث يستطيعون إحداث فرق، بدلاً من الإحساس بالعجز في مصر. لكنّ شكري نظر إلى ابنته غير مصدق وقال: "لن أعيدك إلى هناك لتموتي". توسلت إليه دعاء كثيراً، لكنه بقي مصراً على موقفه.

وعندما مرض شكري كثيراً وأصبح عاجزاً عن العمل، قررت هي وسجى أنه عليهما إعالة العائلة. إذ لن تبدآ المدرسة قبل السنة التالية، ولذلك فكرتا في أنه بوسعهما الاستفادة من الوقت الحر لمساعدة والدهما؛ رغم أنهما في السابعة عشرة والخامسة عشرة فقط.

وجدتا عملاً في مصنع لأكياس الخيش، وأخبرهما صاحب المصنع أنه لا يحتاج في الواقع إلى موظفين- لأن مئة رجل وبعض النساء يعملون في المصنع- لكنه أراد المساهمة في مساعدة السوريين. كل صباح، استقلت الفتاتان حافلة الساعة السابعة للذهاب إلى المصنع، وأمضتا النهار هناك في خياطة الأكياس وعدّها وحملها على ظهريهما إلى ميزان حيث يتم وزنها وتكديسها. دعاء، البالغ وزنها 80 باوناً فقط، تألمت نتيجة الحمل الثقيل. كانت أيام العمل طويلة وشاقة. كانتا تستريحان فقط عند صلاة الظهر، وتتابعان العمل بعدها حتى وقت متأخر من المساء. وما كانتا تأكلان أي طعام خلال النهار، إذ يتم تقديم أكواب الشاي لهما فقط في العمل. كانت دعاء وسجى من النساء القليلات العاملات في المصنع، لكن تمّت معاملتهن باحترام ولطف من قبل زملائهما.

أفضل ما في الوظيفة هو الصداقات التي عقدتاها هناك. تهامست

دعاء وسجى ومزحتا مع بعض العاملات المصريات الشابات. وذات مرة، قامت إحدى العاملات باحتضان دعاء والقول لها: "أحب بشار الأسد لأنه منحنا فرصة لقائك". اشتاقت دعاء إلى صديقاتها من أيام المدرسة في درعا، وانتهزت أية فرصة للتكلم مع فتيات في مثل عمرها. وساعدها ذلك على تخيل وقت تشعر فيه بالمزيد من الارتياح في مصر.

وفيما استقرت دعاء في عملها، تضاءل شعورها بالعجز واليأس. إذ بدأت الآن تحضر المال لعائلتها، وتكسب مودّة الأشخاص الذين تعمل لهم. ولم تعد تشعر أنها شخص هرب من الحرب في بلده، وإنما باتت تشعر أنها شابة تعتني بعائلتها وتعيلها. وكلما أعطت والديها المال، شعرت بالفخر يملأ صدرها. لاحظت أمها الفرق في موقف ابنتها، وأحست بالرضى لدى ملاحظتها تحوّل ابنتها إلى شابة كفوءة.

لفتت دعاء أيضاً انتباه الرجال الشباب حولها. وخلال الأشهر الثلاثة التي مضت على عملها في المصنع، تقدم إليها شابان مصريان للزواج ولكنها رفضتهما؛ رغم كونها في عمر تتزوج فيه الفتيات. فآخر ما كان يخطر في بال دعاء في تلك الفترة هو الزواج. عندما تتزوج فسيكون ذلك الرجل سورياً، وسيحصل ذلك حين تعود إلى وطنها.

ذات يوم، أخذت دعاء إجازة من العمل للاعتناء بأمها التي كانت مريضة. وفيما حضّرت الشاي لأمها واهتمت بحمودي، خشيت أن تخسر وظيفتها أو أن يحسم لها صاحب المصنع من راتبها. لذا، عندما عادت إلى العمل في اليوم التالي، توجهت مباشرة إلى مدير

الموظفين وعرضت عليه التعويض عن الوقت الضائع.

دخلت مكتبه بعينين منخفضتين، واعتذرت على تغيبها عن العمل. لكنه بدلاً من توبيخها مثلما توقعت، ابتسم لها بلطف وسألها عن عنوان منزلها. وفي الليلة التالية، رنّ جرس الباب، وجاء مدير الموظفين مع مساعده حاملين سلة مليئة بالفاكهة والحلويات، وسألا عن هناء. وعندما جلسا مع العائلة، قالا إنهما جاءا ليتمنيا لها الشفاء العاجل. وقال مدير الموظفين لشكري وهناء فيما كان يرتشف الشاي: "نحب السوريين. أهلاً بكم في بلدنا، ونحن إلى جانبكم. ولا تقلقا على الفتاتين في المصنع، أنا أهتم بهما".

فتأثرت دعاء كثيراً.

في الليل، فيما كانت دعاء ترتاح من عناء العمل الشاق خلال النهار، كانت أفكارها تعود إلى سوريا، فتمضي أمسياتها وهي تقلب القنوات التلفزيونية، في انتظار سماع تقارير عن الحرب. تراسلت مع صديقتها المقربة آمال التي لا تزال في درعا، وسألتها عن الأخبار. وأخبرت دعاء آمال كم تريد العودة إلى المنزل، لكن هذه الأخيرة حذرتها: "من الأفضل ألا تفعلي يا دعاء، لأن الوضع يزداد سوءاً. بات الوضع خطراً على الجميع. لم أعد أذهب إلى التظاهرات بعدما سافرت". شعرت دعاء دوماً بحالة متناقضة بعد تبادلها الرسائل الهاتفية مع آمال. إذ لم يعد يرعبها خطر العودة إلى سوريا، وإنما أرعبها تركها عائلتها من دون إعالتها. فهي لا تستطيع التخلي عنهم، وأدركت أنهم بحاجة إليها هنا أكثر مما يحتاجون إليها هناك.

في غضون ذلك، لاحظت هناء أن دعاء مشتاقة إلى سوريا، ولذلك خبأت جواز سفر ابنتها العنيدة، وراقبتها عن كثب. رأت هناء

علـى هاتـف دعـاء الرسـائل النصية التي وصلت إليهـا من أصدقائها، والتي يلحون عليها فيها للعودة إلى سـوريا والانضمام إلى نضالهم. وعندما واجهتها هناء بشأن النصوص، أكدت لها دعاء أنها لن تتخلى عن العائلة. عندها، أدركت هناء أن دعاء قد نضجت كثيراً في الأشهر التي تلت مغادرتها سوريا. فقد تحملت مسؤولية عائلتها، ومن أجلها كانت تبذل ما بوسعها للتأقلم مع حياة المنفى، وهذا كل ما يهم الآن.

إلا أن العمل في المصنع أرخى بثقله على صحة دعاء، فأصبحت أكثـر ضعفـاً يومـاً بعد يوم. وكلما قلقت أو تعبت عجزت عن الأكل، فعـاد إليهـا فقر الدم. سـمع شـكري عـن رجل أعمال سـوري يدعى محمـد أبـو بشـير فقصده، وعرض عليه رجـل الأعمال توظيف بنات شـكري الثلاث في مصنع الخياطة مقابل 500 جنيه (50 دولار) كل شهر، أي أكثر مما يتقاضين في مصنع أكياس الخيش، فقبلت الفتيات بالوظيفة الجديدة بسرعة.

حوّل محمد شـقة صغيرة في الطابق الأرضي إلى مسـاحة عمل لموظفيه العشـرة، ووضع آلات خياطة صناعية كبيرة وألواح كيٍّ في غرف النوم. عملت سجى ونوارة على آلات الخياطة لصناعة التنانير والبيجامات، فيما استلمت دعاء مهمة الكيّ.

عملت الفتيات وحدهن في غرفة واحدة، وتحدثن ومزحن معاً أثناء العمل. قام صاحب العمل بجولات مراقبة عدة مرات في اليوم، ومدح دعاء غالباً على عملها. جعلها ذلك تشـعر بأنها مفيدة ومحط تقدير في عملها، رغم أن رواتب الفتيات لم تصل قط إلى 500 جنيه مصري؛ بسبب حسومات غامضة أجراها صاحب العمل.

ظلت دعاء تحنّ إلى سـوريا، لكن بعد مرور سـتة أشـهر، بدأت

تجـد مكانهـا فـي مصر تدريحياً، وتقبل بمصيـر عائلتها. صرن يجنين مالاً كافياً يغطي كلفة الإيجار، وبمسـاعدة قسـائم الطعام المقدمة من مفوضيـة الأمـم المتحـدة لشـؤون اللاجئين، صار من الممكن شـراء مكونـات الوجبـات التـي حضرتها هناء، كما تمّ أيضاً تسـديد الديون المتوجبة عليهم للسـوريين الذين سـاعدوهم فور وصولهم إلى مصر ببطء.

أدركـت دعـاء أنهـا كلما مكثت في مصر لوقت أطول، شـعرت أن أحلامهـا القديمـة تبتعـد عنها. فقبل الحـرب، أرادت الذهاب إلى الجامعـة فـي سـوريا، وكانت قد بقيت لديها سـنة واحـدة في الثانوية العامـة. ولكنهـا الآن لا تملـك أية وسـيلة لمتابعـة تعليمها في مصر. وأفضل ما يمكنها فعله هو حضور بعض الصفوف في مدرسة يديرها أساتذة سوريون بعد الظهر للتلاميذ اللاجئين.

حاولت دعاء مواساة نفسها من خلال تفكيرها في التقدم الذي أحرزته مع عائلتها في مصر. فصحيح أنهم لا يملكون الكثير، إلا أن وضعهم قد تحسـن، وبدأ التوتر الدائم الذي سـيطر عليهم في سـوريا يخـف. حمـودي الصغيـر الذي لم يكن يفارق هناء قط عند وصولهم إلـى جمصـة، بـات لديه أصدقاء، وصار ينام جيداً خلال الليل بعد أن اختفى أخيراً قلقه وتبددت وكوابيسه. لذا، قالت دعاء لنفسها إن كل ما تريده الآن هو السلام والسعادة وتأمين الطعام لعائلتها.

الفصل الخامس

حب في المنفى

بعد ستة أشهر على وضعهم كلاجئين، اعتادت عائلة الزامل على الحياة في مصر أكثر فأكثر. وجاءت الآن أخت دعاء، أسمى، وابنتاها الصغيرتان للعيش معهم. فقد تركت أسمى درعا وانضمت إلى عائلتها عندما ازدادت كثافة القصف، وتحوّلت منطقتهم إلى ساحة موت. لكن بالرغم من توسلات أسمى إلى زوجها للمغادرة معهن، أصرّ على البقاء هناك للقتال مع الجيش السوري الحر.

ازدادت أعداد السوريين الذين هربوا من وطنهم للبقاء على قيد الحياة، وإيجاد ملاذ في مصر، بما في ذلك دمياطة. في عطلات نهاية الأسبوع، عندما كانت عائلة الزامل تتنزه على الرصيف البحري، المعروف أيضاً بالكورنيش، تماماً مثل كل العائلات المصرية، كان المارة يلاحظون بوضوح أنهم غرباء، ولكنهم أدركوا أن الحرب هي التي جاءت بهم إلى هنا، وتم الترحيب بهم. وخلال تلك النزهات، كانت عيون عائلة الزامل تلتقي أحياناً عيون الآخرين، فيومئون لهم برؤوسهم كما لو أنهم يقولون لهم "نشعر بكم". وكان من السهل التعرف إلى النساء السوريات لأنهن يضعن الحجاب بطريقة مختلفة

عن النساء المصريات. لذا، كان الرجال المصريون يقولون لهن: "أهلاً بكن هنا!". وأحياناً كانوا يمازحونهن بالقول: "هل تتزوجينني؟".

مع تدفق الأخبار من سوريا، أدركت عائلة الزامل أنها ستبقى في مصر لوقت أطول مما اعتقدت أساساً. فقد أخبرهم أصدقاؤهم في درعا أن بعض جيرانهم قد قتلوا في الصراع، وأن منطقتهم التي كانت تضج سابقاً بالحياة باتت الآن مقفرة. وبعد فترة وجيزة من هروب أسمى من سوريا، تعرض منزلها لصاروخ، فيما تهدم المنزل المقابل. قلقت عائلة دعاء على الأصدقاء الذين تركوهم هناك، وأرسلوا لهم رسائل هاتفية يومية للتأكد من أنهم ما زالوا على قيد الحياة، فيما بحثت دعاء عن أخبار عن توقف العنف وعودة السلام لتتمكن من الرجوع إلى وطنها، ولكن عبثاً.

وفي أوائل شهر أيار، أي بعد ستة أشهر على وصولهم إلى مصر، حمل ميسم- قريب دعاء البالغ من العمر أربعة وعشرين عاماً- خبراً لهم. فقد وصل ميسم مع زوجته إلى مصر بعد شهرين من وصول عائلة الزامل، وعاش في شقة في الطابق العلوي. ذات يوم، جلس بالقرب من هناء يرتشف القهوة وأعلن بحماسة: "صديقي المفضل باسم سيأتي للعيش معنا. سوف تحبينه يا خالة هناء. لقد أحبه جميع من عرفه في درعا".

باسم في الثامنة والعشرين من عمره. وحتى اندلاع الحرب، كان يمتلك صالون حلاقة في وسط المدينة، اشتراه بمدخراته الخاصة. ولكن عندما بدأت الحرب في درعا وتوقف عمله، انضم إلى المعارضة، وبدأ يقاتل مع الجيش السوري الحر. وفي النهاية، تم إلقاء القبض عليه. وخلال الشهرين اللذين أمضاهما في السجن، تم

تعذيبه، وتكبيل يديه، وإجباره على النوم جالساً، وحرمانه من الماء. يعتقد ميسم أن "باسم" عانى الأسوأ، ولكنه رفض الإفصاح عن ذلك. وعندما تم إطلاق سراحه أخيراً، علم أن أخاه الذي كان يقاتل أيضاً مع الجيش السوري الحر قُتِل فيما كان يحمل هوية باسم في محفظته. ولهذا السبب، لم يعد باسم مجرد رجل ذي سوابق عدلية، وإنما صار شخصاً سجلته الحكومة في سجلاتها على أنه عدو قُتِل في المعارك. ومن دون هوية صالحة، استحال عليه عبور حواجز التفتيش المنتشرة في كل المدينة. ورغم أنه يخضع للمراقبة بعد خروجه من السجن، إلا أن حياته باتت الآن بخطر أكبر كلما غادر المنزل.

لذا، أقنع ميسم صديقه بمغادرة سوريا قبل أن يواجه مصير أخيه نفسه. وقال ميسم لهناء إن "باسم" سيصل خلال أيام قليلة.

بعد سبع ليالٍ، اتصل ميسم بهناء وطلب منها تحضير وجبة طعام، وقال لها: "اليوم عيد. لقد وصل صديقي باسم!". عندها، طلبت هناء من دعاء تسخين بعض بقايا الطعام وحملها إلى الأعلى لأن شفاء، زوجة ميسم، حامل بتوأم وتحتاج إلى المساعدة.

فعلت دعاء ما طلبته منها أمها، وحملت بعناية بعض أطباق الطعام الساخن إلى شقة ميسم وشفاء في الأعلى. فتحت شفاء الباب، وابتسمت لدعاء بامتنان عندما رأت أطباق الطعام، وقالت وهي تعانقها: "شكراً. واشكري أمك أيضاً. بالكاد أستطيع التحرك، وأعجز عن الطهو". قبّلت دعاء وجنة شفاء، وابتسمت لبطنها الكبير، ثم أومأت برأسها لقريبها ميسم، ولمحت الزائر الجديد.

عندما رأت دعاء "باسم" للمرة الأولى، لم تتأثر كثيراً. فالتواضع والتقاليد كانت تمنعها من النظر إلى رجل غريب مباشرة. لذا، عندما

دخلت الغرفة، أبقت عينيها منخفضتين، ووضعت بسرعة أطباق الطعام على شرشف وسط الأرض حيث وُضِعت الصحون. نجحت دعاء في النظر إلى الشاب بسرعة ووجدته مميزاً.

بعد دقائق قليلة، اعتذرت، وأخبرت "ميسم" وشفاع أنه عليها مساعدة أسمى وابنتيها في توضيب الأغراض لأنهن مسافرات إلى الأردن في اليوم التالي. إذ كان زوج أسمى لا يزال في سوريا، ولذلك قررن الاستقرار في إربد للتواجد بالقرب منه. عانقت دعاء شفاع وتركت الشقة، ونسيت بسرعة أمر صديق ميسم اللاجئ.

وفي صباح اليوم التالي، ساعد كل من شكري ودعاء وإخوتها أسمى على حمل الأكياس الثقيلة وإنزالها خمسة طوابق لوضعها في سيارة الأجرة التي ستُقل أسمى وابنتيها لمدة أربع ساعات للوصول إلى مطار الإسكندرية.

عند الوصول إلى المطار، نظر الموظفون إلى تذكرة أسمى، ولاحظوا أنها باتجاه واحد ولا تملك تأشيرة دخول، وأخبروها أن الطريقة الوحيدة للسماح لها بالمغادرة تقضي بشراء تذكرة عودة مقابل 500 دولار. عند سماعها هذا الخبر، انفجرت أسمى في البكاء؛ فهي لا تملك هذا المبلغ. وشرح شكري لموظف شركة الطيران أنهم لاجئون فقراء، وأن ابنته بحاجة إلى الانضمام إلى زوجها، وتوسل إليه قائلاً: "دعها تذهب وسندفع لك لاحقاً، أرجوك".

لان قلب موظف شركة الطيران عند سماعه ذلك وقال: "لديكما يومان لإحضار المال. سأغير تذكرة السفر شرط إحضار المال". أرسلت أسمى رسالة هاتفية إلى زوجها في سوريا لتبلغه بما حصل وتطلب منه تحويل المال، ثم عادت العائلة إلى المنزل مجدداً.

عنـد الوصـول إلـى الشـقة، حملت دعـاء وأخواتهـا الأغراض، وكافحـن للصعـود بهـا على السـلالم الطويلة والوصول إلى الشـقة. دخل باسـم بيت السـلم في الوقت نفسـه مع دعاء التي كانت الأخيرة في المجموعة، وفيما كانت ترفع حقيبة وتضعها على الدرجة التالية. كانـت تضـع حجاباً أحمر اللون، أحد تلـك المفضلة لديها، وترتدي فستاناً طويلاً فضفاضاً، وقد تورّد وجهها نتيجة التعب.

سـألها باسـم: "هـل أسـتطيع مسـاعدتك؟". فيمـا تمـدد لأخـذ الحقيبة. إلا أن دعاء تشبثت بالمقبض أكثر، ورفضت عرضه بتهذيب. باسـم الـذي صـدم لـدى رؤيته هذه المرأة النحيلـة مصممة على رفع حقيبة ثقيلة على السلالم حاول الإصرار، لكن ذلك جعل دعاء أكثر عنـاداً وإصـراراً على أنها تسـتطيع فعل ذلـك وحدها. قالت بتهذيب: "أستطيع تدبر أمري وحدي". لم تكن معتادة على التحدث إلى رجال لا تعرفهم، ولكنها افتخرت أيضاً بقدرتها على تدبر شؤونها وحدها، وكرهت فكرة أن يشـفق عليها أحد، وخصوصاً لأنها فتاة. لن تسـمح لرجل لا تعرفه أن يعتقد بأنها ضعيفة. استمرت في رفع الحقيبة بعناد، درجة وراء درجة، وصولاً إلى الشقة.

لم تفكر دعاء كثيراً في الحادثة، لكنّ "باسـم" ذهل مما حصل، وأسرع إلى شقة ميسم لاهثاً نتيجة صعوده السلالم، وبفعل الحماسة أيضاً، وسأل: "ما اسم قريبتك الجميلة صاحبة الحجاب الأحمر؟".

أجاب ميسم: "هذه دعاء. أخبرتك ليلة وصلتَ عندما أحضرت لنا الطعام. أو ربما كانت سجى، لقد نسيت".

"هل هي مخطوبة؟".

فابتسم ميسم ابتسامة عريضة، ثم فكر مرتين قبل أن يجيب: "لا.

ليستا مخطوبتين".

عندها، ابتسم باسم وقال: "جيد. أريدها أن تكون لي. ثمة شيء مميز فيها، لقد أسرتني تماماً".

هزّ ميسم كتفه، واعتقد أن صديقه أصبح رومنسياً يائساً، ولكنه فرح لرؤيته متحمساً لأمر ما. رأى ميسم أن نشوء علاقة بين باسم ودعاء سيكون جيداً له، فيما راقب "باسم" وهو يتحرك في الشقة بحماسة جديدة.

كان باسم رزيناً وكتوماً منذ وصوله إلى مصر. فلم يتحدث قط عما حصل معه في السجن، أو عن موت أخيه، بل أراد إبقاء تلك التجربة مدفونة وأراد متابعة حياته. وإذا كان التودد إلى دعاء سيساعده على تجاوز الأزمة، فسيقدم له ميسم المساعدة بكل طريقة ممكنة.

بعد أيام قليلة، حمل باسم وميسم الأغراض القليلة الموجودة في شقتهما للانتقال. إذ وجد ميسم وشفاع شقة للإيجار في مبنى آخر، في طابق منخفض؛ حيث سيكون الأمر أكثر سهولة بالنسبة إلى شفاع عند ولادة التوأمين. ودعيا "باسم" للانتقال معهما.

وبعد أن استقروا جميعاً في المنزل الجديد، دعوا عائلة الزامل لتناول الغداء عندهم. عندما فتح باسم الباب، لاحظت دعاء أنه ارتدى ملابس أنيقة للمناسبة، وكانت عبارة عن سروال رسمي وقميص مكوي جيداً. كما أرجع شعره الأسود إلى الخلف بواسطة الهلام، وبرزت لحية صغيرة مشذبة على ذقنه. ثبّت عينيه اللوزيتين الداكنتين على دعاء منذ دخولها الغرفة، وأبقى الحديث حيوياً أثناء تناول الطعام، ما جعل الضيوف يضحكون. أحست دعاء أنه ينظر إليها كثيراً، كما لو أنه يطلب موافقتها.

وفي طريق عودتهم إلى المنزل، استدارت دعاء صوب أختيها وسألتهما: "لماذا كان ينظر إلينا هكذا؟".

فأجابت سجى مبتسمة ابتسامة عريضة: "أعتقد أنه معجب بك!". وظنت دعاء أن سجى تملك مخيلة كبيرة، فكشرت في وجه أختها الصغيرة.

في اليوم التالي، جاء ميسم إلى منزل عائلة الزامل في زيارته الاعتيادية ظهر كل يوم. وفيما كانت دعاء تحضر الشاي في المطبخ، لحق بها ميسم، واتكأ على المجلى، وأمسك بقطعة بسكويت من طبق وقال لها: "هاي، أيتها الضفدعة، ما رأيك في باسم؟".

نظرت إليه دعاء باستغراب، فهي لم تفكر فيه قط.

تعجب ميسم من صمت دعاء، فقال لها: "دعاء! باسم مفتون بك تماماً. وهو يريد التقدم لخطبتك!".

عند سماعها ذلك، وضعت دعاء إبريق الشاي الذي كانت تملأه جانباً ونظرت إلى قريبها بصدمة. "ماذا؟ أبهذه السرعة؟ لقد رآني مرتين فقط!". في الثقافة العربية التقليدية، كانت الخطبة تتيح للشابين التواعد علناً، ليقررا بعد ذلك إذا كانا مستعدين للزواج أم لا. لكنّ دعاء لم تكن مكترثة لذلك.

"كانت تانك المرتان كافيتين لإقناعه بمشاعره تجاهك". بدأ ميسم يتحدث بالخير عن صديقه. "اسمعي يا دعاء. باسم عامل جدي، وقد كان ناجحاً جداً في الوطن. لديه بعض المدخرات، وسوف يحصل على عمل جيد هنا حتماً".

غير أن دعاء هزت رأسها وقالت: "لا يعرف باسم أي شيء عني. وعلى أية حال، لست مهتمة. من فضلك، أبلغه بكلامي هذا بتهذيب".

وظنت أن الأمر قد انتهى هنا. لكن دعاء انزعجت في أعماقها من ميسم، إذ اعتبرت أنه هو الذي شجع باسم على الخطوبة السريعة، وأحست أنها جزء من مخطط حبكه قريبها، فلم تتحدث إليه طوال أسبوع كامل بعد تلك المناقشة.

عاد ميسم إلى منزله، وأخبر صديقه بما حصل مقترحاً عليه برفق ضرورة البحث عن فتاة أخرى. إذ تملك دعاء مبادئها الخاصة، وقد أوضحت له جلياً أنها غير مهتمة. إلا أن "باسم" لم يتقبل الرفض. فبحسب جميع الذين يعرفونه، تنبع تصرفاته من قلبه مباشرة. فقد كان عاطفياً كثيراً، سواء أكان ذلك في القتال في بلده أو في الوقوع في الغرام، ولكنه أيضاً حريص جداً على حماية الأشخاص الذين يهتم لأمرهم. وفي اللحظة التي رأى فيها دعاء، أراد الاهتمام بها. فقد وصل إلى مصر وحيداً وحزيناً، وكانت دعاء أول بصيص ضوء في عتمة حياته كلاجئ. لقد رأى فيها أملاً للمستقبل، واقتنع فوراً أنها الشخص الوحيد الذي يستطيع إسعاده. وهذا الشعور لم يراوده مطلقاً حيال أية فتاة من قبل. غير أنه ارتبك أيضاً من رفضها له؛ فدعاء أول فتاة ترفضه. وفي الماضي، لطالما توددت الفتيات إليه. في ذلك اليوم، غادر باسم شقة ميسم غاضباً جداً.

وخلال الأيام القليلة التالية، لم يكن بإمكان باسم فعل أي شيء سوى الجلوس في الشقة والشعور بالاكتئاب. بذل ميسم وشفاع ما بوسعهما لمواساته، وألحّا عليه للتحلي بالصبر، وقالا له إنه لا يجب أن يتوقع من فتاة التقاها للتو أن تقبل به على الفور. لكن "ميسم" رأى فعلاً أن دعاء و"باسم" يشكلان ثنائياً جيداً، ولذلك عرض التحدث إلى هناء نيابة عن باسم. فلا شك في أنها تستطيع إقناع ابنتها.

تفاجأت هناء بالخبر أولاً، ثم أكدت لميسم مجدداً أن ابنتها غير مهتمة في الزواج من أي كان. إلا أن هناء وعدت بالتحدث إلى دعاء بخصوص باسم. وعندما تطرقت هناء إلى الموضوع، انزعجت دعاء من ذلك وقالت لها: "أخبرت "ميسم" سابقاً أنني غير مهتمة بصديقه يا ماما. وأنا لست مهتمة بالزواج أصلاً!". إذ كانت هناك أمور أخرى تشغل بال دعاء. فهي تعمل لساعات طويلة لإعالة العائلة، فيما تنشغل في بقية الأوقات في مراسلة صديقاتها في سوريا للاطلاع على آخر ما يجري هناك. ولديها أيضاً أحلامها الخاصة بالمستقبل التي تأمل أن تحققها ذات يوم.

"كيف يمكنني أن أخطب يا ماما؟! أنا لم أترك بلدي من أجل الزواج من دون إنهاء دراستي".

"طبعاً حبيبتي. أفهمك وأؤيدك". وعانقت هناء ابنتها دعاء.

ارتاحت دعاء لوقوف أمها إلى جانبها، واعتبرت المسألة منتهية. إذ لم يكن باسم أول شخص يتقدم لها، كما أنها لا تعتقد أنه جدي بشأنها على أية حال. والرجال الآخرون الذين تقدموا لها سابقاً لم يكونوا جديين أيضاً. وقد استسلموا جميعاً ما إن قالت لا. لذا، عادت إلى عملها في مصنع الخياطة وتناست الموضوع.

غير أن "باسم" لم يستسلم، بل باشر في إعداد خطة عوضاً عن ذلك. وقد أقنع "ميسم" بإعطائه رقم هاتف هناء كي يتحدث إليها مباشرة. وحين اتصل باسم بهناء للمرة الأولى، شرح لها أنه أراد فقط الحصول على رقمها في حال احتاجت إلى أي شيء. وبعد ذلك، راح يتصل بها يومياً، ويسألها أحياناً عن دعاء، فيما يستفسر أحياناً أخرى عن العائلة فقط. استلطفت هناء "باسم"، وكلما تعرفت إليه أكثر ازداد

تعاطفها معه. فقد كان ذكياً وقوياً ومتفانياً، وذا قلب طيب؛ تماماً مثل دعاء. بعد ذلك، بدأت هناء تعتقد أنه الشريك المثالي لابنتها العنيدة. وكانت تعرف جيداً أن دعاء عنيدة جداً ويصعب عليها الوثوق في الأشخاص بسهولة. فحين كانت دعاء صغيرة، منعها عنادها وخوفها من عقد صداقات جديدة. وتخشى هناء الآن أن يمنعها ذلك من الوقوع في الحب.

بعد ثلاثة أشهر من لقاء باسم ودعاء للمرة الأولى، قال باسم لهناء: "رأيت دعاء تعود من العمل إلى المنزل، وبدت مرهقة. أرجوك أقنعيها بالتوقف عن العمل، وسأعطيك المبلغ الذي تكسبه من عملها".

سمعت هناء سابقاً عن كرم باسم مع السوريين الآخرين؛ إذ كان يدفع لهم نفقاتهم ويشتري لهم الأغراض التي يحتاجون إليها. ففي مجتمع اللاجئين، يهتم الجميع ببعضهم بعضاً. تأثّرت هناء بعرض باسم لمساعدة العائلة ودعاء، ولكن دعاء غضبت كثيراً عندما اكتشفت الأمر. إذ كانت تكره أن يظن أحد أنها ضعيفة. فمن الضروري بالنسبة إليها أن يعرف الأشخاص أنها تستطيع الاهتمام بنفسها وبعائلتها، ولا تحتاج إلى مساعدة أحد. وعندما أخبرتها هناء بعرض باسم، غضبت دعاء كثيراً؛ رغم علمها بأنها أكثر من مرهقة. إذ باتت تعاني من الدوار كل يوم تقريباً، وصار يغمى عليها بين الحين والآخر، كما وجدت صعوبة في تناول الطعام بعد يوم عمل طويل. لكن رغم كل ذلك، لم تكن لديها أي نية في قبول الشفقة. وجعلها عرض باسم أكثر عزماً على متابعة عملها.

أصرّت: "أنا بخير". وحاولت تجاهل نوبات الإغماء، والدوار

المستمر، والاكتئاب الذي بدأ يتسلل إليها.

بدا أن جميع من في جمصة عرفوا أن "باسم" مغرم بدعاء، وأنها رفضته. وأصبح معروفاً في المنطقة باسم روميو باسم. استلطفت أختا دعاء "باسم" وتحيزتا له، وحاولتا إقناع دعاء بتبديل رأيها والقبول به. حتى إن صاحب المصنع حيث تعمل دعاء قاطعها أثناء عملها ذات يوم وسألها: "لماذا لا تريدين الزواج من باسم؟". وقد جعل ذلك كله دعاء أكثر إصراراً على رفضه؛ إذ كانت تكره أن يخبرها أحد بما يجب عليها القيام به.

لذا قالت لعائلتها: "لا أستطيع أن أحبه. وعلى أية حال، لا أريد الزواج خارج سوريا".

قلقت هناء بسبب رفض دعاء القوي لباسم، وخشيت أن يكون تعب دعاء واكتئابها وراء رفضها لأي احتمال للحصول على الحب أو السعادة. فقد أصبحت ابنة هناء، المليئة بالحيوية سابقاً، حزينة وجدية على الدوام. وعرفت هناء أنه لا يمكنها أبداً إجبار دعاء على فعل أي شيء، غير أنها أحست بالمسؤولية، وأرادت كسر قيود ابنتها العنيدة في هذا الموضوع. إذ باتت هناء تعرف "باسم" جيداً بفضل اتصالاته الهاتفية وجولاته في المنطقة، ووثقت في صراحته، وبدأت تنزعج من عناد دعاء.

فقالت لها: "إنه سوري. وهو شخص لطيف ويريد مساعدتك. أرجوك افتحي له قلبك".

أحست دعاء أن الجميع متآمر ضدها. ولم تفهم لمَ يجدر بها قبول عرض باسم لمجرد أن الآخرين يظنون ذلك. وعندما اكتشفت أنه وجد شقة جميلة في الطابق الأرضي من المبنى الذي يسكن فيه

لتنتقل إليها عائلتها، أحست أن كل ذلك جزء من مؤامرة كبيرة للقبول به. غير أنها استمرت في رفضه وعيش أفضل حياة ممكنة وحدها في مصر. لكن الحياة كانت على وشك أن تصبح أكثر قساوة.

لم تنتبه دعاء وعائلتها إلى الأخبار المصرية لأنهم كانوا منهمكين جداً في مشاهدة الرعب اليومي المتمثل في دمار بلدهم. لكن في 30 حزيران 2013، بمناسبة مرور العام الأول على تولي الرئيس مرسي السلطة، حصلت تظاهرات كبيرة في القاهرة والإسكندرية ضد حكمه، ووصلت إلى مستوى لا يمكن تجاهله. فالحرمان المتزايد، والتحرر من وهم الحكومة دفعا ملايين الأشخاص للنزول إلى الشارع، والقول إن الثورة التي أطاحت بالرئيس مبارك قبل عامين باتت الآن فاشلة. فقد تدهورت معايير العيش، وأصبح السياسيون العلمانيون غرباء عن حكومتهم، فيما انطوت مسوّدة الدستور التي أعدها مرسي على آراء إسلامية أقلقت معظم الشعب. قلق المصريون من احتمال حصول أعمال العنف في بلدهم تماماً كما حصل في سوريا. واستمرت التظاهرات في مصر طوال أربعة أيام. وفي 3 تموز 2013، أي بعد ثمانية أشهر على وصول عائلة الزامل إلى دمياطة، قام الجيش بانقلاب ضد مرسي، وتولى اللواء عبد الفتاح السيسي الإشراف على المجموعة التي أطاحت بمرسي. وبين ليلة وضحاها، تبدلت المواقف حيال اللاجئين السوريين، وتم شملهم بالموجة نفسها التي أطاحت بمرسي والإخوان المسلمين. وبما أن مرسي رحب باللاجئين السوريين، اعتقد الناس أنهم جزء من حركته، وأنهم داعمون له.

لم يكن بوسع عائلة دعاء فعل أي شيء سوى المراقبة،

فيما بدأت نشرات الأخبار المصرية تصف السوريين بالإرهابيين المحتملين المتحالفين مع المتطرفين الذين ينشأون في سوريا. وإذا لم يكونوا إرهابيين، فقد تم اعتبارهم بمثابة داعمين لمرسي. وسرت إشاعات مفادها أن الإخوان المسلمين دفعوا للاجئين السوريين للانضمام إلى التظاهرات الداعمة لمرسي. ووجّه يوسف الحسيني، وهو مقدم برامج تلفزيونية مشهور، رسالة إلى السوريين: "إذا كنت رجلاً، عليك العودة إلى بلدك وحلّ مشكلتك هناك. وإذا تدخلت في الشؤون المصرية، فسيتم ضربك بثلاثين حذاء". وفي ثقافة الشرق الأوسط، يعتبر ضرب الشخص بالحذاء بمثابة أمر مهين، وكان هذا الأمر مهيناً ومخيفاً للسوريين. وهكذا، انتهت سياسة الأبواب المفتوحة في مصر عند الإعلان عن حاجة أي سوري يريد دخول البلد إلى تأشيرة دخول، فيما سيتم توقيف السوريين الموجودين أصلاً في مصر والذين لا يملكون أوراق إقامة شرعية، وربما سيتم ترحيلهم.

في تلك الفترة، تبدل الجو حيال السوريين في مصر بشكل جذري. ولم يعد السوريون يحظون بالتحيات المرحبة في الشوارع، بل حلّت مكانها النظرات الباردة. أما المساعدات التي اعتادوا على تلقيها من جمعية الإخوان المسلمين فقد توقفت. وعوضاً عن ذلك، أخبرهم السكان المحليون في الشوارع أنهم يدمرون البلد.

عندها، بدأت الفتيات يتعرضن للمضايقات كلما غادرن المنزل. وذات يوم، كانت دعاء متوجهة إلى السوبرماركت مع أمها عندما أبطأ رجل يقود دراجة نارية سرعته واقترب منهما. ثم انحنى فوقهما، وكاد يلمس دعاء وهو يقول: "هاي أيتها الفتاة! هل تقبلين الزواج بي؟".

ثـم قـال لهناء: "هل تسـمحين لي بالـزاوج منها؟ إنها جميلة جداً". ثم نظر إلى دعاء من أعلى رأسها وحتى أخمص قدميها مصدراً أصوات قبـلات. اسـتطاعت دعـاء شـم الرائحـة الكريهـة المنبعثة من أنفاسـه ونفـرت منـه، وشـعرت بالاشـمئزاز والخـوف. دار الرجـل حولهمـا مرتين على دراجته النارية ثم ابتعد، ضاحكاً من خوفهما. كانت دعاء وعائلتها قد سمعوا أن التحرش الجنسي بات شائعاً في مصر، ولكن الفتيات لم يختبرنه من قبل قط. ويبدو الآن أن التحرش موجه أساساً ضد النساء السوريات. فجأة، لم تعد دعاء وأختاها يشعرن بالأمان في منطقتهن. وما كان سـابقاً ملاذ أمان تحول إلى مكان تهديد بالنسـبة إلى دعاء وعائلتها.

فـي غضـون ذلـك، بـات باسـم يائسـاً نتيجة حبه لدعـاء. وذات يوم، جاء أحد رفاقه إلى منزل عائلة الزامل لإخبار هناء بأنه يعتقد أن "باسـم" سـيقتل نفسـه إذا لم يسـتطع الزواج من دعاء، وأنه رأى قنينة سم في غرفة باسم. وعندما ذهبت هناء للتحقق من أمره، لم ينظر إلى عينيها أمام الباب. وكان قد أصبح شاحباً ونحيلاً، فدفعته هناء جانباً، ودخلت غرفته، ووجدت قنينة من سم الفئران.

عندها، شعرت بالغضب ووبخته: "لا يمكنك فعل ذلك بنفسك". ولوّحت بالقنينة أمام وجهه قائلة: "لا يمكن أن يكون الرجال هكذا".

فنظر إلى الأرض بخجل، وأخبرها أنه لا يريد العيش إذا لم يكن بوسـعه الزواج من دعاء. "سـأعود إلى سـوريا للقتال إذا لم تقبل بي. فما من شيء لي هنا".

أدركت هناء أنه سـيفعل ذلك حقاً، وذلك بسـبب ثقته وهدوئه لدى إخبارها بالأمر. وكان باسـم قد أصبح بمثابة ابن بالنسـبة إليها،

ولم تتحمل فكرة موته في الحرب. لذا حاولت تشجيعه على التحلي بالصبر: "كن صبوراً! فقد تبدل رأيها، لكن عليك التحلي بالقوة خلال هذا الوقت".

أخذت هناء قنينة سم الجرذان معها عندما غادرت، ووعدته بالعودة إليه، ثم رمت القنينة بعيداً.

وعندما عادت هناء إلى المنزل تلك الليلة، جلست مع دعاء في غرفة الجلوس، ووصفت لها كيف أن "باسم" مستعد للتضحية من أجل إقناعها بحبه، بما في ذلك قتله نفسه. وأمسكت بيدَي دعاء الباردتين بين يديها؛ إذ تصبح يدا دعاء باردتين جداً حين تشعر بالإرهاق أو حين تكد في العمل، وقالت لها: "عندما يذلّ الرجل نفسه من أجل امرأة، فهذا يعني أنه يحبها فعلاً. هل فكرت على الأقل في قبول اقتراحه؟".

أحست دعاء بالذنب عند سماعها أخبار يأس باسم. فهي لا تريده أن يكون تعيساً، ولكنها في الوقت نفسه لا تحب أيضاً الضغط الذي تفرضه تصرفاته عليها، لذا قالت لأمها: "لا أستحق ذلك، ولا أريد حبه". سمعت سجى ذلك، فتدخلت قائلة: "أتمنى لو أن أحداً ما يفعل ذلك لأجلي. لا بد أنه يحبك فعلاً". لكن دعاء تجاهلت كلام أختها؛ ورفضت أن يتم الضغط عليها لقبول أي رجل.

وفي اليوم التالي، عندما غادرت دعاء الشقة، تفاجأت لدى رؤيتها "باسم" مرتدياً بذلة جديدة، وشعره ممشط جيداً، وتفوح منه رائحة عطر ما بعد الحلاقة. قال لها: "دعاء، أعرف أن ما فعلته خطأ. فأنت لا تستحقين هذا النوع من الضغط. أرجوك سامحيني".

في تلك اللحظة، بدأت دعاء تلين تجاه باسم، وتساءلت عما إذا كان عنادها وحده ما منعها من استلطافه. وفيما قبلت اعتذاره، وجدت

نفسها معقودة اللسان وخجولة مثل فتاة صغيرة. وكل ما استطاعت قوله كان: "شكراً على قدومك".

بعد أيام قليلة، في ليلة من ليالي شهر تموز، أحست دعاء فجأة بالإغماء، ولم تعرف سوى أن قدميها ارتفعتا عن الأرض فيما ارتطم رأسها بالأرض. في البداية، لم تعرف أنه عندما وجدتها هناء مغمى عليها في المنزل بمفردها، فإن "باسم" كان أول شخص فكرت في الاتصال به. فطلب منها أخذها إلى مستشفى خاص، وقال لها: "تجنبي المستشفيات الحكومية بأي ثمن. سأدفع كل التكاليف". إذ تشتهر المستشفيات الحكومية برعايتها المريعة، لا بل بعدم توفيرها أية رعاية أحياناً. وقد ينتظر المرضى لساعات طويلة من دون أن يراهم أحد. وهكذا، قامت هناء وأختها فريال التي كانت تزورهم في ذلك الوقت، بنقل دعاء التي كانت فاقدة وعيها إلى سيارة أجرة، ومنها إلى مستشفى خاص. وصل باسم بعدهن مباشرة، وشق طريقه بسرعة إلى الداخل، وأخبر موظفي المستشفى أنه من العائلة، ووجد أخيراً غرفتها، وعلى الفور تحمل المسؤولية. إذ وجد صيدلية، واشترى الدواء الذي تحتاج إليه دعاء. أخبر الطبيب العائلة أن صحة دعاء حرجة؛ إذ كانت نحيلة وضعيفة جداً ومنهكة، حيث يمكن أن تكون عرضة للعديد من الأمراض الخطيرة. وعندما أخبر العائلة أنها تحتاج إلى الراحة والعناية، وأنه يجب مراقبة صحتها عن كثب، أصرّ باسم على أنه مستعد لفعل أي شيء ضروري للاهتمام بدعاء.

وقال لأمها: "سأدفع الكلفة كي تقصد دعاء أفضل الأطباء في الإسكندرية، أو حتى في مصر. سأستخدم مدخراتي للتأكد من أنها بخير".

ثمة شيء تبدل في دعاء عندما استيقظت وسمعت من أمها بما فعله باسم من أجلها. كما سمعت من أختيها أنه كان يذرع غرفة الانتظار ذهاباً وإياباً متوتراً، ويطرح الكثير من الأسئلة القلقة في انتظار الحصول على تشخيصها. عندها، استلقت دعاء على سرير المستشفى مفكرة في الرجل الشاب المستعد لفعل الكثير من أجلها. فقد نجح تفانيه في إقناع دعاء بأن عاطفته صادقة تجاهها. وكانت قد اعتادت على أن تكون من يهتم بالآخرين، وليس أن تكون محط اهتمامهم. وبدأ إحساس جديد يتحرك داخلها، شيء لم تشعر به من قبل قط. وللمرة الأولى منذ اضطرارها إلى الهروب من بلدها، شعرت أن قلبها بدأ يفتح مجدداً. لكنّ ما شعرت به ليس مجرد تعاطف. أهو استلطاف ربما؟ أهو امتنان؟ لا يمكن أن يكون حباً. إنها واثقة من ذلك.

يوم خرجت دعاء من المستشفى، وبعد ساعة تقريباً على وصولها إلى المنزل، رنّ هاتف هناء، وكان باسم هو المتصل، وطلب التحدث إلى دعاء. تفاجأت دعاء نفسها من كيفية أخذها الهاتف بلهفة من أمها ووضعه على أذنها. قالت بخجل: "أريد فقط أن أقول لك شكراً". ثم أعادت الهاتف إلى أمها.

بعد فترة قصيرة، عادت دعاء إلى العمل بالرغم من تحذيرات الطبيب. إذ شعرت أنها مسؤولة عن الاهتمام بعائلتها وأرادت المساهمة. لقد شعرت بالأمان مع مديرها السوري، ولكنها تأثرت كثيراً بالموقف الجديد المناهض للسوريين في مصر. إذ راح والدها يخسر الزبائن في صالون الحلاقة الذي بدأ يعمل فيه. ومع هذا التوتر الإضافي، باتت تشعر باللامبالاة، حيث صارت تنام كثيراً، وحين تستيقظ كانت تحدق إلى الفضاء وتفكر في معاناتها التي تضاعفت.

لقد عانوا من الحرب في سوريا، وها هو الشعب المصري يرفضهم الآن. ذات ليلة، فيما كانت عاجزة عن النوم، راقبت أفراد عائلتها النائمين، وأحست بالكثير من القلق واليأس. ما من مستقبل لنا، قالت لنفسها. مهما عملت بكدّ، لن تتمكن من تأمين مستقبل عائلتها. أحست بثقل العالم على كتفيها، ما أبقاها مستيقظة طوال الليل.

ذات يوم، أغمي عليها في العمل، وعندما استيقظت في مستشفى حكومي، أبلغها الطبيب أنها تعاني من فقر دم قوي، وأن عليها البقاء في المنزل لمدة شهر على الأقل، وتناول الطعام جيداً، والاسترخاء.

وعلى مضض، أخذت دعاء إجازة من العمل للالتزام بأوامر الطبيب، ولكنها لم تملك أية شهية خلال ذلك الوقت. ولم يهمها أن تستعيد عافيتها مجدداً. استطاعت من شرفتها أن ترى "باسم" لدى توجهه إلى العمل في صالون الحلاقة كل صباح ليعود في المساء. وأخبرتها أختاها أنه يعطيهما هدايا صغيرة كلما رآهما في الشارع، ويسألهما عن دعاء. بدا لها الآن أن كل عائلتها صارت متحيزة لباسم.

وفيما عرفت جميع النساء في المنزل، والعديد من الجيران، بشعور باسم حيال دعاء، بقي شكري غافلاً نوعاً ما عن الموضوع. فقد أخفت هناء والفتيات الخبر عنه، ولكنه يعرف "باسم" جيداً، وذكر غالباً كم يستلطفه. باتت هناء متململة من دعاء وقلقة أيضاً. لم تخبر دعاء عن نية باسم في العودة إلى سوريا للقتال، ولكنها اغتاظت من ذلك، وزادت الضغط على دعاء للقبول به. أخبرت دعاء أن صحتها الضعيفة ناجمة ربما عن عنادها، وأن "باسم" يستطيع منحها السعادة والاهتمام بها. وتوسلت إليها هناء للتفكير في الخطوبة مجدداً، وفتح قلبها، والصلاة إذا كان هذا يساعدها، ومن ثم اتخاذ قرار نهائي.

صلّت دعاء طلباً للمساعدة. فقد عرفت أن أمها تريد الأفضل لها، ولم تفهم تماماً السبب الذي يجعل فكرة القبول بباسم تزعجها كثيراً. طلبت من الله أن يهديها إلى الطريق الواجب أن تسلكه، وصلّت ليلة تلو ليلة.

ذات ليلة، نادت هناء ابنتها دعاء لتجلس قربها. بدت مضطربة ومنهكة على غير عادتها، وسألتها بصراحة: "لماذا لا تحبين باسم؟ إنه رجل رائع ويدعمنا". عرفت دعاء أن أمها محقة، غير أنها لا تستطيع منحها جواباً جيداً. وعوضاً عن ذلك، نظرت بعيداً وهي محرجة. عندها، أمسكت هناء بذقن دعاء وأجبرتها على النظر إلى عينيها، وقالت بإلحاح: "يكفي هذا". لم تفهم دعاء ما قصدته، ولكنها عرفت أن شيئاً ما يوتّر أمها.

بعد ساعات قليلة، صلّت دعاء قبل أن تستعد للخلود إلى النوم، ثم نادت أمها في الغرفة المجاورة لتتمنى لها ليلة سعيدة. لكنها لم تتلقَّ سوى الصمت، فنادت مجدداً. كانت أمها تجيبها دوماً، ولكن ليس هذه المرة. سيطر الخوف والرعب على دعاء، فوقفت بسرعة على قدميها، وركضت إلى غرفة والديها حافية القدمين على الأرض القاسية. وجدت أمها جالسة وكأنه مغمي عليها، وهي تضع يدها فوق عينيها وترتجف بقوة وتتنفس بصعوبة. عندها، أيقظت دعاء والدها، وحملا معاً هناء إلى خارج باب الشقة لإيجاد سيارة أجرة، فيما تأوهت هناء بهدوء عاجزة عن الوقوف.

في ذلك الوقت، كان باسم جالساً على شرفته يدخن سيجارة. وعندما لاحظ العائلة، صرخ لهم، وسألهم عما بهم.

فأجابته دعاء وهي تبكي خوفاً على أمها: "ليست بخير إطلاقاً.

بالكاد هي واعية! سـنأخذها إلى المستشـفى". أحسـت دعاء بالحنان هنيهـة عندمـا رأت القلـق في عينَي باسـم فيما ركبوا في سـيارة أجرة وانطلقوا بعيداً.

فحـص الطبيـب هناء، وأخبر العائلة أنها تعاني من إرهاق عقلي وجسـدي، وأنهـا تحتـاج إلى الراحة، ويتوجب علـى العائلة الاهتمام بهـا. وقـال لهـم إن مثـل هـذه الحالة ليسـت مسـتغربة بيـن المرضى اللاجئيـن، بعـد كل مـا عانوه في سـوريا ويعانون منـه الآن في مصر. وحذرهم قائلاً: "يجب ألا تتلقى أبداً أي أخبار سـيئة. فقد لا تتمكن من تحملها". أحست دعاء أن الطبيب يحدق إليها مباشرة عندما قال ذلك، وأن مرض أمها مرتبط نوعاً ما برفضها لباسم وبقلق أمها عليها.

كان الفجـر قـد انبلـج عندمـا عادوا إلى المنزل تلـك الليلة. رنّ هاتف هناء ما إن وصلوا تقريباً، ولاحظت دعاء أن اسـم باسـم ظهر على الشاشة، فأجابت على الاتصال.

قـال: "أنـا آسـف. لكنني أعتقـد أنني أعرف سـبب مرض أمك. نحن السبب!".

تفاجأت دعاء لأنه مثلها توصل إلى الاسـتنتاج نفسـه، فأجابت بصوت خافت: "نعم". ولم تكن تتحمل أن تكون السـبب في مرض أمها. "إنها غلطتنا".

وقبل أن تتفوه بالمزيد، قال لها: "دعاء، أريد أن أقول لك شـيئاً أخبرته لأمك فقط. قررت العودة إلى سوريا للقتال مع المعارضة. إذا متّ، فأنا أعلم أنك سـتكونين من نصيبي في الجنة لأنني لم أحصل عليك في هذه الحياة. لكنني لن أغادر الآن. سأنتظر إلى أن تتحسسن صحة أمك وأودعها، سأغادر بعد أيام قليلة".

ذهلت دعاء حين سمعت هذا الخبر، وفهمت سبب غضب أمها الشديد. إذ باتت هناء تهتم كثيراً لأمر باسم، وتحبه مثل ابنها. لذا قالت لباسم: "أنا الآن واثقة من أننا سبب مرضها!". وأحست فجأة أنها تتحدث مع صديق حميم. "السبب هو انزعاجها الكبير لمعرفتها بقرار عودتك إلى سوريا. لهذا السبب، باتت غاضبة مني جداً في الآونة الأخيرة". وقفت دعاء عند باب غرفة أمها، وراقبت صدر هناء وهو يتحرك صعوداً ونزولاً أثناء نومها، ثم اتكأت على الحائط خارج غرفة نوم والديها، وحملت الهاتف بالقرب من أذنها. أدركت أنها لا تريد أن يُنهي باسم الاتصال، وكرهت فكرة ألا تتمكن من التحدث إليه إذا غادر مصر.

عندها، لان صوت باسم وهو يسألها بتفاؤل: "دعاء، هل تظنين أنه يمكنك تغيير رأيك؟ حاولي التفكير في الأمر مجدداً، وإنما بسرعة. فأنا سأغادر خلال أيام قليلة؛ يوم الخميس على الأكثر. إذ لا أستطيع تحمل البقاء هنا أكثر من ذلك". كان يوم الخميس بعد ثلاثة أيام فقط. فكّرت دعاء في مقدار اهتمامه بها وبعائلتها. وكانت تدرك أن مقاتلي الجيش السوري الحر يموتون كل يوم، وإذا غادر فقد يموت أيضاً.

"أعطني بعض الوقت وسأعاود الاتصال بك". قالت له دعاء ذلك فيما انهمرت الدموع على وجهها. وعندما أنهيا المكالمة، لم تكن دعاء واثقة مما إذا كان قد سمعها تبكي.

فكرت دعاء في قرارها ملياً. هل سيعود باسم إلى سوريا فعلاً؟ هل يمكن أن يموت بسببها؟ ثمة جزء منها كان معجباً به لتحليه بالشجاعة الكافية للعودة إلى سوريا والانضمام إلى القتال. ألم تتخيل نفسها تفعل الشيء نفسه؟

انتشر سريعاً خبر مغادرة باسم الوشيكة، وتهامس الناس بين بعضهم أنه مغادر لأنه لم يتحمل ألم قلبه المكسور.

خلال الأيام القليلة التالية، لم تكف دعاء عن التفكير به. فهي لا تريده أن يموت بسببها. وبعد يومين من اتصالهما الهاتفي، كانت دعاء تسير في شقتها بتوتر، وفكرت في عينَي باسم البنيتين واللطيفتين، وكم يهتم بها وبعائلتها. فجأة، أدركت أنه لا يجدر بها ربما فعل كل شيء وحدها. فقد دعم أبوها وأمها بعضهما بعضاً، وأصبحا أكثر قوة بسبب ذلك. واعترفت لنفسها أنها لا تتحمل فكرة عدم وجود باسم في الجوار. فسوف تصبح منطقة جمصة تافهة من دونه.

عندها، رفعت دعاء هاتفها الخلوي واتصلت بباسم.

قال لها: "سررت لسماع صوتك يا دعاء". ثم سألها بقلق: "هل فكرت في الأمر؟".

من دون استعداد مسبق، خرجت الكلمات من فمها تلقائياً: "كيف تقول إنك تحبني ولكنك تريد تركي والذهاب إلى سوريا؟".

فأجاب باسم بسرعة أيضاً: "لأنني أحترق بسبب حبي لك، ولا أتحمل رؤيتك من دون وجودك في حياتي. أفضل أن أصبح شهيداً في سوريا، فالألم الذي أشعر به بسبب عدم الحصول عليك لا يحتمل".

بدا لها وكأن صوتها ينتمي إلى شخص آخر، إذ سمعت نفسها تقول: "حسناً، فكرت في الأمر كثيراً. وإذا كنت لا تزال مهتماً، يمكنك الذهاب وطلب يدي من والدي". وما إن لفظت هذه الكلمات حتى أدركت أنها كانت تتحدث من قلبها. فخوفها من الوثوق في شخص ما لا يمكن مقارنته أبداً بخوفها من خسارة الرجل الذي قد يكون حب حياتها.

تفاجأ باسم من جواب دعاء وسألها: "هل أنت واثقة من ذلك؟".

"نعم".

فصرخ فرحاً: "حسناً، سأنهي المكالمة الآن، وسأذهب إلى صالون والدك على الفور وأطلب يدك! بعد ذلك، سآتي إليكم!".

فضحكت دعاء وقالت: "لا أيها السخيف. لا يمكنك الذهاب الآن. لقد تأخر الوقت. اذهب غداً".

وبعد مرور وقت على إنهاء الاتصال، كان الهاتف لا يزال في يدها، فيما فكرت في احتمال الحياة الجديدة التي تنتظرها.

الفصل السادس

الخطوبة

في اليوم التالي، رفع شكري رأسه فيما كان يكنس الأرض بعد مغادرة زبون، فرأى "باسم" يدخل صالون الحلاقة ومعه مجموعة من الأصدقاء. كان باسم يرتدي بذلة مرتبة ومكوية حديثاً، وشعره ممشط جيداً، ولحيته مشذبة بترتيب.

ابتسم شكري ورحب بهم، وعرض على الشباب الجلوس، ولكنهم جميعاً آثروا الوقوف فيما حرّك باسم قدميه بعصبية.

وأخيراً قال: "جئت إلى هنا لأبلغك أنني أريد الزواج من دعاء، وأنا هنا لأطلب موافقتك".

لم يصدق شكري ما سمعه، وقال له: "باسم، أنا أحبك كثيراً. ولكن دعاء لا تريد الزواج". وهزّ رأسه ثم تابع كنس الأرض.

ارتبك باسم، ولم يعرف كيف يجيب على رفض شكري. وبعد مرور بعض اللحظات الغريبة، تحدث أحد أصدقائه نيابة عنه. "باسم جِدّي يا سيدي. إنه مغرم بدعاء منذ ثلاثة أشهر".

ظن شكري أنه يعرف ابنته جيداً حيث يدرك تماماً ما سيكون عليه جوابها، فتوقف عن عمله وأجابه بقناعة: "اسمع، ما من شيء

شـخصي لدي ضدك، ولكنني واثق من أن دعاء غير مهتمة أبداً بهذا الأمر".

عندها تمتم باسـم: "ولكنها وافقت! صحيح أنها لم تقبل خلال فترة معينة، غير أنها بدّلت رأيها الآن".

أشـرق وجه شـكري عند سـماعه ذلك، ولم يصدق الأمر، إذ لم يتخيل زوجاً لدعاء أفضل من هذا الشـاب الجدي والحنون. وفجأة، شـعر بالتفاؤل، وتطلع للاحتفال، فابتسـم لباسـم وقال: "حسـناً، إذا أرادت دعاء ذلك فأنا موافق حتماً".

عندها، تحمس باسم واتصل بدعاء فوراً لنقل الخبر إليها. حدّدا موعداً للخطوبة بعد أيام قليلة، في 28 آب 2013، على أن يقيما حفلة في 1 أيلول.

زار باسـم العائلـة كل يـوم بعـد العمـل، وأحضـر معـه الهدايـا الصغيرة، وكان يبقى بعد العشاء للجلوس قرب دعاء والتهامس معها. وخلال اسـتراحات العمل، كان يتصل بدعاء، أو يُرسـل لها الرسـائل النصية مع الوجوه التعبيرية وقصائد شعرائه السوريين المفضلين.

ومـع خطوبـة دعاء وباسـم، تبددت السـحابة التي كانت مخيمة علـى منـزل عائلـة الزامل، وتحسـنت صحة هناء، وأصبح العروسـان الجديـدان حديـث الحـيّ. عرف الجميع أن روميو "باسـم" فاز أخيراً بجوليات. وكانت الخطوبة نقطة مضيئة وسط صراعات الحياة اليومية للاجئين.

أول خطوة في مراسـم الخطوبة تمثلت في قراءة الفاتحة، وهو حدث رسمي تشهد عليه مجموعة صغيرة من أفراد العائلة والأصدقاء في منزل عائلة الزامل. ارتدت دعاء فسـتاناً أسـود مع حجاب أسـود

وأحمر، ووقفت مع النساء في جهة من المنزل قرب النافذة، فيما وقف باسم وبقية الرجال في الجهة الأخرى على شرفة. تولى الشيخ- وهو رجل دين محلي- الإشراف على كتب الكتاب (عقد القران)، ثم سأل الشيخ دعاء ثلاث مرات إذا كانت تقبل "باسم" زوجاً لها. وفي كل مرة أجابت "نعم" بكل ثقة. هذه الإجابات الثلاث جعلتهما زوجاً وزوجة أمام الله، ثم وقعا على عقد القران. بعد ذلك، انضمت دعاء إلى باسم على الشرفة، فيما هتف لهما أفراد العائلة، وتولت هناء والفتيات تقديم الشاي و"الجاتوه" لكل الضيوف. كان عليهما بعد ذلك التوجه إلى المحكمة لجعل ارتباطهما رسمياً. لكنهما منذ الآن فصاعداً، باتا ثنائياً ينويان الزواج، وصارت لديهما حرية المشي يداً بيد أمام الناس.

بعد يومين، اصطحب باسم دعاء وأختيها وهناء لشراء بعض المجوهرات لدعاء استعداداً لحفل الخطوبة. يشتري الرجل عادة خاتماً وأساور وأقراطاً للأذنين وساعة وعقداً لعروسه، لكن دعاء وهناء حاولتا إقناع باسم بأن قطعة مجوهرات واحدة تكفي. فقد عرفتا أن مدخراته بدأت تنفد، وأنه يجني القليل من المال. لكنه أصرّ على شراء كل شيء، وطلب أفخر أنواع الذهب. اختارت دعاء عقداً، وقرطين للأذنين، وخاتماً مزدوجاً، ولكنها لم تختر ساعة. الشعار على الخاتم كان "تاج الملكة"، فقالت هناء لباسم: "هكذا تعاملها، مثل الملكة".

اشترت دعاء لحفل الخطوبة فستاناً من قماش لامع باللون الأزرق الفاتح، له صدار مشدود وتنورة واسعة. احتاجت إلى أيام لإيجاده، بعد أن انتقلت مع أمها من محل إلى آخر.

بعـد أن كتبـا كتابهمـا، بات يسـمح لباسـم ودعـاء بالخروج معاً والإمساك بيدَي بعضهما. أخذها إلى المقاهي والتسوق لتدليلها. بعد عيـش حيـاة بسـيطة لفترة طويلة من الزمن، اسـتمتعت دعاء بالدلال. وقـد قـال لها باسـم: "أحـب ثيابك". ومازحها بالقـول إن كل الرجال يحسدونه على خطيبته الأنيقة. وعرف أيضاً أنها تحب تناول رقاقات البطاطا المقلية والحلويات، فاشـترى لها أكياسـاً صغيرة من الأكشاك في الحديقة المجاورة. دعا هناء غالباً للانضمام إليهما في النزهات، وكانـا يذهبـان بعد ذلك إلى الأرجوحات مثل المراهقين، ويضحكان ويتهامسـان. قال لها: "أنت أروع ما حصل معي يا دودو". مسـتعملاً لقبها الجديد. "لا تعرفين كم جعلتني أتعذب".

صباح حفل الخطوبة، رافقت هناء ابنتها دعاء إلى صالون تزيين الشعر. كان شعر دعاء الطويل قد وصل إلى خصرها، فأمضت مزينة الشـعر أكثر من سـاعة لابتكار تصميم معقد التف حول رأسـها، فيما قامت اختصاصية "الماكياج" بتزيين وجهها. وباستخدام مستحضرات التجميل والشعر المصفف، لم تعد دعاء تشبه اللاجئة أو فتاة المصنع، بل بدت مثل امرأة مغرمة يمكنها الآن التطلع إلى مستقبل قد لا يكون كئيباً جداً.

فرحت دعاء لأنها وباسـم قد شـرّعا علاقتهما أخيراً، وباتا الآن زوجـاً وزوجـة فـي دينهما. ولكن في طريـق عودتهما إلى المنزل، لم تسـتطع كبـح حزنهـا لأن أخواتهـا الأكبر سـناً لن يتواجـدن معها في يومها المميز. إذ كانت علاء وآية وأسمى موزعات؛ كل منهن في بلد: علاء في أبو ظبي، وآية في لبنان، وأسمى في الأردن. إنهن لاجئات، وبالتالـي جـوازات سـفرهن السـورية غيـر مفيـدة من دون تأشـيرات

دخـول. لقـد أصبحـن الآن عالقات في البلـدان التي هربن إليها، ولـم يكـن بإمكانهـن المجـيء للاحتفال بخطوبة دعاء. بكت دعاء بسـبب ذلك، وأفسدت "ماكياجها".

عندما خرجت من سيارة الأجرة في تمام الساعة الرابعة من بعد الظهـر، وبعـد أن أعـادت ترتيب مظهرهـا في المنزل، اجتمع أكثر من مئة مدعو- من السـوريين والمصريين- للاحتفال بها. أطلق أصدقاء باسـم المفرقعـات الناريـة، ودخـل الضيوف شـقة خالـة دعاء، حيث امتـلأت الطـاولات بمجموعة مـن الأطباق منزلية الصنع والحلويات وقناني العصير. طلبت دعاء من سجى أن تزين المكان، فقامت سجى بمساعدة نوارة وخالات دعاء بإنشاء منصة صغيرة للاحتفال، واشترين البالونات وشراشف الطاولات الورقية. توزعت الأزهار في كل مكان؛ على الطاولات، والمنصة، وحتى على الستائر، وجرى تزيين كل إنش من غرفة الجلوس بألوان احتفالية. قامت الفتيات بقص الحرفين "ب" و"د" ولصقهما على الجدار ليراهما الضيوف عند دخولهما.

مشت دعاء بين الحشود، وتم إدخالها إلى غرفة نوم خالتها حيث جلست النساء. صدحت الموسيقى العربية من مكبّر صوت استأجروه مـن فنـدق محلـي، وتحدث الجميـع دفعة واحدة، فيمـا وقفت دعاء وسط الغرفة لأداء رقصة تقليدية.

بعد وقت قصير، تم الإعلان عن أن "باسم" على وشك الدخول. وفق التقاليد، غطت كل النسـاء رؤوسـهن، باسـتثناء دعاء. تقدم باسم صوبها، وكان حليق الذقن ومرتدياً بذلة داكنة أنيقة. إنها المرة الأولى التـي يراهـا فيهـا مـن دون حجاب. "هل هذه دعاء نفسـها!؟". ابتسـم ابتسـامة عريضـة وتابـع: "تبديـن رائعـة، لكنني أجـدك أروع من دون

"ماكيـاج"!". ثم سـحب علبة صغيـرة من جيبه، وأخرج منها القرطيين الذهبيين اللذين اشـتراهما لها ووضعهما في أذنيها. عندها، انضمت النساء إلى الرجال في غرفة الجلوس لتناول الطعام، وبدأت الحفلة. بعـد تنـاول الطعام، رقص الضيوف طوال الليل على وقع الموسـيقى العربية. إنها مناسبة فرح نادرة سيذكرها الجميع.

بعـد أسـبوع علـى الاحتفـالات، فيما خلدت دعاء إلى السـرير، مدت يدها تحت وسـادتها للإمسـاك بخاتم الخطوبة. إذ كانت تخبئه هناك وترتديه فقط عند خروجها من المنزل. إلا أنها لم تجد أي شيء. حركت يديها بذعر فوق الشراشف ورفعت الوسادة. لقد اختفى خاتم الخطوبة! لا أملك أي حظ في حياتي! قالت لنفسها فيما نادت أختيها لمساعدتها في البحث عنه. وكانت العائلة قد استقبلت بعض الضيوف هذا المساء، صديقات للفتيات، فتساءلت إن كانت إحدى الفتيات قد سرقته. اتصلت بباسم باكية، وخشيت أن يعتبرها مهملة، غير أنه قال لها: "لا تقلقي. هذا ليس مهماً. سأشتري لك خاتماً جديداً".

فخطرت في بالها فكرة سوداء فيما تحدثت مع باسم. هل يعني هذا أننا لن نحصل أبداً على خاتم زفاف؟ غير أنها حاولت طرد الفكرة من رأسها.

بات باسـم الآن ضيفاً دائماً في منزل عائلة الزامل. عشـقته أختا دعاء، وكان بالنسبة إلى شكري بمثابة الابن الذي يدعم العائلة ويحب ابنتـه. وقـف دائمـاً إلـى جانـب باسـم كلما تشـاجر مع دعـاء، ووبخ دعـاء: "عليـك معاملـة زوجك جيداً". وفي غضون ذلك، ذهلت دعاء بالعواطف التي لم تعرفها من قبل قط. فقبل ساعات من وصول باسم للزيارة، كانت تفكر في ما يجب ارتداؤه، وكلما وصلت رسائله إلى

هاتفها شعرت بخفقان في قلبها. بدأت تتخيله يلتقي نساء أخريات، واكتشفت إحساس الغيرة المجنون. ولكنه طمأنها: "لا تكوني سخيفة دودو. أنت المرأة الوحيدة التي أحببتها وسأحبها دوماً".

عبء المسؤولية الذي أحست به سابقاً تجاه عائلتها باتت الآن تتشاركه مع باسم. وأدركت أن تلقي الدعم والحماية إحساس جميل.

لجني المزيد من المال، بدأ باسم بالعمل في مصنع للفحم. عمل لساعات طويلة بدءاً من السابعة صباحاً وحتى الثامنة أو التاسعة مساء. وحصل في المقابل على 500 إلى 600 جنيه مصري كل شهر، أي أكثر قليلاً من أجرة عمل دعاء في الخياطة والكيّ الذي لا تزال تنجزه بين الحين والآخر. وبعد العمل لساعة متأخرة، كان يأتي إلى منزل دعاء مرهقاً. بدأ يخسر الوزن ويسعل نتيجة الغبار. فكانت دعاء تحضّر له العشاء، وبعد أن يتناول الطعام، كانا ينتقلان إلى الشرفة لتدخين النارجيلة معاً حتى ما بعد منتصف الليل. وفي ساعات المساء الطويلة، كانا يتحدثان عن مستقبلهما. اتفقا على تأجيل إنجاب الأولاد إلى أن يتمكنا من إنهاء تعليمهما وإيجاد وظيفتين جيدتين.

في بعض الأحيان، كان باسم يقول لدعاء إنه لا يرى مستقبلاً لهما في مصر. وذات مساء، فيما كان يشرب الشاي، أخبرها أنه بعد الانقلاب العسكري في مصر، قال له المصريون غالباً: "ماذا تفعل هنا؟ لماذا لا تذهب وتقاتل في سوريا؟". غير أنه لم يكن يجيب بأي شيء عند سماعه ذلك، لكنه بدأ يظن أنهم محقون. فذكّرته دعاء أنه جاء إلى مصر بسبب اعتقاله في سوريا. "أخبرتني أنه تم تعذيبك في ذلك السجن وبقيت لأيام عدة من دون ماء أو طعام".

كان باسم يتلقى باستمرار أخباراً من سوريا، وقد تمحورت غالباً

حول موت أحد أصدقائه. وأحياناً تكون دعاء برفقته عند تلقيه الخبر عبر الهاتف. وكلما حصل ذلك، كانت دعاء تمسك يده بيدها وتضع رأسها على عنقه فيما الدموع تنهمر على وجهه.

لرفع معنوياته، كانا يصغيان إلى أغانيهما المفضلة من سوريا، فيضعان سماعة في أذنه وسماعة أخرى في أذنها، ثم تضع رأسها على رأسه ويصغيان معاً إلى الأغاني. أحبا كلاهما أغنية شعبية للمطربة اللبنانية كارول سماحة اسمها "وحشاني بلادي". وكانا ينشدان كلمات الأغنية بصوت عالٍ:

والله يا بلادي آه وحشاني يا بلادي

ذكرايات، وحكايات

مهما أعيش والله ما ليش

غيرها ودايماً فكراها

ولا لُقا بيداوي اللي غاب

غير لحظة حضن الأحباب

بكره هنرجَع ويجمّعنا تاني المكان

والأيام الحلوة هترجع لينا كمان

في إحدى عطلات نهاية الأسبوع، عندما اصطحب باسم دعاء إلى الشاطئ، ركعت دعاء على الرمل وكتبت بأصابعها اسم باسم فأضاف إليه باسم "+ دعاء"، ثم كتبت دعاء "سوريا" بأحرف أكبر.

فجأة، نظر باسم إلى ما كتباه وقال: "فلنعد إلى سوريا. أنا مشتاق

إلى عائلتي. مكاننا هناك".

أجابت دعاء: "لا مجال أبداً لكي أعود". رغم أنها أرادت ذلك بشدة قبل أشهر قليلة. "أنا مسؤولة عن عائلتي ولا أستطيع تركهم هكذا". وفكرت في عودة باسم إلى سوريا، وفي احتمال قتله في الحرب وعدم رؤيتها إياه أبداً مجدداً، فقالت له فيما أخفت خوفها عليه بالغضب: "إذا ذهبت فستنتهي علاقتنا. يمكنك استرجاع كل الذهب الذي اشتريته لي والعودة بمفردك".

أصرّ باسم قائلاً: "لكننا لا نملك مستقبلاً هنا". فيما مرر إصبع قدمه فوق اسميهما على الرمل.

عندها صرخت في وجهه: "قد أتعرض هناك للهجوم والاغتصاب أمام عينيك، وستكون عاجزاً عن الدفاع عني. وبالإضافة إلى ذلك، ما من عمل لك في سوريا".

وقف باسم صامتاً هنيهة، وفكر في ما قالته دعاء، ثم اعترف أخيراً: "أنت محقة".

أمسكت دعاء بيده وقالت له: "كن صبوراً يا حبيبي. إذا استمررت في البحث، فستجد عملاً أفضل في مصر". وحاولت جعل صوتها يبدو وكأنها تصدق تلك الكلمات أيضاً.

إلا أن المناخ الجديد في مصر لم يسهّل الأمور عليهما. وذات يوم، فيما خرجت دعاء في نزهة مع باسم، انفصلا قليلاً عن بعضهما لاجتياز الشارع. لكن دراجة نارية اقتربت منها وتوقفت فجأة. وأمسك السائق- وهو شاب في التاسعة عشرة من عمره تعرفه دعاء من الحي- بذراعها وشدّها صوبه. فضربته دعاء بمرفقها، وحررت ذراعها. لكن عندما أمسك بها الشاب مجدداً، أدركت أنه ينوي إجبارها على

الركوب على دراجته.

عندها، ابتعدت عنه دعاء وركضت صوب باسم صارخة: "باسم، بسرعة! علينا العودة إلى المنزل الآن!".

لم يشاهد باسم ما حصل، ولكنه أحس بخوف دعاء فسألها: "هل فعل لك شيئاً؟".

عندها، لاحظت دعاء أن وجه باسم بات أحمر نتيجة الغضب، وقررت أنه من الأفضل لهما أن يغادرا قبل أن يتفاقم الوضع، فكذبت قائلة: "لا، لم يحصل أي شيء".

"هذا ليس صحيحاً. لقد فعل شيئاً، أليس كذلك؟".

وقبل أن تجيبه، توجه باسم صوب الشاب المصري وضربه على وجهه، فوقعت الدراجة على الأرض، وهجم الرجل على باسم. راح الرجلان يتعاركان، ويضربان بعضهما، ويحاولان طرح بعضهما أرضاً.

صرخت دعاء: "باسم، توقف أرجوك. توقف". وخشيت أن يتأذى باسم، وأن يؤدي هذا العراك إلى لفت المزيد من الانتباه وتوريطهما في مشكلة.

فصرخ باسم وقد استدار صوبها: "اذهبي إلى المنزل يا دعاء. سألحق بك".

لاحظ صاحب الدراجة النارية أن "باسم" صرف انتباهه عنه قليلاً، فركب مجدداً على دراجته وانطلق بعيداً.

عندها، توجه باسم ودعاء صوب المنزل. لكن في طريق عودتهما رأيا الدراجة تعود. هذه المرة، أحضر سائق الدراجة معه صديقاً له، فيما لحق بهما رجلان آخران على دراجة ثانية. كانوا يحملون العصي

الخشبية ويلوّحون بها في الهواء. وسحب رجل سكيناً من جيبه فيما اقتربوا من باسم ودعاء، فدفع باسم دعاء خلفه، وصرخ فيهم طالباً منهم تركها وشأنها.

صرخ الرجل الذي يحمل السكين: "جئتم لتدميرنا! أنتم تعيشون على حسابنا". فصرخت دعاء طلباً للنجدة وبدأت تبكي، وأخرجت هاتفها للاتصال بأمها طلباً للمساعدة. وكانت العائلة قد انتقلت مجدداً إلى الفندق الذي استقبلهم فور وصولهم إلى مصر. إذ كانوا يقيمون هناك مجاناً بعد أن انخفضت درجات الحرارة وبدأ السياح بمغادرة المنطقة. وكان الفندق يقع على مسافة مبنى واحد من مكان محاصرة باسم ودعاء. نزل الرجال عن الدراجتين لتطويق باسم ودعاء. وأجابت هناء على الهاتف، وما إن فهمت ما يحصل حتى أبلغت مدير الفندق "خالد" الذي كان لطيفاً جداً مع العائلة. عندها، أسرع خالد إلى الخارج، ووقف بين دعاء والرجال، طالباً منهم المغادرة. كان خالد رجلاً محترماً في المنطقة، فعاد الرجال أدراجهم، وركبوا على الدراجتين وانطلقوا بعيداً.

عاد خالد وباسم ودعاء إلى الفندق، وأصرّ خالد على أن يذهبا مباشرة إلى مركز الشرطة للإبلاغ عن الحادث، وحذرهما قائلاً: "إذا لم تقولا أي شيء، فقد يعودون ويفعلون شيئاً أسوأ". وفيما حاول خالد إقناعهما بتقديم شكوى، جاء الرجل الذي أمسك بدعاء مع والده إلى الفندق. اعتذر الوالد كثيراً، واعترف بأن ابنه كثير المشاكل وقال لهم: "إذا فعل ذلك مجدداً، فلديكما الحق في تقديم شكوى ضده". ثم استدار غاضباً صوب ابنه وقال له: "انحنِ وقبّل أقدام دعاء وباسم". لكن ابنه رفض ذلك وبدأ يبكي. عندها، شعر باسم ودعاء

بالشفقة على الشاب الذي يبكي، وقررا عدم إبلاغ الشرطة بما حصل. وأرادا فقط الانتقال والبقاء تحت رادار السلطات.

تلك الليلة، فيما استلقت دعاء مستيقظة، تذكرت المشهد في رأسها، وأدركت أنها كانت على وشك أن تختطف، فشعرت بالامتنان لأن "باسم" و"خالد" صدّا الرجال، ولكنها لم تعد تشعر بالأمان في مصر، حتى لو كان باسم معها. كما أثرت تلك الحادثة البشعة في علاقتها بباسم.

ذات يوم، بعد شجار قوي معه، أعلنت دعاء أنها تريد فسخ علاقتهما، فتركته مصدوماً. وفي اليوم التالي، جاء باسم إلى المنزل وهو يبدو مريضاً، وقال لها بنبرة جدية: "دعاء، علينا التحدث. قررت العودة إلى سوريا. بقيتُ هنا من أجلك، وقبلت بالكثير من الذل والمهانة في مصر بسببك. وإذا كنت لا تريدين البقاء معي، فلا داعي إذاً لبقائي هنا. إذا كنت لا تريدين المجيء معي فأنت حرة. يمكننا إنهاء خطوبتنا".

عندما سمعت دعاء ذلك صرخت: "لا يمكنك الذهاب! سوف تقتل!". لكن "باسم" بقي مصمماً. شعرت دعاء بالكثير من الحزن، وخرجت من الشقة مسرعة بعد أن أدركت الخطأ الذي ارتكبته بفسخها خطوبتهما. ستكون شريكة في موته إذا غادر وعاد إلى سوريا. عرفت دعاء أن "باسم" يشعر بالكثير من الحزن بسبب موت أخيه أثناء القتال مع الجيش السوري الحر، ويشعر بالذنب لأنه لم يكن إلى جانبه. ولم تكن تريد أن يتركها باسم أو أن يفسخ الخطوبة، ولكنها منهكة نتيجة التوترات ومصاعب الحياة في مصر، وفقدت أعصابها خلال الشجار. لحق بها باسم إلى الخارج، ووجدها تبكي بشدة. توسلت

إليه لتبديل رأيه، غير أنه تأمل وجهها، وأخرج منديلاً لمسح دموعها، فبكت قائلة: "لم أكن أقصد ذلك! لا أريد فسخ الخطوبة". وعندما رأى باسم حزن دعاء وتأكد من أنها صادقة فعلاً في ما تقوله، أخذها بين ذراعيه ووعدها بألا يتركها أبداً. أقسم لها على أن يعودا إلى سوريا معاً عندما تنتهي الحرب. ومنذ ذلك الحين، صارت دعاء تدعو في صلاتها كل ليلة كي يبقيا معاً إلى الأبد.

في ذلك الخريف، بدأ كل من سجى ونوارة وحمودي بالذهاب إلى المدرسة، فيما عادت دعاء إلى العمل. كانت ثانوية سجى في منطقة أخرى من المدينة، وتوجّب عليها المشي وحدها لمسافة طويلة للوصول إلى هناك. وفي كل يوم تقريباً، وقف شباب عند بوابة المدرسة وأمطروها بالإهانات.

ذات يوم، فيما كانت سجى ذاهبة إلى المدرسة، لاحظت دراجة تلحق بها، وقد جلس عليها رجلان محليان خشنا المظهر، تغطي الأوشام أذرعهما. صرخا قائلين لها: "توقفي أيتها الفتاة السورية. نحن نحب النساء السوريات، ونريد أن نرى إذا كنّ يبادلننا الشعور نفسه أيضاً". أبقت سجى رأسها منخفضاً، واستمرت في المشي صوب بوابة المدرسة الابتدائية حيث ينتظرها حمودي ونوارة. وعند وصولها إلى هناك، أخذت أخويها وصعدت إلى مكتب الإدارة للاتصال بوالديها كي يأتيا لاصطحابهم. كانت هناء غارقة في دموعها عندما وصلت مع اثنين من جيرانها السوريين بهدف حمايتهم. وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، عندما علم شكري بما حصل، لم يصدق أن الأمر حصل بعد فترة وجيزة من حادثة دعاء، وغضب كثيراً من احتمال تعرض بناته للخطر في مصر.

كما واجه حمودي أوقاتاً صعبة أيضاً. فصحيح أنه أحب الدرس وكان تلميذاً مجتهداً، إلا أن الأولاد الذين كانوا أصدقاء له باتوا يتنمرون عليه بعد الإطاحة بحكم مرسي وتبدل الأجواء.

ذات يوم، أعلنت مدرسة حمودي أنه لم يعد بوسعها قبول الأولاد السوريين. فاعترض الأهالي، وذكّروا مسؤولي المدرسة أن الحرب في سوريا هي التي جاءت بهم إلى هنا، وأنهم لا يريدون سوى تعليم أبنائهم. وقالوا لهم أيضاً إن حرمان اللاجئين من التعليم مناهض لسياسة الحكومة، وإنه لا يحق للأساتذة اتخاذ قرار كهذا. وأخيراً، تم التوصل إلى تسوية في المدرسة تسمح للأولاد السوريين بالذهاب إلى المدرسة، ولكن لا يحق لهم الجلوس على المقاعد، بل عليهم الجلوس على الأرض.

في تلك الفترة، جاء رجل فظ المظهر على دراجة نارية صغيرة وتوقف في الساحة خارج الفندق حيث تمكث عائلة دعاء وراح يصرخ، فأسرعت دعاء وعائلتها إلى الشرفة لرؤية ما يحصل. صرخ بأعلى صوته: "إذا قمتم أيها الأهل بإرسال أولادكم إلى مدارسنا، فسيعودون إليكم مقطعين إرباً". وكرّر تهديده مراراً كي يسمعه الجميع. عندها، حاول الرجال السوريون الموجودون في المنطقة والذين رأوا ما حصل أن يطاردوه، ولكنه انطلق مسرعاً قبل أن يتمكنوا من تسجيل رقم لوحة دراجته والإبلاغ عنه. الإحساس بالخوف الذي ظنت عائلة دعاء أنها تركته خلفها في سوريا عاد ليتسلل إليهم الآن. قرر العديد من الجيران إبقاء أولادهم في المنازل، وأخرج شكري وهناء أولادهما من المدرسة أيضاً، فشعر حمودي بالإحباط وأمضى أيامه في المنزل عابساً.

فـي غضـون ذلـك، كان شـكري يكافـح لجني المـال من العدد الضئيل لزبائنه. وأحس باسـم بسـوء حاله، فعرض عليه مشـاركته في صالونه، ووافق شـكري بامتنان. في ذلك الوقت، أصبح لدى باسـم عدد من الزبائن الأوفياء، ما سـاعد على إنعاش عمل شـكري قليلاً. صحيح أن هذا الأمر ساعد العائلة قليلاً، لكن "باسم" أدرك أنه يحتاج إلى المزيد لنفسه ولعروسه المستقبلية. فرغم عملهما لساعات طويلة، إلا أنهمـا لا يأمـلان بحيـاة كريمـة، بـل بفقـر مدقع. كمـا أدرك أنه لا يمكنهما تأسـيس عائلة في مثل هذه الظروف، وفقد باسـم الأمل كل يوم بإمكانية العودة إلى سوريا. وبدا له أنهم يبددون حياتهم في مصر، بين شعب لا يريد وجودهم أصلاً. ولم يكن قادراً على البقاء مع دعاء لوقت طويل بسبب عمله الكثير، وخشي ألا يكون موجوداً ذات يوم إذا احتاجت إليه. لذا، عرف باسم أنه عليه فعل شيء ما للتغيير.

الفصل السابع

خطوة نحو المجهول

بعد ظهر أحد الأيام من شهر حزيران في العام 2014، أي بعد تسعة أشهر من خطوبة دعاء وباسم، تناولت عائلة الزامل وجبة الغداء معاً. وكانت دعاء لا تزال تعيش في المنزل مع أهلها؛ إذ لا يمكنها الانتقال للعيش مع باسم إلا بعد حفل زفاف رسمي.

وبعد مساعدتها في تنظيف الأطباق، اقترح باسم أن يذهبوا جميعاً في نزهة قبل أن يعود مع شكري للعمل في صالون الحلاقة. مشى الشابان أمام بقية العائلة وقد أمسكا بيدَي بعضهما فيما تحدثا. وعندما وصلا إلى الكورنيش، استدار باسم صوب دعاء، وأخفض صوته أكثر من المعتاد. تحدث بهدوء، كما لو أنه تمرّن على ما يريد قوله. "أريد مناقشة أمر مهم معك. أريد أن نذهب إلى أوروبا، فنحن لا نملك مستقبلاً هنا. لقد علقنا، ولا يمكننا العودة إلى سوريا". نظر إلى وجهها المذهول، وتابع التحدث بسرعة أكبر. "الجميع يذهبون. ذهب صديق لي إلى ألمانيا، وتقدم بطلب لأخذ عائلته إلى هناك. الحياة هناك أفضل من هنا يا دعاء. يمكنك الذهاب إلى المدرسة، فيما أفتح صالوناً للحلاقة. يمكننا تدبير منزل وتأسيس عائلة". وراقب

وجهها بتفاؤل، بحثاً عن دليل موافقة، ثم تابع: "ما رأيك؟ نحتاج فقط إلى المال للذهاب".

لم تستطع دعاء سوى التفكير في البحر الواسع الفاصل بين مصر وأوروبا، والمياه التي تقترب من رأسها وتملأ رئتيها. فهي لم تتعلم السباحة بعد، وفكرة اجتياز تلك المساحة الشاسعة من المياه أصابتها بالذعر. عرفت أن اللاجئين لا يملكون طريقة شرعية للدخول إلى أوروبا، وأنهما لن يتمكنا من الحصول على المستندات اللازمة للركوب في سفينة كبيرة مثل تلك التي أقلتهم إلى مصر. فإذا تقدما لطلب تأشيرة، فسيتم رفضها. ولطلب اللجوء في أوروبا، عليك الوصول إلى هناك بنفسك. وأدركت دعاء أن السبيل الوحيد للوصول إلى هناك يعتبر غير شرعي من قبل السلطات المصرية، وأنه غير آمن برأي الجميع. سألته: "هل تقصد عبر قارب التهريب؟ لا تفكر حتى في الأمر. لن أفعل ذلك". فقد عرفت أن تلك القوارب صغيرة ومهترئة، وأنها تكون مزدحمة جداً، كما سمعت قصصاً عن قوارب تغرق ولاجئين يموتون. لم تصدق أن "باسم" مستعد لهذه المجازفة. كيف ستعبر البحر في مثل تلك القوارب فيما لا تستطيع وضع قدمها في المياه؟!

تمتم باسم: "لكن المياه ستصل فقط إلى ركبتيك، وستكونين بأمان في القارب. سيتم إنقاذنا حين نقترب من إيطاليا، وبعدها سنسافر إلى السويد!". وشرح لها باسم كيف يتم إرسال إشارات الاستغاثة فور وصول قوارب اللاجئين إلى المياه الإيطالية، فيرسل حرس الشواطئ الإيطالية بواخر لنقل الجميع بأمان إلى اليابسة.

ارتجفت دعاء وقالت: "حتماً لا . جوابي هو لا يا باسم".

لكنه استمر في التطرق إلى الموضوع في كل فرصة سنحت له، محاولاً إيجاد طريقة لإقناعها. لم تفهم دعاء سبب إصراره على الموضوع بالرغم من علمه بخوفها من الماء. فكلما ذهبا إلى الشاطئ مع عائلتها، كانت تبقى بعيدة عن الشاطئ، وتراقب الجميع وهم يتراشقون وسط الأمواج. كان باسم سبّاحاً ماهراً، وذلك لسبب معين. فقد أخبر دعاء أنه حين كان في الثالثة عشرة من عمره، زار بحيرة في درعا مع صديقين له. لم يكن أي منهم يعرف السباحة، ولكنهم نزلوا إلى البحيرة على أية حال، وتراشقوا بالماء. ثم غاص أحد صديقيه في المياه العميقة، وبدأ يلهث لتنشق الهواء ويلوّح بذراعيه. ظن باسم وصديقه الآخر أن صديقهما يمزح، ولكنهما عندما وصلا إليه أخيراً، كان وجهه مغموراً بالماء وجسمه جامداً؛ لقد غرق. بعد ذلك اليوم، أقسم باسم على أن يعلّم نفسه السباحة. قال لدعاء: "وعدت نفسي ألا أقف أبداً عاجزاً مجدداً فيما يغرق أمامي شخص أهتم لأمره".

وأخبرها أيضاً قصة أخرى. فقبل بضعة أعوام، ذهب إلى بحيرة مع بعض الأصدقاء وجلسوا على الشاطئ الصخري. في ذلك الوقت، كان قد اصبح سبّاحاً ماهراً. في البعيد، رأى قارب تجذيف وفتاة مراهقة تقع في الماء وتطلب النجدة. ركض فوراً وقفز في الماء. وعندما وصل إلى الفتاة، طوقها بذراعيه وسحبها إلى الشاطئ، وأنقذ حياتها.

إلا أن هذه القصة وغيرها لم تطمئن دعاء. فكلما تخيلت نفسها مغمورة بالماء، من دون يابسة أمام عينيها، كانت تشعر بالغثيان. وقالت له ذات ليلة فيما كان يحاول إقناعها مجدداً: "باسم، لا أريد ذهباً أو مفروشات باهظة وحياة في أوروبا". كانا بمفردهما على الشرفة في

شـقة دعاء يشـاهدان العتمة تهبط، فيما أفراد العائلة الآخرون يصغون إلـى الراديـو فـي الداخـل. لم يكن بإمكان دعـاء أن تتخيل حياتها من دون أهلهـا قربهـا. "أريـد البقاء بالقرب من عائلتي. ما رأيك بالذهاب إلى المملكة العربية السعودية؟ فقد عملتَ هناك سابقاً". ففي المملكة العربية السـعودية، يسـتطيعان بدء حياة جديدة، وسيكونان على مقربة من عائلتها، ولن تضطر إلى الركوب في القارب للوصول إلى هناك.

أجابهـا: "لـن تحبـي ذلـك. فالأجـواء محافظـة جـداً هنـاك، وستتسربلين بالسواد، وستضطرين إلى تغطية وجهك بكامله باستثناء شق صغير لتتمكني من الرؤية عبره. لن تتمكني حتى من الخروج إلا إذا كنت معي. لقد ذهب نصف أصدقائي إلى أوروبا! وأنا أتلقى دوماً رسـائل منهم عبر الفايسـبوك، من السويد وألمانيا. إنهم الآن يملكون وظائـف جيـدة، ويذهبـون إلى المدارس. قالـوا لي إننا محط ترحيب هنـاك، وليـس مثـل وضعنا هنا". انتظر باسـم حتى تفكر دعاء في هذه المعلومات، ثم أضاف: "الرسائل الأخرى التي تصلني هي من أصدقاء عادوا إلى سوريا، وهم يخبرونني فيها بمن مات. هل نسيت ما تعنيه رؤية الناس وهم يموتون كل يوم؟".

فصرخت دعاء في وجهه: "وهل نسـيت كل قصص الرعب عن تلـك القـوارب؟ وقصـص اللاجئيـن الذين يغرقـون؟". غضبت دعاء ووقفت بسـرعة، ثم دخلت المنزل تاركة باسـم وحده على الشـرفة. أدارت له ظهرها كي لا يراها باكية بسبب الحزن والحرمان.

اسـتمر الحال على هذا المنوال لمدة شـهرين. وقد تطرق باسـم إلـى هـذا الموضـوع كلمـا أتيحت له الفرصة، مجرباً وسـائل مختلفة لإقناعهـا. "دعـاء تبديـن متعبة! أنت غير سـعيدة هنا! سـوف تتحسـن

صحتك في أوروبا". وبالفعل، كانت صحة دعاء تزداد سوءاً أسبوعاً تلو الآخر. وكلما رآها باسم مضطربة، ذكّرها بأوروبا. "في أوروبا، يمكنك متابعة تحصيلك العلمي. يمكننا فتح صالون معاً، وستجنين المال وتتمكنين أخيراً من شراء ملابس جديدة. وستتمكنين أيضاً من الحصول على منزل جميل هناك. سنُحترَم بدل الاضطهاد الذي نتعرض له، وسيحظى أولادنا بحياة كريمة". كما عرض عليها الصور التي تلقاها من أصدقائه المبتسمين أمام تماثيل أثرية وحدائق عامة جميلة. فقد تصوّر صديق له في أمستردام، واقفاً على جسر فوق قناة وخلفه مشهد رائع. عند رؤيتها هذه الصور، لم تستطع دعاء سوى الإصغاء والحلم. فقد بدت أوروبا مكاناً مرتباً، مثل أرض خيالية.

الحياة التي عرضتها الصور مختلفة كثيراً عن الفقر والكفاح والخطر التي باتت أموراً عادية بالنسبة إليها. ففي مصر، لم تحصل هي وعائلتها سوى على العدائية والعمل الشاق بأجور منخفضة لا تكفي لتلبية احتياجات العائلة الأساسية. وبالكاد كانوا قادرين على شراء الطعام ودفع الإيجار، وكلما احتاجوا إلى شيء إضافي- مثل دواء أو حذاء لحمودي عندما يصغر حذاؤه القديم- اضطروا إلى استدانة المال الذي لا يستطيعون تسديده، أو بيع ما تبقى من كنوزهم الصغيرة. ولا فرصة أبداً لكي تنهي دعاء الثانوية العامة في مصر، وقد تخلت عن حلمها بالذهاب إلى الجامعة. وكما هي حال آلاف اللاجئين السوريين، شعرت أنها عالقة في حياة مهملة في بلد يواجه سكانه مشاكل اقتصادية، وتضخماً مالياً، وارتفاعاً في أسعار المأكولات. في مصر، تم قبول اللاجئين السوريين، لكن مع إمكانات ضئيلة بالعثور على عمل حقيقي والاندماج في المجتمع تماماً.

شيئاً فشيئاً بدأت دعاء تتساءل عما يعنيه الخروج من المنزل من دون الخوف من التعرض للاغتصاب، وذهاب إخوتها إلى المدرسة من دون الخوف من التعرض للتحرش أو الضرب أو ربما ما هو أسوأ. تذكرت كيف كانت الأمور عندما لم تكن أمها مريضة دوماً ووالدها مرهقاً دوماً، وحين كان حمودي ولداً مرحاً يعيش طفولة عادية. لم يعد كل هذا ممكناً في مصر.

وفي سوريا، تزداد الأمور سوءاً. فقد مات مئات الأشخاص في هجوم للأسلحة الكيميائية في دمشق، وقد اتهم المجتمع الدولي نظام الأسد بتنفيذ هذا الهجوم. وبات الآن الجهاديون المتطرفون تحت مظلة المجموعات المتمردة، وبدأوا يحاربون بعضهم بعضاً؛ ما أضعف المعارضة المعتدلة التي تمثلت في الجيش السوري الحر. كما نشأ تنظيم عنيف أطلق على نفسه اسم الدولة الإسلامية، وبات يتوسع ويفرض عقيدته الأصولية وتفسيره الصارم للشريعة في سوريا. وقد تهجّر ثلث السكان تقريباً لغاية الآن، وعاش 3 ملايين منهم كلاجئين في لبنان والأردن وتركيا ومصر.

بدأت دعاء تفكر ببطء في احتمال المغادرة، لكن "باسم" راح يتردد في قراره بالسفر. فهو يحب دعاء كثيراً، ولم يرغب في إجبارها على فعل شيء يرعبها، وبدأت أفكار مخيفة تراوده. لذا، قرر الذهاب إلى أوروبا وحده. وبعد أن يستقر هناك، سيرسل بطلب دعاء وعائلتها. فقد سمع عن برامج في أوروبا تعيد لمّ شمل اللاجئين مع أفراد عائلاتهم الذين ما زالوا بعيدين عنهم. وقال له أصدقاؤه إن كل ما عليه فعله هو الوصول إلى هناك وطلب اللجوء، ومن ثم التقدم بطلب لإحضار العائلة إلى البلد نفسه. وسيتم بعدها إصدار تأشيرات

الدخول وتذاكر السفر.

قـال لدعـاء عندما أبلغها بخطته المعدلة: "يمكنك الانضمام إليّ بعد فترة وجيزة". كانا يجلسـان قرب بعضهما أمام طاولة صغيرة في مقهاهما المفضل، يرتشفان الشاي ويدخنان النارجيلة، فيما أخذ باسم استراحة من العمل.

ذهلـت دعـاء ووضعت كوبها جانبـاً، وقالت من دون تردد: "لن أسمح لك بالذهاب وحدك. لا أستطيع الانفصال عنك".

فمازحهـا باسـم قائلاً: "أنت فقـط تغارين. تظنين أنني إذا ذهبت إلى أوروبا قبلك، فسأجد امرأة أوروبية جميلة".

ضربته دعاء على كتفه وقالت له: "حسـناً، جد لنفسـك حسـناء، وأنـا بـدوري سـأجد زوجاً مصرياً". وفيمـا ضحكا على ذلك، تألمت دعاء في أعماقها لأن "باسم" يفكر في الذهاب إلى أوروبا من دونها، وخافت قليلاً ربما من أن يجد امرأة فاتنة في أوروبا يحبها أكثر منها.

"أنا أمزح يا دودو. لن أبحث أبداً عن امرأة أخرى. أنت الوحيدة بالنسبة إلي. إيجاد شخص آخر سيكون بمثابة استبدال القمر بالنجوم".

فوضعت دعاء رأسها على كتفه وهي لا تزال تشعر بالاضطراب. "لا يمكنك الذهاب إلى أي مكان من دوني". أحسـت برأسـها يرتفع وينخفض لدى تنفسـه. ولكنها عرفت أن "باسـم" مصر على الرحيل، معها أو من دونها. سئمت من رؤيته يكافح في مصر، وعرفت أنها لا تملك حجة جيدة لإقناعه بالبقاء. وأحست أنها إذا رفضت السماح له بالذهاب، فستقف في طريق مستقبله، ولكنها لن تتحمل فكرة بقائها وحدها إذا غادر. فحياتها معه، بطريقة أو بأخرى، ولا يملك أي منهما مستقبلاً في مصر. بدأت تفكر في أنها تستطيع ربما التحلي بالشجاعة

ومواجهة الماء إذا كان ذلك يعني حياة محترمة مع الرجل الذي تحبه. وقالت لنفسها إنها ستساعد أيضاً عائلتها من خلال إرسالها المال إليهم، ومن ثم أخذهم إلى مكان أفضل.

لكنها لم تعرف أن "باسم" بدأ يناقش الفكرة مع أمها. فقالت هناء للرجل الشاب الذي تحبه مثل ابنها: "الأمر يعود إليك. لكنني أعتقد أنه عليك فسخ خطوبتك من دعاء قبل السفر".

فقال متعجباً: "أبداً. أنا ذاهب لأنني أريد منح دعاء كل ما تريده". وتابع الدفاع عن قضيته، إلى أن استسلمت هناء أخيراً وأخبرته أنه إذا كان مصراً على الذهاب، فلا مشكلة لديها. ولكنها تشعر أن عليه السفر بمفرده أولاً، وإيجاد مكان للعائلة، ومن ثم التقدم بطلب لدعاء لتلحق به كزوجة له. قالت هناء: "لا أريدها أن تسافر في قوارب التهريب. وعلى أية حال، ليس من الممكن أبداً أن تضع قدمها في الماء".

بعد أيام قليلة، أخبرت دعاء أمها أنها قررت الذهاب إلى أوروبا مع باسم. صدمت هناء من فكرة قيام دعاء بالرحلة الصعبة والخطرة، ولكنها فهمت أن هذه فرصتهما الوحيدة للحصول على حياة أفضل. لكن مجرد التفكير في وجود دعاء داخل قارب مزدحم بمئات اللاجئين الآخرين بعث الرعب في نفس هناء. إلا أنها أدركت أن دعاء إذا اتخذت قرارها فستكون مصرة على تنفيذه. قالت دعاء لأمها في أول مرة عارضتها فيها: "اسمحي لي بالذهاب إلى أوروبا أو أعيديني إلى سوريا". فنظرت هناء إلى ابنتها العنيدة التي باتت الآن شابة مخطوبة في التاسعة عشرة من عمرها، وعرفت أنها لا تستطيع منعها. وعوضاً عن ذلك، ستبذل كل ما بوسعها لجعل الرحلة آمنة قدر الإمكان.

في ذلك العام، خسر أكثر من ألفي لاجئ ومهاجر حياتهم أثناء محاولتهم الإبحار إلى أوروبا، وكان ذلك في بداية شهر آب. إذ إن الفترة الممتدة بين نهاية الصيف وبداية الخريف، أي حين تكون البحار هادئة نسبياً والطقس دافئاً، تعتبر أفضل موسم للاجئين ليبحروا في البحر المتوسط. لا شك في أن المزيد من الأشخاص سيموتون في البحر. لكن الحروب العالمية، والنزاعات، والاضطهادات أجبرت المزيد من الأشخاص على الهروب من منازلهم والبحث عن الملاذ الآمان في مكان آخر أكثر من أي وقت مضى. وفي نهاية العام 2014، سجلت مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين هجرة نحو 60 مليون شخص، أي أكثر بنحو 8 ملايين من العام السابق. ونصف هؤلاء كانوا من الأولاد. ففي كل يوم من ذاك العام، أصبح نحو 42500 شخص لاجئين، أو طالبين للمنفى، أو مهجرين داخل بلادهم، أي بزيادة أربعة أضعاف خلال أربعة أعوام فقط.

والسبب الرئيس لتلك الزيادة الهائلة في أعداد اللاجئين هو الحرب في سوريا. فمع تحول عدد اللاجئين إلى الملايين في الدول المجاورة، وتضاؤل فرص العمل وتعليم الأولاد، خاطر المزيد من الأشخاص بحياتهم في رحلات خطرة للحصول على حياة أفضل في أوروبا. فالناس الهاربون مباشرة من العنف الحاصل في سوريا وجدوا عملاء مجرمين في مدنهم عرضوا عليهم تهريبهم عبر الحدود. وفي حال دفع السعر المناسب، كان يتم نقلهم عبر البحار إلى الأرض الموعودة في أوروبا.

وقد ازدهرت أعمال التهريب للأشخاص الفارين من الحروب والفقر في أفريقيا، وتوسعت بسرعة انطلاقاً من ليبيا لتلبية الطلب

المتزايد من السوريين والفلسطينيين الراغبين في الهرب بحراً من مصر.

لم يكن إيجاد المهربين في مناطق اللاجئين أو عبر الفايسبوك أمراً صعباً، حيث إنهم كانوا يعلنون عن أعمالهم على شكل عطلات على متن يخوت فخمة. كانت التذكرتان إلى أوروبا تكلفان "باسم" ودعاء نحو 5000 دولار، على أن يتم دفع 2500 دولار مسبقاً، فيما يُدفع المبلغ المتبقي لدى الوصول إلى إيطاليا بأمان. المهرب الذي وجده باسم كان رجلاً سورياً يستعمل اسماً مستعاراً، ويعرف في المنطقة باسم رجل الجبهة. وقد أخبر "باسم" أنه يستطيع تأمين سفره على متن قارب آمن، وأن الرحلة لن تستغرق أكثر من بضعة أيام.

ومع اقتراب يوم الرحيل، بدأت دعاء تشعر بالتشاؤم حيال الرحلة. وذات يوم، فيما كانت مع باسم في مقهاهما المفضل يتحدثان عن وعود المهربين بالطريق الآمن، شاركته مخاوفها وأخبرته أنها تشعر بأن القارب سيغرق.

فأجابها باسم: "أنت تقلقين كثيراً يا دودو. لديّ إحساس قوي بأن كل شيء سيكون على ما يرام". ولكنه لم يخبرها عن مخاوفه الكبيرة أيضاً. فلطالما أراد باسم أن يكون قوياً لأجلها، وذلك يعني أن يحتفظ بمخاوفه لنفسه.

لم يكن باسم يملك في مدخراته مالاً كافياً لتسديد كلفة الرحلة، ولم تملك عائلة الزامل أي مال نقدي أيضاً. ولتأمين المال، باعت دعاء الأساور والقلادة الذهبية التي اشتراها لها باسم بمناسبة الخطوبة، والكمبيوتر المحمول الذي قدمه لها كهدية. كما باعت هناء أيضاً بعض مجوهراتها رغماً عنها، ولكنها أرادت المساهمة في مستقبل

ابنتها، وكانت مستعدة للدفع أكثر من أجل الحصول على قارب آمن. أما عائلة باسم في سوريا فقد قدمت 200 دولار أيضاً للمساعدة، فوصل المبلغ النهائي إلى 2500 دولار؛ أي ما يكفي للدفعة الأولى، بالإضافة إلى 500 يورو للانطلاق في أوروبا. لم يعرفا كيفية تمكنهما من تأمين المبلغ المتبقي، ولكنهما تصورا أنه بعد وصولهما إلى هناك سيتمكنان من الاستدانة، ومن ثم سيعملان لتسديد الدين. دفع باسم المال للمهرب فطُلب منه انتظار اتصال هاتفي.

وفي 15 آب 2014، ورد ذلك الاتصال. وضبت دعاء كيساً أسود صغيراً وضعت فيه أغلى مقتنياتها؛ القرآن، وكنزة جديدة ذهبية اللون مع سروال اشتراهما لها باسم، وبقية مجوهرات الخطوبة، وطقم فضة مؤلفاً من سوار وعقد وخاتم مع ماس مزيف، وعلبة مجوهرات معدنية سورية مزينة بالقلوب. ودّعت والدها الذي اضطر للبقاء في العمل باكية، وشدّته إليها، وشمّت رائحته المألوفة التي تطغى عليها رائحة معجون الحلاقة الخاص به والنارجيلة التي يحبها، ثم ركبت سيارة أجرة مع باسم وأمها وإخوتها. فقد أصرّت هناء على أن ترافق مع أولادها دعاء و"باسم". أعطى باسم سائق السيارة العنوان الذي أرسله له المهرّب، وهو عنوان شقة في منطقة العجمي الساحلية التي تبعد نحو 12 ميلاً غرب الإسكندرية.

عندما دخل دعاء وباسم الشقة المؤلفة من غرفتين في أحد المباني الشاهقة المحاذية لشاطئ النخيل، وجداها متسخة وحارة. حلق الذباب من زاوية إلى أخرى فوق المفروشات القليلة المغطاة بالغبار، والأدوات الكهربائية التي أكلها الصدأ. وصلت قبلهما عائلتان سوريتان، وجلسوا جميعاً في الغرفة الموحشة على الأريكة

أو على الأرض مع أولادهم المضطربين. بلغ عددهم ثلاثة عشر شخصاً مع باسم ودعاء. في غضون ذلك، استقرت هناء مع الأولاد في شقة أخرى مجاورة يملكها المهربون في انتظار انطلاق باسم ودعاء. اتصل باسم بالمهرب لسؤاله عن موعد مغادرتهم، فطلب منه المهرّب التحلي بالصبر والبقاء على السمع، لأن التوقيت مرتبط بحالة الطقس وسهولة تملصهم من الشرطة. وبعد مرور ساعات عدة، عاود باسم الاتصال بالمهرّب. لم يخبر دعاء بما تم تداوله خلال تلك الاتصالات، ولكنه أخبرها أنهما سيغادران قريباً.

تركا الشقة لبعض الوقت لتنشق الهواء النظيف وشراء "سندويشات" الفلافل من كشك قرب الشاطئ. انتبهت دعاء جيداً إلى النظرات التي وجهها لها السكان المحليون. إذ يبدو جلياً أنها ليست هنا مع باسم وعائلتها لقضاء عطلة، وعرف الجميع أن السوريين الموجودين في المنطقة يحاولون مغادرة البلاد. لم يتلقوا أي اتصال هاتفي من المهرّب في ذلك اليوم ولا الذي بعده. وفجأة، بدأت الأيام والليالي تختلط ببعضها بالنسبة إلى دعاء، وشعر الجميع بالقلق والتململ.

أخيراً، رنّ هاتف باسم ذات مساء حين كانوا في الشقة، وقال الصوت المتصل بفظاظة: "استعدوا. غادروا الشقة بعد نصف ساعة، في تمام الساعة التاسعة مساء. انزلوا إلى الأسفل، ولا تلفتوا الانتباه. ستكون الحافلة في انتظاركم في الشارع خلف المبنى". وشدّد المهرب على ضرورة توضيب أغراض خفيفة، لأنه لا يوجد مكان للحقائب. أضافت دعاء كيساً من التمر وقنينتين من الماء إلى كيسها، ثم لفت جوازَي سفرهما بعناية بورق نايلون، ووضعتهما في الكيس،

ثـم وضعـت كل شـيء في جيب جانبـي للكيس الخيش مع المحفظة التي تحتوي على خمسـمئة يورو ومئتَي جنيه مصري. احتشـد حولها اللاجئون الآخرون مع أغراضهم.

غادروا جميعاً الشقة مع حقائبهم، وذهب باسم ودعاء إلى عائلة دعـاء لتوديعهـا. عانقـا هناء وسـجى ونوارة وحمـودي، فيما انهمرت الدموع من عينَي دعاء، وبالكاد اسـتطاعت التكلم بسـبب بكائها، فقد خشيت أن تكون هذه آخر مرة تراهم فيها.

قالت لهما هناء بعد أن أصبح الوضع فجأة حقيقة أمامها: "انتبها إلـى نفسـيكما مـن فضلكمـا. اتصلا بنا حين تصلان. سـنقلق عليكما كل دقيقة. هل أنتما واثقان من أنكما لا تريدان تبديل رأيكما؟ باسم، يمكنـك العيـش معنـا. أرجـوك لا تذهـب!". كانـت هناء قـد حاولت التحلي بالشجاعة من أجل دعاء، ولكنّ الخوف على ابنتها وصهرها تمكلها الآن.

حاولـت دعـاء التكلـم معهـا بعقلانية: "ماما، لن يتغير أي شـيء هنا". وكافحت للسـيطرة على مخاوفها وإبقاء صوتها مليئاً بالعزيمة. "لن تتحسن الأمور أبداً. لقد حسمنا أمرنا".

عندها، استدار حمودي ابن الأعوام التسعة صوب باسم، وسأله فيما وضع يديه على وركيه: "لماذا لا تذهب وحدك وتترك دعاء هنا؟ سوف أشتاق إليها".

فابتسـمت دعاء وعانقت حمودي مجدداً. "لا تقلق. حين أصل إلى هناك، سآخذك أيضاً، وسنكون جميعاً مع بعضنا، وسوف تتحسن الأمور".

أخيراً، في العتمة، انعطف باسم ودعاء عند ناصية الشارع، وابتعدا

عن عائلة دعاء صوب شارع مظلم حيث تنتظر العائلتان السوريتان. مرّ بعض الوقت قبل أن تأتي حافلة صغيرة بيضاء، ويخرج منها رجل ضخم لم يحلق ذقنه ويرتدي ملابس سوداء. طلب منهم الصعود إلى الحافلة، لينضموا إلى ثلاثين شخصاً كانوا أصلاً موجودين فيها، وجلسوا فوق بعضهم بعضاً لعدم وجود مكان. ما من ترحيب أو لطف في صوته. جلست دعاء على حضن باسم، ولفّت ذراعيها حول كيس الخيش. لم يتحدث أحد في الحافلة، وإنما أومأوا برؤوسهم تضامناً مع الواصلين الجدد.

عندما انطلقت الحافلة، همست دعاء لباسم: "المهربون سفاحون يا باسم. لا أثق فيهم، لا بل إنهم يبعثون فيّ الخوف". فحاول باسم طمأنتها، وقال لها إن كل شيء سيكون على ما يرام؛ رغم أن المهرّب الذي استلم منه المال لم يعده بذلك.

شقّ أحد المهربين طريقه في ممشى الحافلة. كان أصغر من الرجل الذي طلب منهم الصعود، ولكنه ارتدى أيضاً ملابس سوداء من أعلى رأسه وحتى أخمص قدميه، وتكلم بفظاظة. انتبه إلى دعاء فصرخ قائلاً: "ماذا تضعين في هذا الكيس؟".

فأجابت دعاء بخجل: "بعض الملابس والتمر والماء، مثلما قيل لنا".

فأومأ برأسه قائلاً: "دعي جواز سفرك معك طوال الوقت، وخبئيه بين ملابسك". ثم تابع سيره وكرر السؤال نفسه على جميع الركاب.

بعد مرور ساعة تقريباً، توقفت الحافلة الصغيرة، وطُلب منهم النزول. توجهت المجموعة فوراً إلى الجهة الخلفية لشاحنة كبيرة مخصصة لنقل الرمل. صحيح أن العتمة حلّت في الخارج، لكن

الظلام كان حالكاً في الصندوق الحديدي بعدما أغلق المهرّبون الباب وحجزوهم في الداخل. التصق الجميع ببعضهم بعضاً من دون أي مجال للتحرك، أو نوافذ أو تهوئة. وسكت الأولاد بشكل غريب. لاحظت دعاء أن هناك امرأة حاملاً، فهمست بصوت منخفض: "لا يملك هؤلاء السفاحون أي ضمير. أشعر بعدم الارتياح حيال ذلك".

أدرك باسم ودعاء من صدى المزامير والموسيقى والأصوات أن الشاحنة تسير في مناطق مأهولة، لكن بعد برهة صدر فقط صوت احتكاك العجلات بالحصى. أمسكت دعاء بيد باسم، فيما نظرت عبر العتمة إلى رفاقها اللاجئين، متسائلة عن الظروف التي دفعت بكل واحد منهم إلى الانطلاق في هذه الرحلة الخطرة. بعد ساعة، توقفت الشاحنة فجأة، ثم فتح الباب الخلفي. تنشقت دعاء الهواء المنعش بامتنان، فقد باتت متصلبة نتيجة الازدحام، وارتجفت ساقاها فيما قفزت للنزول من الشاحنة. اكتشفت أنهم وصلوا إلى شاطئ قاحل. وصل لاجئون آخرون قبلهم، واحتشدوا ضمن مجموعات من العائلات أو الأصدقاء، وجلسوا على الرمل منتظرين بصمت في العتمة.

وبالإضافة إلى الركاب الأربعين الذين نزلوا مع دعاء وباسم من الشاحنة، تواجد مئتا شخص تقريباً على الشاطئ، وباتوا الآن تحت رحمة عشرة وكلاء سفر مجرمين. كان المهربون حفاة الأقدام، ويرتدون جميعاً ملابس سوداء وقد رفعوا سراويلهم حتى الركب. طلبوا من اللاجئين الحفاظ على الصمت التام، وشرحوا لهم أنهم يفعلون كل ما هو ممكن لتفادي الشرطة وحرس السواحل، ولكنهم دفعوا في الحقيقة المال للمسؤولين ليغضوا الطرف عن التهريب.

تحققت دعاء من ساعتها، وكانت تشير إلى الحادية عشرة مساء.

الانتظار بصمت مؤلم جداً. كان الطقس بارداً، وتمنّت لو أنها ارتدت كنزة تحت سترتها الرقيقة.

بعد الانتظار لساعتين إضافيتين، عمد المهربون إلى تقسيم اللاجئين الموجودين على الشاطئ إلى ثلاث مجموعات أصغر من دون أي تفسير. تألفت المجموعة الأولى من مئة شخص، والمجموعتان الثانية والثالثة تألفت كل منهما من خمسين شخصاً. كان باسم ودعاء في المجموعة الأولى. وفور تشكيل المجموعات، سمعوا أحد المهربين يصرخ: "اركضوا!". حمل باسم كيسهما وانطلقا معاً في الليل المعتم صوب صوت الأمواج المتكسرة. كان الجو غائماً، والظلمة حالكة، وبالتالي تصعب الرؤية. لم تستطع دعاء حتى رؤية يديها المتمايلتين أمامها أثناء المشي. بعد دقائق قليلة، طلب منهم صوت التوقف، والحفاظ على الهدوء، ثم الانطلاق مجدداً. استطاعوا سماع صوت تلاطم الأمواج، والأنفاس القوية لرفاقهم المسافرين، ولكن من دون معرفة اتجاههم لولا تعليمات المهربين. تكيفت عيونهم مع العتمة، ولكنهم لم يروا أي مركب.

وعوضاً عن ذلك، وفيما شقوا طريقهم صوب الشاطئ، صادفوا مجموعة من حراس السواحل النائمين على الشاطئ. عند رؤيتهم، عادت المجموعة كلها أدراجها وراحوا يركضون في الاتجاه المعاكس. كان باسم ودعاء يركضان في مقدمة الحشود، وعندما سمعا صوت إطلاق نار وصيحات: "أيها الكلاب توقفوا!" ركضا أسرع وصرخا للاجئين الآخرين: "إنه فخ! اركضوا!".

أمسك باسم بيد دعاء فيما ركضا. كان الكيس الأسود معلقاً على

ظهـره، فأتعبـه. حاولـت دعاء إقناعه بالتخلص منه، قائلة له إنه ما من شيء مهم فيه، إلا أنه أصرّ على حمله قائلاً: "لا، فكل ذكرياتنا موجودة في الداخل". ثم تعثر فجأة ووقع. بات حرس الساحل قريبين منهم، فرفعتـه دعـاء إلـى الأعلـى وتابعا الركـض. المجموعـة التي ركضت معهما باتت أصغر حجماً؛ فقد استسـلمت العائلات المشـتملة على الأولاد والكبـار فـي السـن؛ إذ عجـزوا عن الهرب مـن الحرس. ثمة فتاة بعمر دعاء كانت تركض بمحاذاة دعاء وباسـم. أضاعت عائلتها وأرادت التوقـف، لكـن دعاء أمسـكت بيدها وقالـت لها: "ابقي معنا. سوف نساعدك".

عندما وصلوا أخيراً إلى الطريق الرئيس، تحققت دعاء من ساعتها مجدداً، فوجدتها تشير إلى الثالثة من بعد منتصف الليل. لقد ركضوا طـوال سـاعتين تقريبـاً. ما مـن منازل على امتداد هـذه الطريق، وإنما صحراء قاحلة، وانضم إليهم سريعاً سوريون آخرون من مجموعتهم. تحدث أحدهم عبر هاتفه بصوت عالٍ مع أحد المهربين، طالباً منه أن يأتوا لاصطحابهم. وبعد انتهاء الاتصال، انهال عليه سيل من الأسئلة. أيـن هـم؟ هـل نصـب المهربون هذا الفـخ عمداً؟ هل كانـوا يعرفون أن حـرس السـواحل سـيكونون موجوديـن هناك؟ قـال أحد الرجال: "تحصل اعتقالات دوماً. فهذا يسـمح لحرس السـواحل بإظهار أنهم يـؤدون مهمتهـم. ثـم يحصلون على حصة من الأربـاح من المهربين للسماح لمن بقي من المجموعة بالصعود إلى القارب".

فأدركـت دعـاء السـبب الذي دفـع المهربين إلى تقسـيمهم إلى مجموعات.

توجّه باسم ودعاء والفتاة التي ساعداها صوب الطريق المجاور،

واستطاعت دعاء رؤية مجموعة من المزارع أمامهم. وفيما شقت طريقها مع باسم صوب المزارع، نظرت دعاء إلى الخلف للتأكد من أن الفتاة بقيت مع مجموعة أخرى من السوريين.

وفيما تابعا سيرهما، رأت دعاء مجموعة من أكثر من عشرين رجلاً يحملون العصي والسكاكين ويتوجهون صوب مجموعتهم. قال لهم أحدهم فيما اقترب منهم، وحاول أن يبدو ودوداً: "تواصلت مع أحد المنظمين، وطلب مني مساعدتكم. سوف نعيدكم إلى القارب". شعر باسم ودعاء بالسوء حيال هؤلاء الرجال، ولكنهما لم يعرفا ما يجدر بهما فعله. ونظراً لعدم وجود أي خيار بديل، لحقا بالرجال في طريق جانبي.

في البداية، كانت معهما مجموعة أخرى من اللاجئين، ولكن بعد فترة وجيزة لاحظا أنهما باتا وحدهما. سأل باسم: "أين الآخرون؟".

فنظر إليه أحد الرجال وقال بفظاظة: "لا تقلق بشأنهم!".

وقال رجل آخر: "سوف يلحقون بكما. تابعا سيركما وإلا فستجدكما الشرطة وتعتقلكما".

قال باسم لدعاء: "ابقي بالقرب مني". إذ كانت الفتاة الوحيدة في المجموعة، وخشي أن يخطفها الرجال أو يغتصبوها من دون أن يتمكن من ردعهم. اقتربت دعاء من باسم أكثر، وشعرت أنهما ارتكبا خطأ فادحاً في اللحاق بهؤلاء الرجال. جعلا نفسيهما في آخر المجموعة، وتهامسا للتوصل إلى خطة، ثم توقفا عن المشي فجأة، وقال باسم: "نريد انتظار الآخرين".

حينها طوّقهما المهربون، ما أكد مخاوف دعاء وباسم، وطلبا منهما تسليم كل مالهما وسترتيهما.

فأجاب باسم: "لا نملك أي شيء. أعطينا كل ما نملكه للمهربين المسؤولين عن الرحلة". ثم أمسك بيد دعاء وانطلقا صوب الطريق الرئيس، فيما لحق بهما المهربون وهم يطلقون عليهما الإهانات. وصل باسم ودعاء إلى الطريق الرئيس وهما يلهثان بشدة، على أمل ألا يحاول المهربون فعل أي شيء أمام السيارات التي باتت الآن تمرّ بكثرة. وراحت دعاء تبكي نتيجة الإرهاق والخوف، فيما حاول باسم التلويح بيده لتوقيف سيارة ومواساتها في الوقت نفسه. وقفت دعاء معه، على أمل أن يتعاطف سائق مع ثنائي أكثر مما قد يفعل مع رجل واحد. بات فمها جافاً، وشعرت أنه سيغمى عليها نتيجة العطش والخوف واليأس. فجأة، سمعت "باسم" يصرخ: "دعاء انتبهي!". ولم تدرك بعدها سوى أنه تم ضربها على جانبها وطرحها أرضاً. نظرت دعاء إلى الأعلى، ورأت أن شاحنة قد انحرفت صوبها وكادت تسحقها لو لم يصرخ لها باسم.

مرّت عدة سيارات، لكن لم تتوقف أي منها للمساعدة. خشي باسم ودعاء أن يكونا تحت مراقبة العصابة التي تنتظر عودتهما. وأخيراً، لمحت دعاء سيارة شرطة تقترب، وشعرت بارتياح غريب وقالت: "فلنسلّم نفسينا يا باسم. فهذا أفضل لنا من التعرض لهجوم أولئك السفاحين". وافقها باسم الرأي، وركضا معاً صوب الطريق. فجأة، توقفت سيارة الشرطة قربهما، وخرج منها رجال الشرطة ساحبين مسدساتهم. وضعوا باسم أولاً قرب السيارة لتفتيشه، فيما بدأت دعاء تبكي مجدداً. ثم سألتهما الشرطة عن اللاجئين الآخرين، فكذبت دعاء وقالت: "لا نعرف مكانهم. قررنا تسليم نفسينا". وطلبا الماء عندما جلسا على المقعد الخلفي في سيارة الشرطة، فأعطوهما

قنينة تشاركاها.

فتشت الشرطة المنطقة إلى حين انبلاج الفجر بحثاً عن الآخرين الذين كانوا يحاولون مغادرة البلاد بطريقة غير شرعية. وقرابة الساعة السادسة صباحاً، توقفت سيارة الشرطة أمام مكان على الشاطئ، حيث لمح حرس الشواطئ اللاجئين للمرة الأولى. لاحظت دعاء وجود ثكنة عسكرية صغيرة مخبأة في العتمة، وتعرفت إلى العديد من رفاقهم المسافرين- بمن فيهم أربعون امرأة تقريباً وعدة أولاد- الجالسين على الأرض. كانت أيدي الرجال مربوطة خلف ظهورهم. طُلِب من دعاء وباسم الانضمام إلى المجموعة، فجلسا على الرمل، ووضعا الكيس بينهما. أحست دعاء بالغثيان والدوار. فقد ركضت لساعات عدة من دون طعام أو ماء أو راحة. تعرفت إلى المرأة الحامل التي رأتها في الشاحنة عندما قالت لها: "تبدين مريضة جداً يا عزيزتي". وأعطت دعاء علبة صغيرة من عصير البرتقال مع قشة. ارتشفت دعاء العصير الحلو والفاتر وأحست بالتحسن فوراً.

فجأة، ومن دون أي تفسير، بدأت الشرطة تصادر أكياس الجميع. لم تثق دعاء في الشرطي عندما قال إنه سيعيد إليهم كل شيء، وأحست أنه تمت مصادرة جزء من هويتها. وقرابة منتصف قبل الظهر، عندما أصبحت الشمس أكثر قوة، شعرت دعاء بالتململ، وذهبت للبحث عن كيس الخيش الخاص بها، فطلب منها الشرطي العودة إلى حيث كانت جالسة، وقال إنه سيجد لها الكيس. وبعد دقائق قليلة، عاد إليها زاعماً أنه لم يستطع إيجاده.

لم تصدقه دعاء، وقالت له: "أرجوك، من المهم أن أستعيد أغراضي. لا مشكلة لدي في أن أبحث بنفسي". ووقفت لمواجهته.

بـدت صغيـرة جـداً قبالة الرجل عريض الكتفيـن، فلان قلب الرجل، وأرسـل ثلاثة من معاونيه مع دعاء للبحث عن كيسـها. أخذتهم إلى المكان حيث رأت الأكياس، غير أنها لم ترَ سوى قطع ملابس مبعثرة على الأرض. وعندما لمحت سـروالها مجعداً ومرمياً على الأرض، عادت إلى الشرطي ووقفت أمامه قائلة: "لقد أخذت أغراضي!".

فنظر إليها وقال: "كيف تجرؤين على اتهامنا بالسرقة!؟".

لكـن دعـاء لـم تتراجـع، فالكيـس يحتـوي على كل مـا تملكه. "تمت سـرقته. والأغراض الموجودة فيه مهمة بالنسـبة إليّ". لكن، لا جـدوى؛ فقـد اختفت أغـراض الجميع. فكرت في علبة المجوهرات الصغيرة التي أحضرتها من سـوريا وفي القرآن، وتسـاءلت عن قيمة أغراضها بالنسبة إلى رجال الشرطة هؤلاء. غير أنها شعرت بالامتنان لأن "باسم" أخفى جوازات السفر والمال تحت ملابسهما، لكن بعض الأشخاص وضعوا جوازات سفرهم وأموالهم في أكياسهم، وبالتالي خسروا كل شيء.

بعـد انتظـار مؤلم تحت الشـمس الحارقة، طُلِب من المجموعة الوقوف معاً لالتقاط صورة فوتوغرافية، ثم تم توجيه النساء والأطفال إلـى الجهة الخلفية من شـاحنة عسـكرية مفتوحـة نقلتهم إلى الطريق الرئيس. جلسـت دعاء في الجهة الخلفية قرب امرأة قالت إن اسـمها هدى، وإنها حامل في الشهر الرابع. لم تتخيل دعاء أنه بإمكان امرأة حامـل إتمـام هـذه الرحلة الصعبة، وقالت ذلـك لهدى. فأجابتها فيما وضعت يدها على بطنها: "لا نملك مسـتقبلاً هنا. سـأغادر من أجل مستقبل الولد".

وعلـى الرغـم مـن وجود مكان في الجهة الخلفية من الشـاحنة،

أجبر الرجال- وهم نحو خمسين رجلاً- بمن فيهم باسم، على السير على أقدامهم تحت شمس الظهيرة الحارقة مسافة أميال عدة للوصول إلى الطريق الرئيس وهم مكبّلو الأيدي. وعندما سُمِح لهم أخيراً بالصعود إلى الشاحنة، جلس باسم بالقرب من دعاء وقال لها: "هل أنت بخير؟". فيما أمسك بيدها. كانت شفتاه جافتين ومشققتين. "لم أدرك أن الأمر سيكون صعباً لهذه الدرجة".

انطلقت الشاحنة مجدداً، وأخذهم الجنود إلى مركز برمبال في بلدة ماتوبوس الريفية في ضواحي الإسكندرية. وهناك، انفصل باسم ودعاء، وتوجّب على دعاء الانتظار في الصف مع النساء الأخريات لالتقاط صورة لها، ثم أجبرت على التوقيع على مستند تعترف فيه بأنها حاولت مغادرة مصر بطريقة غير شرعية. ثمة رجل من فرع الأمن القومي طرح عليها أسئلة بشأن المهربين. ما هي أسماؤهم؟ كيف شكلهم؟ كم دفعتم من المال؟ من أين غادرتم؟ أجابت بأفضل ما يمكنها، وقالت إن أحد الرجال يدعى أبا محمد.

فقال رجل الأمن ممازحاً: "يبدو لي أن الجميع يدعون أبا محمد". نظر إليها رجل أمن آخر وقال بلطف: "لا تذهبوا مع أولئك المهربين، فهم ليسوا جيدين". وقيل لها إنه حكم عليها وعلى باسم بالسجن لمدة عشرة أيام لمحاولتهما مغادرة البلاد بطريقة غير شرعية، وتم اصطحابها إلى غرفة مزدحمة أصلاً بالنساء والأولاد، فيما تم احتجاز الرجال في موقع آخر. لم تكن هناك مياه للاستعمال، وكان الحمام معطلاً. الرائحة الكريهة والذباب المتطاير جعلا دعاء تشعر بالغثيان، فلم تستطع الأكل. حصل كل فرد منهم على حصيرة صغيرة للنوم عليها، ولكن من دون بطانية، ومن دون أي مكان للاستحمام.

لـم تكـن دعـاء تملك ملابـس أخرى، ولا مجال أبداً لإبقاء ملابسـها نظيفة، ما زاد من تعاستها.

ومـع مـرور الأيـام، أصيـب الأولاد بـداء الجـرب، ووجـدت أمهاتهـم صعوبـة في منعهم مـن البكاء. جاءت موظفات من مفوضية الأمم المتحدة للاجئين لمقابلتهم، والتحقق من أوضاعهم، والتحدث معهم، وتسليمهم الطعام ولوازم الحمام والبطانيات واللوازم الطبية. سُمح لدعاء بإجراء اتصال هاتفي مع عائلتها، فاستطاعت التكلم مع أمهـا وطمأنـة أهلهـا وإخبارهم بأنه سـيتم إطلاق سـراحها خلال أيام قليلة.

جاء مسعف طبي من منظمة "أطباء بلا حدود" لزيارتهم، وفحص دعاء، وألحّ عليها لتناول الطعام والاهتمام بصحتها. وخلال جولاته علـى قسـم الرجـال، فحـص "باسـم" أيضاً، وقال له إن صحته سـيئة، وأشـار إلـى أن نتـوء فكيـه دليل على سـوء التغذية وقلّـة المأخوذ من الطعـام. لكـنّ الطبيـب لاحظ أن معنويات باسـم مرتفعة، وسـأله عن وضعـه. فأخبـر باسـم الطبيب أنـه كان متوجهاً إلى أوروبـا لبدء حياة جديدة مع خطيبته دعاء الموجودة في سـجن النسـاء، وكيف أنه كان ينوي الذهاب معها إلى السويد لفتح صالون حلاقة خاص به والزواج. وعندما اكتشف أن الطبيب فحص دعاء، استفسر منه عن حالتها. وفور الانتهاء من الفحص الطبي، نهض باسـم واقترب من أحد الحراس، وتوسّـل إليـه ليسـمح لـه بزيارة خطيبتـه. رفض الشـرطي ذلك، لكن "باسم" ظل مصرّاً، وتوسل إليه قائلاً: "بضع دقائق فقط". وانضم إليه الرجـال الآخـرون المسـجونون لدعمه: "ألا ترى أنـه مغرم؟". فوافق الحارس أخيراً، وسمح لباسم بزيارة دعاء لبضع دقائق. وتكرر الأمر

نفسه كل يوم حتى الإفراج عنهما قبل يوم واحد من مدة الأيام العشرة. أصبح الثنائي الشاب مفضلاً عند الحراس والسجناء الآخرين .

ومع انتهاء فترة السجن، تم اصطحاب باسم ودعاء وثمانية سوريين آخرين إلى الإسكندرية، حيث ملأوا استمارات لتجديد إقامتهم ودفع غرامة. وفي طريق العودة إلى جمصة، اتصل باسم بأحد المهربين وسأله: "لماذا أبلغتَ عنا؟". غير أن الرجل أنكر تورطه في ذلك، وسأله إذا كانا يريدان المحاولة مجدداً للذهاب إلى أوروبا، وذكّره بأنه لا يزال يحتفظ بمالهما. فقال له باسم إنه سيعاود الاتصال به، وأنهى الاتصال.

كانت عائلة دعاء في انتظارهما عندما وصلا إلى البناية. وللمرة الأولى منذ عشرة أيام، استحم باسم ودعاء. حضّرت هناء الطبق المفضل لدعاء، الملوخية مع الكزبرة والثوم والبصل والأرز. وجاء الجيران لسماع معاناتها، وحذروها من محاولة المغادرة مجدداً، قائلين لها إن السلطات باتت أكثر صرامة، وإنهما قد لا يتمكنان من النجاة بسهولة في المرة الثانية.

لكن الآن، في آب 2014، أصبح اللاجئون السوريون في مصر منزعجين جداً. إذ امتدت الحرب إلى كل أطراف بلدهم، وتلاشت آمالهم بالعودة إلى سوريا، وحلّت المجموعات المتطرفة المرتبطة بالقاعدة والمنظمات الإرهابية الجديدة مثل جبهة النصرة والدولة الإسلامية مكان المعارضة المعتدلة التي أخفقت في السيطرة. ولم يعد هناك طرفان فقط في المعركة في سوريا، وإنما صارت هناك مجموعة من اللاعبين الساعين وراء الأرض والسلطة. معظم الذين شاركوا في التظاهرات في آذار من العام 2011 خسروا حياتهم أو

هربوا من البلاد. وفي السنة الرابعة من الحرب، بقي عدد ضئيل من الذين حاربوا النظام محافظين على مبادئ حركة المعارضة الأساسية. راحت مجموعات المعارضة تحارب بعضها بعضاً. والميليشيات المعتدلة- مثل الجيش السوري الحر- لم تحارب النظام فقط، وإنما أيضاً المتطرفين من داعش. وبالنسبة إلى الحكومة، جاء مقاتلون من حزب الله- المجموعة العسكرية الشيعية الإسلامية والحزب السياسي المتمركز في لبنان- ومن إيران لتعزيز قدرات النظام والتأسيس لحرب عالمية ستدفع بروسيا إلى الوقوف إلى جانب النظام، والمملكة العربية السعودية وقطر وتركيا إلى الوقوف مع الجانب الآخر. وأخيراً، انضمت الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا إلى القتال ضد نظام الأسد وداعش على حد سواء، وانهارت محاولات الأمم المتحدة الحثيثة خلال محادثات السلام، كما فشلت محاولات وقف إطلاق النار.

فرغت المدن السورية مثل درعا من سكانها الأصليين الذين غادروا منازلهم المهدمة للبحث عن الأمان في أنحاء أخرى من البلاد، أو عبر الحدود، أو حتى عبر البحر الأبيض المتوسط. استمر العديد من أصدقاء باسم الذين نجحوا في الوصول إلى أوروبا بتشجيعه على فعل الشيء نفسه، وقالوا له إن الرحلة ستكون صعبة لبضعة أيام في البحر، ولكن الأمور كلها ستصبح بعد ذلك على ما يرام؛ وفق ما أكدوه له. لقد عبر أصدقاؤه البحر الأبيض المتوسط، ووصلوا إلى ألمانيا والسويد وهولندا، وها هم الآن يدرسون أو يعملون هناك. وقد أخبروه خلال محادثات الفايسبوك أنهم استطاعوا تعلم اللغة خلال ستة أشهر، وتمكنوا بعدها من العثور على عمل بسهولة.

تعاطفت أوروبا مع اللاجئين السوريين في تلك المرحلة. وازداد عدد السوريين الواصلين إلى أوروبا، غير أن العدد بقي ضئيلاً نسبياً- فأقل من ثمانين ألف سوري وصلوا خلال العام -2014 وأدركت الحكومات أنهم هاربون من الحرب، ولذلك منحتهم بسرعة حق اللجوء.

لطالما وجدت الحكومات الأوروبية أن احتواء اللاجئين بالقرب من الدول التي هربوا منها أفضل سياسياً؛ بمن في ذلك اللاجئون السوريون في الدول المجاورة لسوريا والبالغ عددهم ثلاثة ملايين. وقد ازداد التمويل الدولي لتمكين مفوضية الأمم المتحدة للاجئين وشركائها من توفير المأوى، والطعام، والتعليم، والرعاية الصحية. ولكن رغم ذلك لم تتمكن من تلبية الاحتياجات المتزايدة لمجموعات اللاجئين. والموظفون السوريون الذين كانوا في ما مضى من الطبقة الوسطى باتوا الآن يعيشون على حدود الفقر، ويكافحون لتسديد الإيجار في ضواحٍ فقيرة، ويقبلون بالعمل لدى أرباب عمل مستغلين. فقد أرادوا الحصول على مدخول مادي بأية طريقة ممكنة، حتى إن العديدين منهم أرسلوا أولادهم الصغار إلى العمل بدلاً من المدرسة؛ لقطف الخضار مقابل 4 دولارات فقط في اليوم، أو لبيع الأزهار في شوارع المدينة. وفي غضون ذلك، أصبح اللاجئون أكثر توقاً للانتقال إلى بلاد يمكنهم فيها العمل بصورة شرعية، وحيث يستطيع أولادهم الذهاب إلى المدارس.

عندما بدأ السوريون بالوصول إلى الشواطئ الإيطالية بأعداد كبيرة، طلب السياسيون الأوروبيون تعاون الدول التي جاء منها اللاجئون، مثل مصر، بهدف إيقاف المراكب. وتم تقديم حوافز مالية

للقضاء على المهربين، وفرض غرامات وعقوبات على اللاجئين الذين يحاولون مغادرة البلاد بطريقة غير شرعية. كانت الرسالة واضحة: ابقوا في منطقتكم. لكن، بالنسبة إلى السوريين مثل دعاء وباسم، كانت مصر تخنق أحلامهم.

بعدما أنهى باسم ودعاء وجبة الطعام، توسلت إليهما هناء لعدم المغادرة مجدداً. لكنهما عندما ناقشا لاحقاً ما يجدر بهما فعله، قالت دعاء لباسم: "من الأفضل أن نموت في البحر بسرعة بدل أن نموت في مصر ببطء". عند سماعه ذلك، رفع باسم الهاتف وعاود الاتصال بالمهرّب.

بعد أيام قليلة، تلقّيا اتصالاً هاتفياً أعلمهما بالموعد الجديد للمغادرة والذي كان مقرراً في اليوم التالي. هذه المرة، تم توجيههما إلى شقة صغيرة في الإسكندرية، حيث احتشدت أربع عائلات كانت قد وصلت قبلهما في انتظار إشارة الانطلاق. وهذه المرة، ركبوا في الحافلة في الليلة نفسها. ومجدداً، كانت الحافلة مزدحمة بالعائلات، مع مهرّبَين كانا يتلقيان اتصالات كل بضع دقائق، فيعطيان أوامر للسائق الذي راح يبدّل وجهته حسب التعليمات. همست دعاء لباسم فيما اتكأت عليه: "إنهما لا يعرفان ما يفعلانه". فجأة، أسرعت الحافلة في سيرها، وأعلن أحد المهربين أن هناك سيارة شرطة خلفهم. قاد السائق الحافلة بعيداً عن الطريق المعبد ووصولاً إلى طريق حصوية تخص مزرعة كبيرة، ثم انطلقت الحافلة بسرعة. صرخت النساء وبكى الأولاد، فيما غاصت العجلات في الحفر التي كانت تملأ الطريق، وكادت الحافلة ترتطم بأشجار النخيل. أطلق رجال الشرطة النار، وأصابوا الجهة الخلفية من الحافلة وجانبيها. بعد ذلك، شعر

باسم ودعاء أن الحافلة ارتطمت بجدار وتوقفت فجأة. وسرعان ما طوقتها الشرطة، وأمرت المهربَين بالنزول أولاً. وضع رجال الشرطة كيساً على رأس كل من المهربَين، ثم ربطوا كل كيس عند العنق، وأجبروهما على خلع كل ملابسهما باستثناء الملابس الداخلية. وبعد ذلك، قام رجال الشرطة بتكبيل المهربَين، ومن ثم ركلوهما وضربوهما في مشهد مذلّ أمام مجموعة اللاجئين الذين راقبوا ما يجري.

قال شرطي لدعاء فيما ضحك عالياً: "لقد عدتما! أهلاً بكما مجدداً أيها العزيزان". تذكّرته دعاء فوراً، إذ كان الشرطي الذي ألقى القبض عليهما في المرة الأولى. توسّل إليه باسم كي لا يأخذهما إلى السجن مجدداً، وعرض عليه بدل ذلك دفع المال لإطلاق سراحهما. في البداية، رفض الشرطي عرضه، ولكنه عاد لاحقاً مع عرض منافٍ للعقل. فقد كان مستعداً لإطلاق سراحهما مقابل 5000 دولار. عندها، أدرك باسم ودعاء أنهما سيعودان إلى السجن.

في البداية، تم اصطحابهما إلى منصة كانت تستخدم بمثابة ثكنة عسكرية لقضاء الليل. وفي اليوم التالي، تم نقلهما إلى مركز الشرطة نفسه كما في المرة السابقة للتوقيع مجدداً على مستندات يعترفان فيها بمغادرة البلد بطريقة غير شرعية، وتمت إعادتهما إلى السجن نفسه كما في السابق.

في يومهما الثاني في السجن، استيقظت دعاء وهي تشعر بصداع قوي وغثيان. إنه 28 آب، أي الذكرى السنوية الأولى لخطوبتهما، وكانت دعاء يائسة جداً. كيف نجح الآخرون في الوصول إلى أوروبا، فيما يعجزان عن ذلك؟!

سيطر ألم حاد على أسفل ظهرها، وبدأ يمتد إلى جانبيها، فجلست في إحدى الزوايا، وطوت ركبتيها أمام صدرها. طلبت من الحراس أن يفحصها طبيب، ولكن توجّب عليها الانتظار رغم ألمها الشديد حتى موعد الجولة العادية لطبيب منظمة "أطباء بلا حدود" الذي كان يُفترض أن يأتي في اليوم التالي.

وعندما رأى الطبيب حالة دعاء، أمر بإخراجها من السجن ونقلها إلى المستشفى على الفور. وبعد عدة اتصالات هاتفية مع المسؤولين عنه، حصل الشرطي المسؤول على الإذن، وقام شرطيان من مركز الاحتجاز بنقل دعاء والطبيب إلى أقرب مستشفى، والذي كان على بعد ثلاثين دقيقة. أحست دعاء بالذل؛ إذ رافقتها الشرطة، وأدركت أن جميع من في غرفة الانتظار يحدقون إليها.

عندها، أشفق عليها رجلا الشرطة- وكلاهما في العقد الخامس من العمر، وذكّراها بوالدها- وأخبرا الجميع أنها ليست مجرمة. ثم طلبا من موظفي المستشفى إجراء الفحوصات اللازمة لها. رافقتها ممرضة إلى غرفة لإجراء صورة بالأشعة السينية، وساعدتها على خلع ملابسها، ثم نظرت إلى جسم دعاء وبدأت تبكي قائلة لها: "أنت نحيلة جداً!". ثمّ رافقتها إلى ميزان، ولاحظت أن وزن دعاء ثمانية وثمانون باوند فقط (أي 40 كيلوغراماً تقريباً). وثقت دعاء في الممرضة، وروت لها قصتها، وكيف انتهى بها الأمر في السجن. فاعترفت لها الممرضة أنها تكره بشار الأسد ولكنها تحب الشعب السوري. ثم وضعت عشرة جنيهات في يد دعاء لشراء "سندويش"، وبدأت تتلو آية من القرآن، فتأثرت دعاء كثيراً بلطف الممرضة. وعندما دخل الطبيب الغرفة، قالت له الممرضة: "اهتم بها كما لو أنها ابنتك". وأثناء

الفحـص، أكـد الطبيـب أنـه ما من التهاب في الزائـدة الدودية، ولكنه شـخّص وجـود حصـى في الكليتين والتهاب فـي المعدة، وقرر إبقاء دعاء في المستشفى طوال الليل لمراقبتها.

وعندمـا عـادت إلى السـجن في اليوم التالـي، اهتم بها الحراس كثيـراً، وكانـوا يطرقـون على زنزانة النسـاء للتأكد من أن دعاء أخذت أدويتهـا. كمـا زارها باسـم أيضاً عندما أبلغـوه بما حصل، وطلب من النسـاء الأخريات الاهتمام بها. وبعد مرور عشـرة أيام، أُعيد إطلاق سـراحهما مجدداً، وقال لهما الشـرطي المسـؤول: "لا تحاولا الفرار من مصر مجدداً. وحظاً موفقاً".

غيـر أن دعـاء قـررت مجـدداً أنه يجدر بهمـا التجربة مرة أخرى للذهـاب إلـى أوروبـا. فرغم أن تجربتها في السـجن كانت مهينة، إلا أنها بدّلت نظرتها إلى الأمور؛ فبدت لها فكرة استئنافهما حياتهما في مصر مستحيلة. رفض باسم المحاولة مجدداً، لكنّ المهربين كانوا لا يزالون يحتفظون بالمال. وهكذا، أجرى باسم الاتصال، وتم إعطاؤه عنواناً آخر في الإسكندرية. إنه السيناريو نفسه، ولكن الشقة مختلفة. وجدا في المنزل عائلة سـورية أخرى مؤلفة من زوج وزوجة وأربعة أولاد، وكانـوا لاجئيـن مصممين علـى المخاطـرة بحياتهم على أمل الحصول على مستقبل أفضل من الحياة البائسة التي يعيشونها الآن.

الفصل الثامن

بداية الكابوس

في تمام الساعة الحادية عشرة صباحاً من 6 أيلول 2014، جاء الاتصال. وضّبت دعاء ملابس احتياطية لها ولباسم، مع فرشاتَي أسنان، وكيس بلاستيكي وضعت فيه بعض التمر، وقنينة كبيرة من الماء، ثم وضعتها كلها داخل حقيبة ظهر "ميكي ماوس" التي احتفظت بها من أيامها الدراسية في سوريا. كما لفّت جوازَي سفرهما وعقد زواجهما في ورقة من النايلون، ومن ثم في كيس من النايلون ربطته بإحكام. وبعد ذلك، وضعت هاتفها الخلوي والمحفظة المشتملة على خمسمئة يورو ومئتَي جنيه مصري في كيس بلاستيكي منفصل. ربطت كلاً من الكيسين المربوطين بإحكام بإحدى حمّالتَي "بلوزتها" الحمراء التي شكلت أول طبقة من طبقات الملابس الأربع التي اختارتها للرحلة بعناية. تعرّقت بشرتها فور التصاق كيسَي النايلون بها بسبب ارتفاع الحرارة والرطوبة.

خمس حافلات صغيرة كانت في انتظارهما خارج مجمّع سكني في الإسكندرية، وفيها العديد من اللاجئين السوريين والفلسطينيين الذين نظروا إليهما من دون التفوه بكلمة. صعد باسم ودعاء إلى

إحدى الحافلات، ووجدا مقعداً واحداً في الجهة الخلفية فتشاركاه، فيما حشرا الحقيبة وسترتَي النجاة بينهما وبين النافذة. كان الأشخاص ملتصقين ببعضهم بعضاً، فصارت دعاء تتنفس بصعوبة، وامتلأ الجو بالتوتر فيما تقدمت الحافلة صوب الطريق السريع وصارت جزءاً من موكب الحافلات الأخرى. لفّت دعاء سترتها حول وجهها، كما لو أن هذا قد يحميها من رجال أمن ربما كانوا يراقبونهم. وعندما أحست على أنها على وشك الإغماء نتيجة احتقان الهواء داخل الحافلة، توقفوا في محطة للشاحنات بالقرب من حافلة أخرى كبيرة، ثم طُلب منهم النزول والانضمام إلى الركاب الآخرين في الحافلة الكبيرة. كان ركاب الحافلة الثانية جالسين أصلاً في أحضان بعضهم بعضاً، أو واقفين بالقرب من بعضهم. سمعوا من داخل الحافلة صوتاً يقول: "ادخلوا أيها الكلاب! الرجال في جهة، والنساء في الجهة الأخرى". لكن عدد النساء والأولاد كان أكبر من عدد الرجال، فانهارت تلك القاعدة على الفور. صرخ مهرّب آخر بصوت مرعب: "إذا فتح أحد فمه، فسنرميه إلى الخارج عبر النافذة". من بين جميع المهربين الذين تعامل باسم ودعاء معهم سابقاً في محاولتيها السابقتين للمغادرة، كان هؤلاء المهربون الأكثر فظاظة.

عندها، راح باسم الذي يتولى عادة مهمة طمأنة دعاء يفكر في طريقة لنزولهما من الحافلة. إذ لم يثق قط في الرجال المسؤولين، وخاف من كلمات دعاء حين جلسا: "أشعر بأننا ذاهبان إلى موتنا".

فقبل أيام قليلة، فيما كانا يشربان القهوة على الشرفة، قالت له دعاء إنها لا تستطيع أن تتخيل وجودهما في إيطاليا أو السويد أو أي مكان آخر في أوروبا، مهما حاولت جاهدة. فكل شيء معتم بالنسبة

إليهـا بعـد أن يصعـدا علـى متن المركب؛ كما لو أن باب المنزل فُتِح، ولكن ما من شيء داخل المنزل سوى الفراغ. فقالت لباسم بصراحة: "سـوف يغرق المركب". غير أن "باسـم" تجاهل ملاحظتها، ومازحها قائلاً إن خوفها من الماء يؤثر فيها، ولكنه الآن بات يشـك في صحة قرارهما.

وفيما كان على وشك مشاركة دعاء مخاوفه، انعطفت الحافلة صـوب محطـة للاسـتراحة. وحين غـادرا مقعديهما، وسُـمِح لهما بدخول المتجر لشراء المشروبات واستعمال الحمام شعرا بالدوار. غيـر أنهمـا كانا ممتنين لهذه الاسـتراحة الوجيزة؛ حتى لو اقتصرت على شراء وجبة خفيفة. لكن عندما طُلب منهما العودة إلى الحافلة مجـدداً، مـن دون أي معلومـات عن المكان الذي يتوجهون إليه أو مـدة الرحلـة، ومـن دون أيـة ثقة في المهربين، عـادت إلى الواجهة فكـرة مغامرتهمـا بحياتيهمـا. عندهـا، أراد باسـم البقـاء فـي محطة الاستراحة، لكن دعاء خشيت أن يؤذيهما المهربون إذا فعلا ذلك، لاسـيما وأنهم كانوا يضربون الأشـخاص الذين يمشـون ببطء أثناء صعودهـم مجـدداً إلـى الحافلة. وهكذا، عادا إلى الحافلة، ولم يعد قدرهما بين أيديهما.

كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة مساء عندما انطلقت الحافلة مجـدداً. أقلّتهـم الحافلة في طرقـات فرعية أمام مبانٍ مهجورة أو غير مكتملـة البنـاء، فيما مشـى المهربون داخل الحافلـة، حاملين العصي وملوّحيـن بهـا، وضاربيـن بين الحين والآخر كل الذين بكى أولادهم بصوت عالٍ أو تجرأوا على طرح سـؤال حول مكان ذهابهم. نظرت دعـاء إلـى خـارج النافذة، وتعرفـت إلى لافتة كتب عليهـا "15 مايو"؛

جـزء مـن شـاطئ دمياطـة. فقالت لباسـم: "نحن قـرب المنزل. جئت إلـى هـذا الشـاطئ مع عائلتـي!". بدا جلياً أن المهربيـن اختاروا نقطة انطلاق مختلفة عن تلك القريبة من الإسكندرية، وأنهم أخذوهم إلى الشـاطئ قـرب منـزل دعاء في الجمصة الـذي يبعد بضعة كيلومترات فقط. فرغت بطارية هاتفها، ولذلك سألت رجلاً جالساً قربها إن كان بوسـعها اسـتعمال هاتفه للاتصال بأمها. "سنغادر الآن، ادعي لأجلنا. سوف نتصل بك حين نصل".

فأجابـت هنـاء: "اهتمي بنفسـك يا حياتـي وكوني حذرة. فليكن الله معك".

وفـي تمـام السـاعة الحادية عشـرة مسـاء، توقفـت الحافلة على مسافة نصف كيلومتر تقريباً من شاطئ رملي. وصرخ المهربون: "انزلوا واركضـوا صـوب الشـاطئ!". فخرج الركاب مـن الحافلة، ولاحظوا وجـود حافـلات أخـرى مركونـة هنـاك، ومئـات الأشـخاص أمامهم وخلفهم. تقدّم الأشخاص الذين مشوا أمامهم بصعوبة عبر الموجات الصغيرة. فخلع باسـم خفه، وأمسـك بيد دعاء، وتقدّما صوب الماء. ظن أنهما سيكونان أكثر أماناً إذا أصبحا في مقدمة الحشود، فأمسك بيدهـا، وتجـاوزا العائـلات التـي كان أفرادها يسـيرون مـع أولادهم ببطء. وعندما وصلا إلى الشـاطئ، توسـلت إليه دعاء للانتظار قليلاً قبل التقدم إلى الأمام، وقالت له: "أحتاج إلى استجماع شجاعتي".

فأجابها: "ثقي في إرادة الله يا دعاء، وكوني شجاعة. إنها فرصتنا الوحيدة". وأمسك بيدها فيما خاض في الماء. أحست دعاء بالأمواج تصـل إلـى ربلتَـي سـاقيها، ومن ثم إلى ركبتيها. وسـرعان ما وصلت بسـرعة إلى خصرها، فخشـيت أن تجرفها، وأحسـت أنها تعيش أسوأ

كابوس في حياتها.

تقدم زورق خشبي صغير مطلي باللون الأزرق الفاتح نحوهم، وكان طولـه ثلاثـة أمتـار ونصف المتر تقريباً. لكن للوصول إلى ذلك الزورق، توجب عليهم التخبط بين الأمواج إلى أن وصلت المياه إلى كتفَي باسـم. وصلت المياه إلى مسـتوى أعلى من رأس دعاء، ولكن بفضل سـترة النجاة الرقيقة، وتشـبثها بباسـم بشـدة، نجحت في البقاء طافية. ارتفعت السـترة إلى سـطح المياه وطوّقت وجهها، حيث بقي ذقنها فقط فوق الماء. فأدركت سريعاً أن المتجر الذي باعهما السترتين بخمسـين دولاراً للقطعة الواحدة قد خدعهما. فهاتان السـترتان غير أصليتيـن، وعلـى مـا يبدو ثمـة صناعة جديدة تختص بإنتاج سـترات النجاة المزيفة واسـتغلال اللاجئين. إذ إن بعض حشـوات السـترات مصنوعـة مـن مـواد رخيصـة، لكن في حالة دعاء تألفت الحشـوة من رقاقات رقيقة بالكاد وفرت لها إمكانية الطفو. بذلت دعاء ما بوسعها لإبقاء وجهها فوق الماء والحؤول دون ارتفاع السـترة فوق رأسـها. وحين وصلا إلى الزورق الخشـبي، رفع باسـم جسـمه فوق الحافة، فيمـا تولـى مهـرّب رفـع دعاء. تدفق الناس إلى الزورق الخشـبي إلى أن أصبح عددهم عشرين تقريباً. طُلب من الجميع الجلوس بصمت بمحاذاة بعضهم بعضاً، فيما قام رجل بسحب حبل وتشغيل المحرّك لنقلهم إلى قارب أكبر كان ينتظرهم بعيداً.

وقـف رجـل مصـري- وهـو على ما يبدو مهرّب أيضاً- وسـط الـزورق الخشـبي وقـال: "سـلموا كل الأمـوال وبطاقـات الهواتـف المصريـة الآن! فلـن تحتاجـوا إليهـا فـي أوروبا". ثـم صرخ بصوت عـالٍ عندمـا تـردد النـاس الموجـودون قربه في تنفيذ أمـره. عندها،

لـم يملـك النـاس الجالسـون فـي الـزورق أي خيـار سـوى تسـليم المـال والهواتـف. سـحبت دعاء محفظة النقـود من تحت قميصها، ووضعتهـا بيـن ركبتيها، ثم أخرجت منها مئتي جنيه مصري بسـرية، وأعطتهمـا لباسـم، فيمـا أخفـت ما تبقى من المال مجـدداً، وتركت هاتفهـا الخلـوي مخبـأ تحت حمالـة "بلوزتها". وعندمـا اقتربوا من السفينة التي يفترض بها أن تقلّهم عبر البحار، أحست دعاء بالذعر. فرغم أنهما لم يصدّقا أن السفينة التي ستقلهما إلى أوروبا تبدو فعلاً مثل البواخر السياحية الفخمة التي يتم الإعلان عنها على صفحات المهربين في الفايسبوك، أو سفينة "الأربع نجوم" مثلما وصفها لهما المهرّب عبر الهاتف، إلا أن الوضع التعيس لهذه السـفينة كان أقل بكثير من توقعاتهما. فالطلاء الأزرق متقشر، والحواف صدئة كلها، وشباك الصيد الموضوعة على متن السفينة أظهرت جلياً أن السفينة معدّة للصيد، وليست لنقل الركاب. ورغم ذلك، قالت دعاء لنفسها: نجحنا أخيراً في إنجاز أول خطوة في رحلتنا. وحين أصبح على متن السفينة، لن ألمس الماء مجدداً.

عندما صعد باسـم ودعاء إلى سـطح السـفينة بعد أن تم دفعهما مـن الأسـفل وسـحبهما إلـى الأعلى بمسـاعدة الركاب وجـدا مئات الأشـخاص هناك، وعرفا سـريعاً أن عدداً كبيراً من هؤلاء المسـافرين المنهكيـن موجـودون على متن السـفينة منذ أيـام، ينتظرون في البحر وصـول مجموعـة دعـاء وباسـم للانضمـام إليهـم بهـدف مـلء كل إنـش مربـع من السـفينة. فكلما نجح المهربـون في وضع المزيد من الأشـخاص على متن السـفينة، ازداد ربحهم. وعندما انطلقوا أخيراً، قدّر باسـم وجود خمسـمئة لاجئ على الأقل على متن السـفينة. وإذا

دفع كل راكب 2500 دولار مثلما فعلا، فهذا يعني أن المهربين جنوا مليون دولار من هذه الرحلة، أو ربما أكثر إذا قبضوا المال عن الأولاد. فثمة مئة ولد على الأقل على متن السفينة.

كانت السفينة مزدحمة جداً، وعندما نظرت دعاء حولها تساءلت عن كيفية نجاح الآخرين الذين كانوا موجودين في الحافلات الباقية في إقحام أنفسهم في المليمترات القليلة المتبقية. وفجأة، سمعت أحدهم يصرخ: "الشرطة! الشرطة!". ثم سُمع صوت الرصاص المرتطم بجانب السفينة.

صرخ المهربون: "أخفضوا رؤوسكم!". فيما هدر المحرك وانطلقت السفينة بعيداً. عندها، بدأ الناس يتدفقون إلى سطح السفينة، ويتضرعون بصوت عالٍ كي لا يتم قتلهم. تشبثت دعاء بقوة بحافة السفينة، فيما أخفضت رأسها إلى ركبتيها، وخافت أن تقع من فوق الحافة عندما تنطلق السفينة بسرعة عبر الأمواج العالية. وعندما أصبحوا بعيدين عن مرمى الرصاص، تجرأت على رفع رأسها. نظرت من فوق الحافة، وأدركت أنه لم يعد بوسعها رؤية الشاطئ في العتمة.

وفجأة، أصيبت دعاء بالذعر فيما تمسكت بحافة السفينة؛ إذ تم فصلها عن باسم. فعندما صعدت إلى متن السفينة، تم توجيهها للجلوس على الأرض في قسم النساء في الطابق الوسطي المسقوف، فيما أُرسل باسم إلى الطابق العلوي حيث جلس الرجال. جلست دعاء بين امرأتين، ووضعت ركبتيها على صدرها، وارتجفت وحدها. طُلب من العائلات إيجاد أماكن لهم في الجهة الأخرى من السفينة أو في الطابق السفلي. فاحت رائحة السمك من السفينة، فيما انبعثت

من الحمامات رائحة نتنة جداً جعلت جميع الموجودين على السفينة يشعرون بالغثيان، وتقيأ العديد من الأشخاص نتيجة الأمواج العالية والرائحة الكريهة.

بعد قليل، بدأ الركاب يتعرفون إلى بعضهم بعضاً في همسات يائسة، محاولين إيجاد شيء من حسّ المجموعة وسط يأسهم وخوفهم. كان معظم الركاب سوريين، وانضم إليهم سبع وعشرون عائلة فلسطينية جاءت من غزة، وخمسة وعشرون أفريقياً من السودان والصومال، بالإضافة إلى عشرة قاصرين مصريين. حصل نصف الركاب فقط على سترات إنقاذ، وشكّت دعاء في أن العديد من تلك السترات ليست أفضل من سترتها. وثمة ولد التقته دعاء كان يرتدي سترة إنقاذ صغيرة جداً عليه، حيث وصلت فقط إلى منتصف صدره، فراحت تدعو لأجل سلامة الجميع.

فجر يوم الأحد، بعد ليلة لم يعرف فيها أحد النوم، توقف محرك السفينة مع اقتراب سفينة صيد أخرى منها. ثم طلب المهربون من اللاجئين الانتقال إلى السفينة الأخرى. لم تفهم دعاء المنطق في الانتقال إلى سفينة أخرى، ولكنها سمعت أن هذا الإجراء يتكرر دوماً في مثل هذه الرحلات السرية. فسفن الصيد المختلفة تملك رخصاً للعمل في مساحات مختلفة من البحر، ما يجعل تهريب البشر أقل وضوحاً بالنسبة إلى خفر السواحل. اقتربت السفينتان من بعضهما، ورغم ربطهما معاً، استمرتا في الابتعاد عن بعضهما، ومن ثم الارتطام ببعضهما مجدداً. وقفت دعاء على قدميها، وحاولت الحفاظ على توازنها فيما قفزت من سفينة إلى أخرى، وأمسكت على مضض بيد مهرّب عرض سحبها إلى متن السفينة الثانية، فيما دفعها مهرب آخر

صوبه.

هذه المرة، سُمح للركاب باختيار أماكن جلوسهم، فالتقى باسم ودعاء مجدداً على متن السفينة الجديدة، وأخذها إلى مساحة على ظهر السفينة حيث يمكنهما إسناد ظهريهما. جلسا على سترتَي الإنقاذ وتعانقا. وبما أنه لم يكن هناك مكان للاستلقاء، وضعت دعاء رأسها على كتف باسم، فيما وضع رأسه على رأسها.

وبعد أن انطلقت السفينة، وفي محاولة مقرفة لإظهار التعاطف، مشى طاقم السفينة بين الركاب، ووزعوا عليهم علب لحم متعفن ومنتهي الصلاحية. ففضّل باسم تناول بعض حبات التمر التي أحضراها معهما، لكن دعاء لم تستطع تناول أي شيء على الإطلاق. وعندما تحركت السفينة، تحرك أيضاً كل ما في الحمامات، ففاحت رائحة كريهة جداً علقت في أنف دعاء ووجدت صعوبة في التنفس. غير أنها راحت تقول لنفسها مراراً وتكراراً إنه بعد ثلاثة أيام من هذه المعاناة، سيتم إنقاذهما من قبل السلطات الإيطالية، وسينتهي هذا الكابوس. كلما كان البحر هادئاً خفّ دوار البحر الذي شعرا به قليلاً، وأخرج الركاب الوجبات الخفيفة التي أحضروها معهم- مثل البسكويت والفاكهة المجففة وعلب العصير الصغيرة- وتشاركوها مع بعضهم. ارتفعت معنوياتهم للحظات وجيزة، وتشارك الناس أحلامهم المستقبلية.

راقبت دعاء الناس حولها متسائلة عن الأسباب التي أوصلتهم إلى هنا. فلطالما اهتمت بوضع الفلسطينيين، وعقدت صداقات مع بعضهم الذين عاشوا في المنطقة الفلسطينية في درعا. وكلما شاهدت الأخبار غضبت كثيراً بسبب صعوبة حياتهم في غزة. وعرفت الآن أن

العديد من العائلات اللاجئة الموجودة على متن السفينة هربت من العدوان الإسرائيلي الأخير، فيما جاءت عائلات أخرى من سوريا التي كانت في ما مضى جنة للفلسطينيين، ولكنها أصبحت الآن مكاناً عاجزاً عن حمايتهم؛ إذ يتم استهدافهم بسبب ارتباطهم بحكومة الأسد، أو لعدم رغبتهم في حمل الأسلحة مع أي من الطرفين. لمحت دعاء عائلة مؤلفة من أربعة أشخاص جالسين قربها، فبدأت تتحدث مع الأم في العائلة. عرفت أنهم جاءوا من مخيم اليرموك للفلسطينيين في دمشق، وأنها تحاول مع زوجها عماد بذل ما بوسعهما لتأمين مستقبل ابنتيهما ساندرا البالغة من العمر ستة أعوام، وماسا ذات الثمانية عشر شهراً، واللتين كانتا تبكيان بشدة. سألتها دعاء عن مقصدهم، فقالت الأم إن مقصدهم هو السويد، حيث سافر شقيق زوجها قبل عام واحد مع ابنتها البكر سيدرا البالغة من العمر ثماني سنوات. إذ فكرت هي وزوجها في أنهما في حال أرسلا ابنتهما قبلهما، فثمة احتمالات أكبر بأن يبقى أحد أفراد العائلة على قيد الحياة. طلبت الأم من دعاء أن تحمل ماسا، ثم وقفت على قدميها، وبعد ذلك طلبت من دعاء أن تعيد إليها ماسا كي تأخذها إلى الحمام. شدّت دعاء الجسم الصغير بالقرب من صدرها للحظة، ثم أعطت الطفلة لأمها.

قالت دعاء لنفسها إن جميع الموجودين على متن السفينة يملكون على الأرجح قصصاً حزينة، فيما راقبت ماسا وأمها في طريقهما إلى الحمام. ولكنها لاحظت أن عدداً قليلاً من الأشخاص تحدثوا عن ماضيهم، إذ تركزت الأحاديث عوضاً عن ذلك على المستقبل، وعلى تجاوز محنة هذه الأيام التعيسة في البحر، وبدء حياة جديدة. ومع مرور الأيام، نشأ نوع من التضامن بين الركاب.

حاول الناس مساعدة الأولاد على وجه الخصوص؛ وذلك عن طريق تسليتهم بالحكايات، أو تقديم القليل من الماء لهم، أو منحهم بعض البسكويت بمثابة وجبة خفيفة. لا يوجد هنا أي انقسام مذهبي أو ديني أو عرقي، وإنما يوجد فقط أشخاص يحاولون مساعدة بعضهم بعضاً.

تاقت دعاء إلى المصحف الذي أحضرته معها من سوريا إلى مصر، فهو أغلى ما كانت تملكه. فمنذ سنوات مراهقتها الأولى، حرصت على قراءة بعض آياته كل ليلة قبل الخلود إلى النوم، وأحياناً خلال النهار؛ كلما احتاجت إلى كلمات مواساة تعطيها الإحساس بالطمأنينة. وبعد تلاوة القرآن، كانت دعاء تعيد المصحف إلى علبته المطبعة بنقوش هندسية نافرة باللونين الوردي والأبيض. قالت لنفسها إن تلاوة القرآن بإمكانها تهدئتها الآن، ولكنها سرعان ما شعرت بالغضب عندما تذكرت أن القرآن موجود في كيس الخيش الذي تمت مصادرته لدى اعتقالها للمرة الأولى. فجأة، طغى عليها إحساس بالكراهية تجاه المهربين، وإحساس بالغضب تجاه رجال الشرطة وكل من حاول الاستفادة من يأس اللاجئين أمثالها.

بعد لحظات قليلة، اقترب مهرّب من حيث يجلسون في السفينة حاملاً كتاباً في يده، وقال: "أوقع شخص ما هذا المصحف، فهل يريده أحدكم؟". وكان أول واحد من بين المهربين يتحدث معهم بلطف. عندها، تحدث باسم مع رجل فلسطيني جالس قربه ويدعى "وليد" كان قد أخذ المصحف. فلم يشأ وليد أن يبدو أنانياً، واستدار صوب وباسم ودعاء وقدّم لهما المصحف. عندها، همست دعاء لباسم: "أريد فعلاً هذا المصحف". فابتسم وليد بلطف وقدمه لها.

وعندما لمست المصحف الصغير المقدس، أحست بعودة الطاقة والارتياح إلى جسمها؛ فمجرد إحساسها بالجلد الناعم بين يديها جعلها تشعر بالمواساة. قبّلت غلاف المصحف، ثم فتحته بتوق، وقرأت كلمات الله في الداخل، وشعرت كما لو أنها حملت تعويذة. وفيما كانت تقلّب الصفحات، وجدت قصاصات ورقية صغيرة عليها أدعية مكتوبة باليد. وحين أنهت قراءتها، أغلقت المصحف بعناية، وتأكدت من عدم إضاعة الأوراق، ثم خبأته تحت قميصها بالقرب من قلبها.

في بعض الأحيان، كانت النساء الأخريات الجالسات قرب دعاء يشاركنها في قراءة القرآن، ويتلون الأدعية معها، ويطلبن من الله إيصال السفينة إلى إيطاليا بأمان. المرأة الجالسة إلى يسار دعاء مباشرة أخبرتها عن صعوبة الحياة في أحد مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في لبنان، ثم سألت دعاء عما أبعدها عن سوريا وعن المكان الذي ستذهب إليه. وعندما علمت المرأة الشابة التي عرّفت عن نفسها بأنها أم خليل البالغ من العمر سنتين فقط بخطوبة دعاء وباسم في مصر، وبنيّتهما إتمام زواجهما في أوروبا فرحت كثيراً، وقالت متعجبة: "أنت عروس! سوف نقيم لك زفافاً جميلاً حين نصل إلى أوروبا! سوف نرقص ونغني طوال الليل!". فتأثرت دعاء كثيراً. أما المرأة الأخرى الجالسة قربها، وهي امرأة فلسطينية سورية في خريف العمر، فقالت: "عندما نصل إلى إيطاليا، سنشتري لك أجمل فستان وسنقيم حفلتين؛ الأولى لزفافك، والثانية للاحتفال بوصولنا!".

قالت أم خليل لدعاء: "أنت محظوظة جداً مع باسم". فيما نظرت إلى باسم وابتسمت له. عندئذ، أحست دعاء بالغيرة فجأة، واستدارت

صوب باسم مبتعدة عن أم خليل.

عندها، لاحظ باسم تعبير الغيرة الذي بدا على وجه دعاء، فهمس في أذنها مداعباً: "عليك الاستمرار في التحدث معها. إنها لطيفة".

فسألته دعاء: "ماذا تقصد بذلك؟". هل يستخدمها للتقرب من المرأة الأخرى!؟ تساءلت في سرها.

غير أن "باسم" ابتسم لها ابتسامة عريضة، ومازحها قائلاً: "هل تغارين!؟". وعندما لاحظ أنها مضطربة فعلاً، طمأنها قائلاً: "أنا لا أرى سواك يا حبي". حين سمعت دعاء ذلك، اقتربت منه وأمسكت بيده. فقال لها: "بعد يومين فقط سنصبح في المياه الإيطالية، ثم سنتوجه إلى السويد ونتزوج ونؤسس عائلتنا". إذ سمع من أصدقاء له وصلوا إلى أوروبا أنه عند وصولهم إلى إيطاليا، يرسل المهربون إشارات استغاثة لإنذار خفر السواحل وإطلاعهم على موقعهم بواسطة نظام GPS. وشرح لها باسم أنه في بعض الأحيان، يختفي المهربون بمساعدة متواطئين معهم قبل وصول سفينة الإنقاذ، ويتركون اللاجئين من دون قبطان أو طاقم سفينة، أو يزعمون أنهم لاجئون أيضاً لتفادي اعتقالهم، ويأمرون الركاب بعدم الكشف عن هويتهم، ثم يهربون من المجموعة في أول فرصة تتاح لهم.

لم يكن أحد من الركاب الموجودين على متن السفينة يعرف موقعهم بالضبط. فما من معالم طبيعية، وإنما بحر كبير فقط محيط بهم. بين الحين والآخر، جرّب الناس استعمال هواتفهم الخلوية بحثاً عن إرسال، ولكن من دون جدوى.

تلك الليلة، ارتعد الركاب من شدة البرد بعد أن ابتلت الطبقات الرقيقة من ملابسهم نتيجة تلاطم الأمواج على هيكل السفينة. وتعكّر

نوم دعاء قليلاً حين أحست بأصابع طفل أم خليل الصغيرة تلامس وجهها وتشدّ قلادتها. لكنها بدلاً من الشعور بالانزعاج من ذلك، وجدت الراحة في تلك اللمسة.

عندما أشرقت الشمس في اليوم الثالث جفّت ملابسهم قليلاً، ولكن الجو أصبح حاراً جداً. التصقت ملابس دعاء بجسمها، وشعرت بأن الهاتف والمستندات المخبأة في أكياس بلاستيكية بدأت تذوب على بشرتها. وفي وقت لاحق من بعد الظهر، اقتربت منهم سفينة أخرى، فقال لهم المهربون: "تحركوا". وأمروهم بالانتقال إلى السفينة الجديدة. تذمر الركاب من ذلك، ولكنهم نفّذوا ما طلب منهم. إذ توجّب عليهم تبديل السفينة إذا أرادوا متابعة الرحلة. تفاجأت دعاء لأن 150 راكباً فقط انتقلوا معها ومع باسم إلى السفينة الجديدة، فيما بقي الآخرون على السفينة الأولى. وشرح لهم أحد المهربين أن الأمواج عالية جداً، وأنها ستكون خطيرة في حال وجود عدد كبير من الأشخاص، وبالتالي توجب عليهم تقسيم الركاب. لذا، شعر باسم ودعاء أنهما مجبران على اتباع تعليمات المهربين. وفكر باسم بتفاؤل، وقال إنهم قد يصلون إلى إيطاليا بسرعة في حال وجود عدد أقل من الركاب على متن السفينة. أما دعاء فنظرت حولها مرتبكة ولكن متفائلة، ولاحظت أن الفتاتين الصغيرتين- ماسا وساندرا- انتقلتا إلى هذه السفينة أيضاً مع والديهما. إنها رابع سفينة ينتقلون إليها منذ بدء رحلتهم، وأملت أن تكون الأخيرة.

صباح الثلاثاء، في 9 أيلول، أي بعد أربعة أيام على بدء الرحلة، لمح دعاء وباسم سفينة صيد أخرى في البعيد. وعندما اقتربا منها أكثر، أدركا أنها السفينة نفسها التي كانا على متنها في اليوم السابق.

ومجدداً، ومن دون أي شرح، اقتربت السفينتان من بعضهما، وأمر المهربون اللاجئين بتبديل السفينة مجدداً. كان ذلك اليوم عاصفاً، وكانت الأمواج عاتية. مدّ المهربون الحبال لرفاقهم الموجودين في السفينة الأكبر حجماً، فيما ارتطمت السفينتان ببعضهما. وعندما سمعت دعاء صوت ارتطام السفينتين ببعضهما تذكرت أصوات الانفجارات في درعا، والرعب الذي عاشته هناك.

تشكل رتل من الأشخاص للعودة إلى السفينة الأصلية. وبكى الأولاد حين تم رميهم مثل أكياس البطاطا إلى أذرع الرجال الضخام في السفينة الأخرى. وعندما جاء دور دعاء، انزلقت بعد أن رموها على متن السفينة الجديدة، فسقطت وانزلقت إلى الجانب الآخر، وأصيبت بالرضوض في مرفقيها. ساعدها باسم على النهوض، ثم شاهدا برعب "وليد"- الرجل الفلسطيني الذي أعطى دعاء المصحف- فيما علقت يده بين السفينتين وبات معلقاً بينهما. ارتطمت الأمواج بجوانب السفينتين، فصرخ وليد بصوت عالٍ. وعندما نجح أخيراً في رفع نفسه إلى ظهر السفينة، كانت أصابعه قد بترت، وكان الدم يتدفق في كل الاتجاهات. أسرع الركاب للف يده بالشاش لإيقاف النزيف، لكنّ أصابعه كانت قد اختفت. جلس على المنصة يبكي متألماً، فيما حدّقت إليه دعاء مذعورة؛ كانت مصدومة جداً وعاجزة عن التحرك.

بقي المهربون غير متأثرين بما حصل، واستمروا في إصدار الأوامر ودفع بقية الركاب إلى السفينة. وقع رجل وارتطم وجهه بعمود حديدي فشقّ رأسه. وشعرت دعاء بالغثيان حين شاهدت امرأة تعرفه تُخرج بهدوء إبرة وخيطاً من حقيبتها لتقطيب الجرح الكبير.

عندما استقر الركاب على السفينة أخيراً، وأُديرت محركاتها

مجـدداً، جـال أحـد أفراد الطاقم بين ركاب السـفينة حاملاً معه كيسـاً كبيراً مليئاً بالخبز القديم. وعندما أعطى "باسم" بضع قطع، نظر باسم إلـى دعـاء وقـال لهـا: "تحتاجين إلى هذا للبقـاء قوية". غير أنها هزّت دعاء رأسها وأجابت: "شكراً لك، لكنني لست جائعة". عندها، غضب باسـم منهـا، وأخـذ مـن الرجـل حصتها من الخبز. فقـد كان ذلك هو اليوم الرابع في البحر، ولم تأكل سوى مرة واحدة؛ مجرد القليل من علبة تونة أعطاها إياها أحد الركاب. كان وليد يجلس قربها ممسـكاً بيده، ويبدو متألماً بوضوح، وقال لها: "أشعر أنني سأموت. فأنا أتألم كثيراً". عندها، ركعت قربه، وقرأت له بضع آيات من القرآن على أمل أن تمنحه بعض الراحة.

كان الطاقـم فـي هـذه السـفينة أكثر لطفاً من ذلـك الموجود في السفينة الأولى. شكري العسولي- وهو راكب فلسطيني من غزة كان علـى متـن السـفينة مـع زوجته وولديه رتاج ويمـن- عرف من خلال حديثه مع القبطان أنه ليس مهرباً، وإنما هو أيضاً في طريقه إلى أوروبا على أمل إيجاد ملاذ له هناك. أخبر القبطان "شكري" أنه أمضى أعواماً عدة في السجن، وعندما خرج، أراد إيجاد طريقة لإعالة عائلته. لذا، عقـد مـع بعـض أصدقائـه صفقة مـع المهربيـن، حيث يتولـون قيادة السـفينة مقابل وصولهم إلى أوروبا مجاناً للبحث عن عمل. وتوسـل شكري إلى الركاب كيلا يسلموه وطاقم السفينة إلى السلطات عندما يصلون إلى أوروبا. فهم مثلهم، مجرد أشخاص لم يستطيعوا العيش في مصر ويبحثون عن حياة أفضل.

وعده اللاجئون بألا يفعلوا ذلك، ولكنهم كانوا قد بدأوا يشعرون بالمزيـد مـن التململ والإحباط في الرحلة. فقـد قيل لهم إن الرحلة

تحتاج إلى يومين على الأكثر، وها قد مرّت حتى الآن ثلاثة أيام تقريباً.

قرابة الساعة الثالثة من بعد ظهر ذلك اليوم، لاحظوا باستياء اقتراب سفينة أخرى من سفينتهم. ليس مجدداً قالت دعاء لنفسها. كانت السفينة المقتربة أصغر من تلك التي يتواجدون فيها حالياً، وبدت غير صالحة إطلاقاً للتواجد في البحر؛ إذ كان طلاؤها متقشراً كله، والأجزاء المعدنية فيها مغطاة بالصدأ. اقترب طاقم السفينة الصغيرة المؤلف من عشرة رجال تقريباً من سفينتهم، وقالوا لهم: "فليأتِ الجميع إلى هنا، وإلا فسنعيدكم كلكم إلى مصر". رفض جميع اللاجئين تبديل السفينة، ولاسيما بعد أن باتوا مقربين من بعضهم بفعل الأيام التي قضوها معاً، وبسبب هدفهم المشترك والمتمثل في الوصول إلى إيطاليا أحياء. إذ كانت السفينة الجديدة مهترئة جداً. وقال أحد اللاجئين متذمراً: "لقد بدلنا الكثير من السفن". ووقف رجل آخر وقال: "لا مجال أبداً لانتقالنا إلى ذلك المركب. لقد عانى الأولاد كثيراً". عندها، فكرت دعاء في أصابع وليد المبتورة، وارتعدت من فكرة تبديل السفينة مجدداً. ولكن الجميع رفضوا الانتقال، وبسبب إصرارهم، لم يعد أمام المهربين أي خيار سوى الاستجابة لذلك مكرهين، وتم عقد صفقة؛ إذ يستطيع الركاب البقاء في هذه السفينة شرط أن يلتزم الجميع بالقول إن القبطان والطاقم لاجئون فروا من الحرب في سوريا أيضاً، وإنه لا يوجد مهربون على متن السفينة، بل يقودون السفينة بأنفسهم.

وافق الركاب على ذلك، وشعر طاقم السفينة بالارتياح. عندها، أدار القبطان محرك السفينة مجدداً، تاركاً السفينة الأخرى مكانها. وسأله أحدهم: "لكم من الوقت نحتاج؟". فأجابه القبطان: "تسع

عشرة ساعة فقط وسنصل إلى إيطاليا". فهتف الركاب وصفقوا عندما سمعوا ذلك، وقالوا جميعاً: "إن شاء الله سنصل إلى إيطاليا". وعانقت أم خليـل دعـاء أولاً، ثم "باسـم". للمـرة الأولى منذ إبحارهم، فكرت دعاء في أنهم قد يصلون فعلاً إلى أوروبا.

الفصل التاسع

لم يبقَ سوى البحر

عاد باسم ودعاء إلى مكانيهما في طرف السفينة، وحشرا نفسيهما بين الآخرين، واستقرا هناك بانتظار اجتياز آخر مرحلة من الرحلة. أحس اللاجئون أنهم باتوا قريبين من مقصدهم فشعروا بالاسترخاء، وتحسن مزاجهم قليلاً. وساعد الأهل أولادهم على نزع سترات النجاة كي يشعروا بالمزيد من الارتياح. فيما تحركت السفينة أسرع من قبل في البحر الهادئ، وضحك الركاب ومازحوا بعضهم. سطعت الشمس بقوة فوقهم، وأحسوا بحرارة النهار، فلجأ بعض الأشخاص إلى الاستظلال تحت أكياس الأرز البلاستيكية المربوطة ببعضها. لكن دعاء بقيت جالسة في الشمس، ومستمتعة بدفئها على وجهها. وقالت لنفسها إنه بعد مرور تسع عشرة ساعة سينتهي كل ذلك، وستصبح بعدها مع باسم في أوروبا؛ في طريقهما لبدء حياة جديدة معاً. وفكرت في أن ذلك يستحق معاناتهما في السجن، والساعات التعيسة التي أمضياها في الشاحنات والحافلات المزدحمة، والركض المضني في الصحراء. ضغطت على يد باسم، ووضعت رأسها على كتفه، فوجه إليها ابتسامة حنوناً وقال لها: "سوف ننجح يا دعاء".

ابتسمت دعاء عند سماعها ذلك، وسمحت لنفسها بإغماض عينيها والخلود إلى النوم، فيما تأرجحت بها السفينة وسطعت الشمس عليها. كان قد مضى على قيلولتها بضع دقائق فقط عندما أيقظها صوت المحرك، وأصوات الرجال الذين راحوا يطلقون الشتائم بلكنة مصرية. لقد مرّت نصف ساعة على لقائهم السفينة الأخرى. وقفت مع باسم لتحديد مصدر الأصوات، وعندما اتكآ فوق الدرابزين، لاحظا سفينة صيد زرقاء كتب الرقم 109 على جانبها تقترب منهم بكل سرعتها. إنها سفينة من طابقين؛ أكبر وأحدث من السفينة التي يتواجدون عليها. استطاعت دعاء رؤية عشرة رجال على متنها يرتدون ملابس عادية، وليس الملابس السوداء مثل المهربين. وقد اعتمر بعضهم قبعات بايسبول لتمويه أنفسهم، لكن بدا أن بعضهم الآخر لا يبالي إذا رآهم الركاب. لم تكن دعاء قد رأت القراصنة من قبل، ولكن الشرّ الذي رأته على وجوه أولئك الرجال ذكّرها بتلك الكلمة.

صرخوا: "أيها الكلاب! يا أولاد العاهرات! أوقفوا السفينة! إلى أين تذهبون؟ كان يجدر بكم البقاء للموت في بلدكم".

وعندما أصبحت السفينة على بعد أمتار قليلة فقط، صرخ أحد المهربين الموجودين في سفينة دعاء: "بالله عليكم، ماذا تفعلون؟".

فأجابه أحدهم: "سنرسل هؤلاء الكلاب إلى قعر البحر". وفجأة، بدأوا يرمون ألواح الخشب على سفينة اللاجئين، وقد امتلأت عيونهم بالكراهية، ثم زادت السفينة سرعتها وانطلقت بعيداً، غير أنها سرعان ما عادت مجدداً صوب سفينة دعاء. حدقت دعاء مذعورة فيما أسرعت السفينة صوبهم وارتطمت بالمكان الذي تقف فيه مع باسم، وتجمدت في مكانها خوفاً.

صرخ باسم بصوت مذعور: "دعاء، دعاء، ارتدي سترة النجاة. سوف يقتلوننا". وهزّها لإيقاظها من شللها. شعر جميع الركاب بالذعر، وبحثوا عن سترات النجاة، فيما اختلطت أدعيتهم مع الصراخ وبكاء الأولاد. ازدادت سرعة السفينة المقتربة منهم. وكانت دعاء قد أمسكت بسترتها عندما ارتطمت السفينة الأخرى بجانب سفينتهم حيث كانت تقف مع باسم، وسمعت صوت انسحاق المعدن وتحطم الأخشاب. كان الارتطام قوياً ومفاجئاً جداً، حيث بدا مثل ضربة صاروخ. وقعت دعاء إلى الأمام، وكادت تسقط من فوق الدرابزين، لكن ذراعَي باسم أمسكتا بها بإحكام. وفيما سحبها مجدداً إلى الأمان، رأت آخرين غير محظوظين كفاية يقعون ويهبطون إلى قعر السفينة حيث يتواجد الركاب الآخرون في الأسفل. تردد صراخ قوي في أذن دعاء، لكنها لم تعرف مصدره. وأحست بانقباض كبير جداً في حنجرتها، حيث عجزت عن إطلاق أي صوت. وخلال تلك الجلبة، أوقعت دعاء سترتها ولم تستطع إيجادها، فاندفعت تبحث عنها، لكن "باسم" سحبها صوبه. أدركت أن السفينة بدأت تميل إلى جانب واحد، فبدأت تقول: "يا الله. ليس الماء. ليس الغرق. أرجو أن أموت الآن من دون أن أذهب إلى البحر". ووضعت إحدى يديها على الدرابزين للحفاظ على توازنها، فيما أمسكت بيد باسم باليد الأخرى.

قال لها باسم: "اسمعي يا دعاء، تشبثي بيدي. لا تفلتيها أبداً وسوف ننجح. أعدك بأنني لن أسمح لك بالغرق".

استطاعت دعاء سماع الرجال في السفينة المهاجمة وهم يضحكون، فيما رموا المزيد من الألواح الخشبية على سفينة اللاجئين. كانت تلك الضحكات من أسوأ الأصوات التي سمعتها،

ولم تصدق أنهم مسرورون بمحاولتهم إغراق سفينة محملة بالأولاد الصغار. صرخ جميع من حولها مذعورين، وبدأ الناس يدعون وهم يشعرون باليأس.

وأخيراً، ابتعدت السفينة المهاجمة عن سفينتهم. ولهنيهة، أملت دعاء أن تكون الكارثة قد انتهت، وأن الرجال أرادوا فقط إخافتهم. ولكن بعد ثوانٍ قليلة، أسرعت السفينة الأخرى صوبهم مجدداً، وفهمت دعاء أنهم لا يملكون أية رحمة، بل ينوون قتل كل رجل وامرأة وطفل على متن السفينة. هذه المرة، عندما ارتطمت السفينة مجدداً بجانب سفينة دعاء، غاصت الأخيرة فجأة في البحر بعنف.

انفصلت يد باسم عن يدها فيما كافح لاستعادة توازنه، وفقدته دعاء وسط حشود الأشخاص المندفعين إلى الأمام. باتت دعاء عند جانب السفينة، وبقيت واقفة بفعل مجموعة الأشخاص المندفعين نحوها.

وفيما بدأ الأشخاص يقعون في البحر، صاح الرجال من السفينة المهاجمة، وقالوا إنه يجدر بكل واحد منهم أن يغرق، وصرخوا قائلين: "فليأكل السمك لحمكم". ثم انطلقوا بعيداً، وتردد صوتهم المجرم في أذنَي دعاء.

باتت نصف سفينة اللاجئين تحت الماء، وراحت تغرق بسرعة. فكرت دعاء في مئات الأشخاص العالقين داخل السفينة. وقالت لنفسها إنه حكم عليهم بالموت، فيما تشبثت بحافة السفينة الغارقة.

أمسكت بحافة السفينة بأفضل ما يمكنها. لكن فيما غاصت السفينة نحو الأسفل، انزلقت أصابع دعاء في الماء، وغرقت فوراً. وجدت دعاء نفسها تحت أكياس الأرز التي ربطها الركاب ببعضها

للحصول على ظل في السفينة، فحرّكت ذراعيها بعنف محاولة الوصول إلى السطح، ورأت أنها علقت مع عشرات الركاب الآخرين تحت أكياس النايلون. حاربت ذعرها، وأغمضت عينيها، ثم فتحتهما مجدداً فرأت الأشخاص قربها يكافحون لتحرير أنفسهم من تحت الأكياس البلاستيكية السميكة. ما من هواء لتتنفسه، وما من طريق إلى السطح. عندها، تذكرت ما حصل عندما رمى بها قريبها في البحيرة وابتلعت المياه. هذه المرة، لا توجد عائلة لإنقاذها، بل بحر مالح وبارد، وضغط راح يتزايد في صدرها وخلف عينيها فيما كافحت لالتقاط أنفاسها وابتلعت المزيد من الماء. وفجأة، رأت شعاعاً من نور الشمس، فأدركت أنها نجحت في تمزيق الكيس البلاستيكي. مدّت يديها في الفتحة، وأحست كما لو أنهما تتحركان ببطء، ثم سحبت نفسها عبر الفتحة الصغيرة إلى سطح الماء. استنشقت الهواء بقوة، وأدركت أن أكياس الأرز لا تزال مربوطة بالسفينة، وأنها إذا زحفت فوقها فبإمكانها الوصول إلى مؤخر السفينة- الجزء الوحيد الذي كان لا يزال طافياً- والتشبث بحافة السفينة. لذا، شقت طريقها فوق الأكياس، وعندما وصلت إلى حافة السفينة، أمسكت بها بشدة لدرجة أنها لم تعد تشعر بيديها. لهثت بقوة، ثم استدارت للنظر تحتها، فرأت الأشخاص تحت الأكياس البلاستيكية وقد توقفوا عن الحراك.

سمعت الصراخ حولها، بالإضافة إلى صوت محرك السفينة. أدارت رأسها صوب البحر، فرأت مجموعات مبعثرة من الأشخاص الذين راحوا ينادون أسماء أحبابهم، ويتضرعون إلى الله طالبين المساعدة. تشبث الناس بأي شيء طافٍ؛ أمتعة، قناني ماء، وحتى أشخاص آخرين أغرقوهم معهم. ولاحظت دعاء أن البحر حولها

بـات أحمـر اللـون، فأدركت أن مروحة السـفينة تجذب الأشـخاص وتقطّع أوصالهم بشـفراتها. وسـرعان ما طافت أجزاء الجثث حولها. إنه أسوأ من أي مشهد آخر رأته خلال الحرب في درعا. راقبت بذعر ولداً صغيراً يبكي ويكافح للتشبث بالسفينة، قبل أن تفلت قبضته عنها وينزلق إلى شفرات المروحة التي قطّعت جسمه الصغير إرباً. لا يوجد أمامها سوى الدم والصراخ. أجبرت نفسها على إدارة رأسها بعيداً عن ذلـك المنظـر المؤلـم، وركزت نظرها عوضاً عن ذلك على السـفينة. رأت رجلاً ميتاً وعالقاً في السقالة المعدنية التي تستخدم أثناء الصيد، وقد التفّ حبل حول عنقه، فيما بترت ذراعاه وسـاقاه، وصار وجهه كله مغطى بالدم.

سيطر الذعر والخوف على دعاء، فبدأت تصرخ يائسة: "باسم!". إذ خافت أن يكون واحداً من الموتى. صرخت باسمه مراراً وتكراراً، فيمـا حدقـت إلى جثة الرجل المشـوهة والعالقـة بالحبل. وبعد ثوانٍ قليلـة، سـمعت صـوت باسـم: "دعـاء! دعـاء! لا تنظري إليـه، انظري إليّ!". فأدارت دعاء رأسها باتجاه مصدر الصوت، ولمحته في البحر. كانت الحافة المعدنية للسفينة بين يديها، فيما تدلت ساقاها في الماء. أرادت الذهاب إلى باسـم، ولكنها لم تسـتطع القفز في الماء. غير أن السفينة كانت تُغرق بطريقة جعلت جسمها يتجه صوب المروحة التي كانت تقطع المزيد من الأشخاص بشفراتها. ورغم ذلك، لم تستطع إفلات قبضتها عنها والسـماح للبحر بابتلاعها. صرخ باسـم: "أفلتيها وإلا قطّعتك المروحة!". وحاول السباحة صوبها، لكن الأمواج أخذته بعيداً.

عندهـا، سـمعت صوتـاً قربهـا يقـول لهـا: "افعلي مـا يقوله لك

يـا دعـاء". وكان ذلـك صوت وليد الذي تشـبّث بمؤخر السـفينة بيده السليمة، وراح يحدّق إلى مروحة السفينة. ثم أبعد نظره عنها، واستدار صوب دعاء والخوف بادٍ على وجهه، وقال لها: "لا أستطيع السباحة. لا أملك سترة إنقاذ".

"وأنا أيضاً لا أجيد السـباحة". وكانت سـترة النجاة الخاصة بها قد اختفت أيضاً. كانا كلاهما ينجذبان صوب المروحة.

صرخ باسم مجدداً: "دعاء، اقفزي! الآن!".

فصرخت دعاء قائلة لوليد: "علينا أن نفلت السـفينة". رغم أنها كانت مذعورة من الفكرة.

حـلّ الحـزن مـكان الذعـر على وجهـه، وقال لها بلطف شـديد جعلهـا راغبـة فـي البـكاء: "اتكلـي على الله. إذا آمنـت بالله، فلا بد أن ينقذك".

عندهـا، أغمضـت دعـاء عينيها، ثم أفلتـت قبضتها ووقعت إلى الخلف، فانبسطت ذراعاها وساقاها فيما ارتطمت بسطح الماء. طفت لثوانٍ قليلة على ظهرها، ثم أحست بأحدهم يشدّ بوشاح رأسها الذي سـرعان ما انزلق عن رأسـها واختفى في الماء. وفيما اسـتلقت طافية على ظهرها، أحست بأطراف شعرها الطويل عالقة تحت الماء؛ إذ إن أولئك الذين يغرقون تحت الماء قد فقدوا صوابهم، وراحوا يتشبثون بأي شيء يقع تحت أيديهم في محاولة لسحب أنفسهم إلى السطح، وقد تشبّثت أيديهم برأسها، فنزل وجهها تحت سطح الماء. غير أنها نجحـت نوعـاً مـا فـي إبعـاد أيديهم عنها، واستنشـقت الهـواء بعمق، ووقفت منتصبة في المياه، وراحت تحرك يديها ورجليها للبقاء على السـطح. تذكرت كيف تكون السـباحة، وبذلت ما بوسـعها للسباحة،

فيما راقبت آخر جزء من السفينة وهو يغرق بين الأمواج. وفجأة، لم يبقَ أي شيء سوى الحطام، والدم، والجثث، وعدد قليل من الناجين. أحسـت بالأشـياء تتحرك تحتها، وعرفت أنهم أناس يغرقون، وأن أياً منهم قد يشدّ ساقيها في أية لحظة ويغرقها تحت الماء.

ثـم لمحـت "باسـم" يسـبح صـوب دولاب طـافٍ أزرق اللون، يسـتخدمه الأولاد الصغـار فـي أحواض السـباحة والبحـار الضحلة. قال لها: "ضعي هذا فوق رأسـك كي تتمكني من الطفو". فيما وضع الدولاب المنفوخ جزئياً فوق كتفيها. خشيت أن يحاول أحدهم سحب سـاقيها إلى الأسـفل، فرفعت نفسـها فوق الدولاب، وتدلت ذراعاها وساقاها من فوقه، ثم أغمي عليها فجأة نتيجة الصدمة والإرهاق، فما كان من باسم إلا أن رش مياه البحر على وجهها كي تستعيد وعيها.

بـدأت الشـمس تغيب فـي الأفق، وأصبح البحر هادئاً وسـاكناً، وصار المشـهد أكثر وضوحاً أمامها. احتشـد الناجون في مجموعات صغيـرة، وكان بعضهـم يرتـدون سـترات النجاة التي أبقت رؤوسـهم فقط فوق الماء. إذ امتلك العديدون منهم سترات زائفة بالكاد أبقتهم طافيـن. فتسـاءلت دعـاء عمـا إذا كان المهربـون الذيـن باعوهم هذه السترات قد أرادوا إغراقهم عمداً.

سـبح باسـم في الماء قرب دعاء متشـبثاً بالدولاب البلاستيكي، ثـم لمـح رجـلاً يعرفه يمسـك قنينة مـاء صغيرة، فتوسـل إليه لإعطاء دعاء القليل من الماء. ابتلعت مقداراً صغيراً، ثم تقيأت فوراً كل مياه البحـر التـي ابتلعتها. إلا أن إخراج المياه المالحة من جسـمها جعلها أكثر يقظة. ولاحظت فجأة جميع الأشـخاص الذين يبكون حولهما. سمعت قربها صراخ شكري العسولي، الرجل الفلسطيني الذي التقياه

على متن السفينة. كان يطفو على كيس نايلون مليء بقناني المياه الفارغة، وينادي أسماء زوجته وولديه: "هيام! رتاج! يمن!". دفع الماء جانباً بإحدى يديه للتحرك صوب الناجين الآخرين وسألهم: "هل رأيتم زوجتي وولديّ؟". وتوقف عندما رأى صديقاً آخر يبكي. لقد خسر أيضاً زوجته وولديه. سأل شكري: "كيف سأخبر أمي أنهم ماتوا؟".

ثمة امرأة أخرجت هاتفاً خلوياً مقاوماً للماء وحاولت الاتصال بأي رقم طوارئ خطر في بالها أو بال المحيطين بها. لكن لم يكن هناك إرسال. وسحبت امرأة أخرى هاتفها الخلوي من طبقات أكياس النايلون التي لفته بها، ووجدت أنه لا يزال جافاً، فأملت بأن يكون حظها أفضل، لكن البطارية كانت فارغة.

هبطت العتمة على الناجين الطافين على سطح الماء ببطء، وأصبح البحر أسود ومتموجاً. ارتجفت دعاء فيما التصقت بها ملابسها الباردة والرطبة. فصلت الأمواج مجموعات الناجين الذين كانوا قد أمسكوا بأيدي بعضهم بعضاً ظناً منهم أن هذا يمنحهم فرصة أفضل للمحهم وإنقاذهم. فيما تشبث باسم بدولاب دعاء، وأمسكت دعاء بذراعه، خشية أن يبتعد عنها هو أيضاً. مرّت ساعات، وتحول الصراخ العالي للأولاد إلى أنين ضعيف. عندها، تلمست دعاء المصحف الذي أعطاها إياه وليد، وارتاحت لأنه كان لا يزال مثبتاً فوق قلبها. بدأت تتلو الآيات القرآنية بصوت عالٍ، فانضم إليها الآخرون بسرعة. أحست لفترة وجيزة بالارتياح وبأنها أقرب إلى الله. بات القمر والنجوم مصدر الضوء الوحيد لهم، وأنار الضوء الأحياء والجثث التي طافت حولهم في كل مكان. قال باسم معتذراً:

"سامحيني يا دعاء. لا يفترض بك أن تري مثل هذه الأمور". لكنها هزّت رأسها وتشبثت بذراعه أكثر.

نجا ما بين خمسين ومئة شخص من حطام السفينة. لكن مع هبوط الليل، مات المزيد من الأشخاص نتيجة البرد والإرهاق واليأس. كما استسلم بعض الذين خسروا عائلاتهم، فخلعوا سترات النجاة وتركوا أنفسهم يغرقون في البحر. سمعت دعاء صراخاً يائساً فيما حاول بعض الركاب منح الأمل لرجل شاب خلع سترة النجاة الخاصة به. وتوسل إليه الناجون الآخرون قائلين: "لا تفعل ذلك. أرجوك، لا تستسلم". لكن الرجل الشاب أبعد سترة النجاة عنه، وأنزل رأسه في البحر. كان قريباً جداً من دعاء، حيث كادت تلمسه.

وسط كل هذا اليأس، ولد نوع من التضامن بين الناجين الباقين. وتحرك الأشخاص الذين امتلكوا سترات نجاة صوب الذين لا يملكونها، وعرضوا عليهم كتفاً للاستراحة. أما الذين امتلكوا القليل من الطعام أو الماء فتشاركوه مع غيرهم. وأولئك الذين بقيت معنوياتهم مرتفعة حاولوا مواساة الأشخاص الذين أرادوا الاستسلام وشجعوهم.

خلع باسم سروال الجينز كي يخف وزنه، ولكنه كان قد بدأ يفقد قوته. إذ مضت اثنتا عشرة ساعة على وجودهم في البحر. وظل يقول لها: "آسف جداً يا دعاء. آسف جداً". كان محبطاً جداً لأنه أصرّ على سفرهما في البحر فيما كانت مرعوبة من الفكرة. "ما حصل غلطتي. لم يكن يجدر بي إحضارك في الباخرة".

فقالت له بصرامة: "اتخذنا القرار معاً". كانت أسنانه تصطك ببعضها، وتحولت شفتاه إلى اللون الأزرق. فانهمرت الدموع على

وجنتيها عندما رأت كم هو ضعيف، ولكنها أبقت صوتها قوياً وقالت: "سوف ننجو يا باسم". مرددة كلماته التي استخدمها لمواساتها في السفينة. "سيتم إنقاذنا وسنؤسس عائلة".

فقال لها باسم: "أقسم بالله يا دعاء إنني أحبك أكثر من أي شخص آخر في هذا العالم". وأمسك بيدها، وشبك ذراعيه فوق حافة الدولاب، ووضع رأسه عليهما، ثم غط في النوم. فأمسكت دعاء بيده كما لو أن هذا الشيء هو الوحيد الذي يمنعها من الانضمام إلى الذين ابتلعهم البحر.

عندما أشرقت الشمس في اليوم التالي، رأت دعاء بوضوح أن الليل قد قضى على نصف الناجين على الأقل. طافت الجثث في كل مكان حولها، وكانت الوجوه إلى الأسفل، فيما الأجسام زرقاء ومنتفخة. تعرفت دعاء إلى بعضهم، ولكنهم لم يكونوا من مجموعة الناجين الأساسيين، وأدركت أنهم من الأشخاص الذين غرقوا عندما غرقت السفينة أساساً، ولا بد أن جثثهم قد ارتفعت الآن إلى سطح الماء. لقد غرق الناس أمام عينيها واختفوا خلال الليل. لاحظت أن أيدي العديد من الجثث التي كانت في الماء مشبوكة عند الصدر؛ كما لو أنها تشعر بالبرد. أما بعض الناجين الباقين على قيد الحياة والذين نجحوا في الصمود طوال الليل من دون سترات نجاة فقد حاولوا التشبث بالجثث ليظلوا طافين على سطح الماء.

اختنقت دعاء من رائحة الموت. وعندما استيقظ باسم وراقب المشهد حولهما بدأ يعتذر مجدداً. لكن هذه المرة، استطاعت دعاء سماع نبرة الاستسلام في صوته؛ كما لو أنه فقد الأمل بنجاتهما. وبدا لدعاء كما لو أن اعتذاراته بمثابة وداع.

فقالت له: "لا تقلق". فيما شعر بحبها له يكبر في صدرها. إذ استوعبت بدورها أنهما لن يتمكنا من الصمود. "هذا هو قدرنا".

ثمة رجل قربهما لاحظ على ما يبدو هبوط معنويات دعاء وباسم، فصرخ قائلاً لباسم: "استمر في تحريك جسمك كي لا يتصلب".

عندها، أفلت باسم الدولاب، وسبح لبضع دقائق باحثاً عن شيء لإحضاره لدعاء؛ كقنينة ماء لترطيب فميهما الجافين، أو علبة عصير لمحاربة الدوار الذي سيطر عليهما. لكن لم يكن هناك أي شيء سوى البحر اللامتناهي، والرؤوس المنخفضة، والكثير من الأخشاب. فعاد إلى دعاء وهزّ رأسه. أصبحت أشعة الشمس أكثر حرارة، ما بعث الدفء في جسميهما، ولكنهما شعرا بالمزيد من العطش. أحس باسم بالغثيان بسبب الماء المالح الذي ابتلعه، فأدخلت دعاء أصابعها في حنجرته لمساعدته على التقيؤ. وبعد ذلك، شبك باسم ذراعيه على حافة دولاب دعاء ووضع رأسه عليهما للاستراحة.

احتشدت مجموعة صغيرة من الناجين حولهما، وسبحوا في الماء. قال بعضهم أشياء غير منطقية، كما لو أنهم باتوا مهلوسين. إذ قال رجل: "ثمة مقهى مجاور، فلنذهب لتناول الشاي". ووسط كل هذه المعمعة، نظر باسم إلى دعاء مباشرة، ورفع صوته كي يتمكن الجميع من سماعه، وقال: "أحبك أكثر من أي شخص آخر عرفته. أنا آسف لأنني خذلتك، ولكنني أردت فقط الأفضل لك". عندها، لاحظت دعاء الاضطراب في عينيه، إذ حدّق إليها كما لو أنها المرة الأخيرة التي يراها فيها. وقد تحدث بإلحاح لم تسمعه منه منذ أن هددها بالعودة إلى سوريا إذا لم توافق على الزواج منه. بدا لها وكأن إخراجه تلك الكلمات من فمه كان أهم شيء بالنسبة إليه ليقوم به،

وتابع قائلاً: "كان يجب عليّ أن أهتم بك، ولكنني فشلت. أردت أن نؤسس حياة جديدة معاً. أردت الأفضل لك. سامحيني قبل أن أموت يا حبي".

فقالت له دعاء من بين دموعها: "ما من شيء لأسامحك عليه. سنكون دوماً معاً، في الحياة وفي الموت". وتوسلت إليه ليصمد، وكررت له أنه ليس المسؤول عما حصل.

وفيما مدّت يدها للتربيت على وجنته، لاحظت رجلاً متقدماً في العمر يسبح صوبهما ممسكاً بطفل صغير على كتفه، وقد أمسك بقنينة ماء في يده الأخرى، وحرّك ساقيه بقوة للاقتراب منهما. وعندما وصل إليهما، نظر إلى دعاء بعينين متوسلتين وقال لها: "أنا مرهق. هلّا حملت ملاك قليلاً؟". كانت الطفلة ترتدي "بيجاما" وردية اللون، ولها سنان صغيرتان، وكانت تبكي. رأت دعاء أن الطفلة تبدو فعلاً مثلما يعني اسمها؛ فهي تبدو كملاك. شرح لها الرجل أنه جدها، وقال إنه صياد أسماك من غزة، وإنهم اضطروا للهرب من القصف الإسرائيلي الأخير. كما أخبرها أن سبعة وعشرين شخصاً من عائلته كانوا على متن السفينة، وأنهم غرقوا جميعاً. "نجونا نحن الاثنان فقط. أرجوك، دعي هذه الفتاة معك. عمرها تسعة أشهر فقط. اهتمي بها، واعتبريها جزءاً منك. فقد انتهت حياتي".

تمددت دعاء للإمساك بملاك، ووضعتها على صدرها، حيث باتت وجنة الطفلة على المصحف الذي لا يزال فوق قلب دعاء. عندها، استرخت ملاك وتوقفت عن البكاء، وارتاحت دعاء أيضاً لوجود جسم الطفلة قرب جسمها.

لمس الجد وجه ملاك قائلاً: "ملاكي الصغيرة، ماذا فعلتِ

لتستحقي هذا؟ مسكينة أنت. وداعاً يا صغيرتي. سامحيني لأنني سأموت". ثم سبح بعيداً، فركز باسم ودعاء انتباههما على الطفلة الصغيرة. بدا لدعاء وكأن الطفلة الصغيرة قد ألهت "باسم" لبعض الوقت فيما راح يربّت على وجنتَي ملاك الناعمتين والباردتين. بعد لحظات، عاد جدّ ملاك للتحقق منها، ورأى أنها برعاية جيدة، فودعها مجدداً. وعندما نظرا في اتجاهه في المرة التالية، رأياه يطفو ووجهه إلى الأسفل، على مسافة عشرة أمتار فقط.

كانت ملاك ترتجف، وقد أصبحت شفتاها مشققتين وزرقاوَي اللون. عندها، وضعت دعاء إصبعها في مياه البحر وبللت شفتَي ملاك برفق. ثم فكرت في أن لعابها سيكون أفضل كي لا تلعق الطفلة الملح، لكن دعاء افتقدت إلى الرطوبة الكافية لجمعها في فمها. وكانت قد سمعت أن فرك أوردة الشخص عند المعصمين يبقيه دافئاً، ولذلك جربت هذه الطريقة، وبدأت تغني الأغاني التي تعلمتها من أمها عندما كانت صغيرة.

كان باسم قد بدأ يشعر بالنعاس والرغبة في النوم نتيجة غناء دعاء، فعرفت أنه يجب عليها إبقاؤه مستيقظاً وإلا فسيضيع منها. لذا ضربت دعاء يديها على جانبَي رأسه لإيقاظه.

وقالت له وقد انحنت بالقرب من أذنه: "أنا خائفة يا باسم. أرجوك لا تتركني وحيدة هنا وسط هذا البحر. اصمد قليلاً فقط وسوف نصبح في أوروبا معاً".

ولاحظت دعاء أن وجهه بدأ يتحول من اللون الأصفر إلى الأزرق.

وبدأ يقول: "يا الله، أعطِ دعاء روحي كي تعيش".

فتوسلت إليه دعاء: "لا تقل هذا يا باسم. سنكون معاً بإذن الله". لكنها عرفت أنه مرهق تماماً، وأنه بدأ يضيع منها. فبدأت تبكي، وعرفت أنها لن تستطيع إنقاذه. عرفت أن القوة الوحيدة الباقية فيها هي معرفتها لكلمات الله.

فقالت له بإلحاح: "باسم، قبل أن تموت، عليك أن تنطق بالشهادتين كي تموت مسلماً. كرر ورائي: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله".

فكرر باسم: "أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله". ثم أغمض عينيه، فضربته دعاء على وجهه لإيقاظه، ولكنه بدأ يتمتم: "أمي، الفضة لك".

كان يهلوس، فقررت دعاء التماشي مع هلوسته لإبقائه مستيقظاً. "حسناً يا باسم، حين تصبح أفضل حالاً، سنذهب ونحضر الفضة. أما الآن فعليك البقاء معي والصمود. لا تتركني وحدي".

وأدركت دعاء أن "باسم" بدأ يفقد الوعي، وأنه كان يحاول توديعها. وفهمت أنه عليها منحه الهدية الأخيرة، وعبر دموعها، وعدته متمتمة: "اخترت الطريق نفسها مثلك. أسامحك في هذه الحياة، وسنكون بعدها معاً". ثم أمسكت بأصابع باسم بيدها اليمنى، فيما عانقت الطفلة ملاك بذراعها اليسرى.

وبعد وقت قصير، أحست بيديه تفلتان من قبضتها، وراقبته وهو ينزلق في الماء، ثم بدأ يطفو بعيداً عنها. حاولت دعاء يائسة مدّ ذراعها لجرّه صوبها مجدداً، ولكنه كان قد صار بعيداً عنها. لم يكن بإمكانها الخروج من الدولاب البلاستيكي من دون إفلات ملاك، فصرخت: "باسم، بالله عليك، لا تذهب. أجبني! لا أستطيع العيش من دونك".

وأجهشت في البكاء.

عندها، سبح رجل صوبها، وتحقق من نبض باسم، ثم قال لها بشفقة: "أنا آسف، ولكنه مات".

فهمت دعاء أن موت باسم بالنسبة إلى هذا الرجل لا يعدو عن كونه مجرد موت شخص من بين عدة أشخاص. فقد مات ما يقارب الدزينتين من الأشخاص على الأقل منذ شروق شمس هذا اليوم. لكن بالنسبة إلى دعاء، كان موته نهاية كل شيء. فقد خسرت أغلى شخص في حياتها، وأرادت الموت معه. تخيلت نفسها تفلت من الدولاب البلاستيكي لتغرق في البحر مع باسم، ولكنها أحست بذراعَي ملاك الصغيرتين حول عنقها، وأدركت أنها الوحيدة المسؤولة عن هذه الطفلة. وعرفت أنه عليها بذل أقصى جهودها لإبقائها على قيد الحياة.

طفا باسم في البحر ووجهه إلى الأسفل، ثم بدأ يغرق تحت الماء. آخر ما رأته دعاء منه كان شعره الأسود الكثيف الذي ارتفع فوق سطح الماء قبل أن يغمر الماء رأسه، ثم اختفى بالكامل. صرخت دعاء كثيراً عندما رأت هذا المشهد، وسمحت لنفسها بندبه. ثمة رجل قربها حاول مواساتها، وتذكرته من السفينة. وقد أخبر الرجل دعاء حكايته فيما بدأت الشمس تغيب في الأفق. قال لها فيما سبح قربها إنه من دمشق، وإن كل ما أراده هو توفير التعليم والمستقبل لابنه من دون قذائف. وبدأ يبكي وهو يخبرها كيف أنه شاهد ابنه وهو يتقطع بشفرات مروحة السفينة فيما كان عاجزاً عن القيام بأي شيء. وغرقت زوجته قبل موت ابنهما أيضاً. صرخ: "رأيتهما... رأيت زوجتي وابني وهما يموتان!". فتساءلت دعاء عما إذا كان ابنه هو نفسه الولد الذي رأته يتقطع بالشفرات.

غير أنها قالت للرجل مواسية: "لا تبكِ. سوف تنضم إليهما في الجنة".

فأجاب الرجل: "أنت مباركة، ولا تستحقين هذا".

بعد قليل، تحرك المزيد من الأشخاص صوب دعاء للمواساة والدعاء، وكذلك للطلب منها مساعدتهم على تقيؤ مياه البحر التي ابتلعوها. إذ انتشرت المعلومات التي تفيد بأن ابتلاع مياه البحر المالحة يسرّع الموت. ولا بدّ أنهم رأوها وهي تساعد "باسم" على التقيؤ في وقت سابق من هذا الصباح. وهكذا، جاءوا إليها، الواحد تلو الآخر، واستخدمت يدها الطليقة لمساعدتهم على التقيؤ، ثم غسلت يدها بمياه البحر. بصقوا الماء فقط، لكن الرائحة الكريهة التي انبعثت جعلتها تشعر بالغثيان. غير أنها شعرت في المقابل بالمواساة بسبب ارتياحهم الظاهر وكلمات الامتنان التي وجّهوها إليها.

حلّ بعد ظهر يوم الخميس، فقالت دعاء لنفسها إنه مضى يومان على هذا الجحيم. ولاحظت أن خمسة وعشرين شخصاً فقط كانوا لا يزالون على قيد الحياة. نامت ملاك معظم الوقت، وبكت بشدة كلما استيقظت. وعرفت دعاء أن ملاك تريد الماء، رغم عدم قدرتها على الكلام.

ومن بين الناجين الآخرين، رأت دعاء العائلة التي التقتها على متن السفينة مع الفتاتين الصغيرتين ساندرا وماسا. كانوا جميعاً يرتدون سترات نجاة أبقتهم فوق الماء، لكن الفتاة الكبرى ساندرا بدأت فجأة تعاني من التشنجات وارتجف جسمها كله، فأمسك بها والدها، وتحدث إليها بصوت خافت تخنقه العبرات. غير أن دعاء رأت الفتاة الصغيرة وهي تفقد قواها شيئاً فشيئاً، وسرعان ما أصبحت

جثة هامدة. عندها، سبحت والدة ساندرا صوب دعاء، والعزيمة بادية على وجهها، وكانت تحمل طفلتها الصغيرة ماسا بكلتا يديها.

أمسكت والدة ساندرا بطرف دولاب دعاء، ونظرت إلى عينيها مباشرة وقالت لها: "أرجوكِ، أنقذي طفلتي. فأنا لن أستطيع الصمود". ومن دون تردد، أخذت دعاء ماسا ووضعتها على جانبها الأيسر، مباشرة تحت ملاك التي كانت قد وضعت رأسها تحت ذقن دعاء. وضعت دعاء رأس ماسا على قفصها الصدري، مباشرة تحت صدرها. وما إن فعلت ذلك حتى تمددت الفتاة صغيرة الجسم على بطنها. لم تكن قد بلغت العامين بعد، وها قد رأت كل هذا الجحيم. ربّتت دعاء على شعر ماسا، وتساءلت عما إذا كان دولابها الصغير سيبقيهنّ فوق الماء هنّ الثلاث. كان صدر ماسا مغموراً بالماء، فيما ارتطمت الأمواج بهنّ.

النحيب العالي أيقظ دعاء من شرودها. فقد ماتت ساندرا، وها هما والداها يبكيان قرب جثتها الطافية. أحكمت دعاء قبضتها حول ماسا، وحاولت مواساة الأم الحزينة ببعض الكلمات اللطيفة. لكن بعد دقائق قليلة، تجمد جسم زوجها أيضاً؛ لقد استسلم. نظرت زوجته إليه غير مصدقة، وصرخت: "عماد!". ثم صمتت فجأة وماتت أمام عينَي دعاء.

مع هبوط الليل، أصبح البحر أسود، وامتلأ بالضباب الكثيف. بدأت الفتاتان تتحركان بتململ وتبكيان، فيما بذلت دعاء ما بوسعها لتهدئتهما. خافت من تحريك ذراعيها كي لا تفقد قبضتها عليهما. وكان وزنهما على صدرها قد منعها من التنفس تقريباً وقمع رغبتها الملحة في السعال، كما كانت تشعر بالعطش. في وقت سابق من

ذلك الصباح، كان أحدهم قد أعطاها قطعة حلاوة بالطحينة كانت طافية فوق الماء. وقال لها الرجل الغريب وهو يعطيها إياها: "أطعميها للطفلتين". فكسرت دعاء قطعة الحلاوة إلى أجزاء صغيرة وأقحمتها في فمَي الطفلتين اللتين ارتاحتا على ما يبدو لدى تذوقهما النكهة الحلوة. وتركت لنفسها قطعة صغيرة، ولكنها حين أكلتها شعرت بالمزيد من العطش.

أصبح الماء هوساً بالنسبة إلى الناجين. وقد تبوّل الرجال في قناني بلاستيكية فارغة، ثم شربوا السائل للبقاء على قيد الحياة، فأبعدت دعاء عينيها عنهم.

على بعد أمتار قليلة، كان شكري العسولي يسبح في الماء قرب مجموعة أخرى من اللاجئين. لقد نجح في الصمود خلال اليومين الأخيرين، وتماماً مثل دعاء، لقد خسر كل شيء. قد يفقد صوابه الآن، فالناس حوله يهلوسون بوضوح. قال أحدهم: "اصعد إلى سيارتي. افتح الباب واصعد إلى سيارتي". وثمة شخص آخر طلب كرسياً للجلوس عليه، فيما دعا رجل آخر الباقين للدخول إلى منزله الذي قال إنه قريب.

ثمة رجل اسمه فؤاد الدرما طلب من شكري الاتصال بزوجته كي تأتي وتأخذه، ثم طلب منه اصطحابه إلى المنزل ليراها. وهناك رجل آخر، من غزة أيضاً، سبح صوب شكري وتوسل إليه ليأتي معه لأنه يعرف مكاناً يوجد فيه الماء. فلحق به شكري مسافة قصيرة محركاً ساقيه، ولكنه لم يجد أي شيء. فيما قال رجل آخر إنه يعرف مقهى فيه كل الماء الذي يحتاجون إلى شربه، ويستطيعون أيضاً تدخين النارجيلة. وقال إنه يملك 100 دولار، وسيدفع بدلاً عنهم جميعاً،

ثم سألهم: "هل تريدون الذهاب؟".

فأجاب شكري: "نعم".

"لكننا نحتاج إلى السباحة لمدة ساعتين للوصول إلى هناك".

"لا مشكلة، فلنذهب".

فانضم إليهما بعض الرجال الآخرين، وتحركوا في الماء. قال لهم الرجل: "علينا أن نسبح مباشرة إلى الأمام، ثم سننعطف إلى اليسار في مكان معين". في تلك اللحظة، صفا ذهن شكري هنيهة، وأدرك أن الرجل يهلوس؛ مثله تماماً. عندها، عاد إلى الآخرين، وانضم إلى مجموعة الناجين الذين يسبحون على مسافة قريبة من مجموعة دعاء. التف الضباب البارد حولهم، فأعمى بصيرتهم وجعلهم يرتجفون. وثمة امرأة فقدت ابنتيها كانت تبكي بشدة. "أشعر بالبرد الشديد. أرجوكم امنحوني الدفء". فطوّقها شكري وصديقه محمد لمنحها الإحساس بالأمان.

تلك الليلة، فيما حلم شكري أنه في المنزل مع عائلته، أفلت كيس قناني الماء الذي أبقاه طافياً. غير أنه ما إن بدأ يغرق حتى استعاد وعيه، وتشبث بالكيس مجدداً. ولاحقاً، تخيل أنه وصل إلى اليابسة ورمى أطواق النجاة لإنقاذ الناس، ثم قدم لهم الماء. ومع مرور الساعات، كان ينتقل ما بين الهلوسة والرشد. ولم يعد يعرف ما إذا كان حياً أو ميتاً.

تمنت دعاء لو أنها تستطيع إسكات البحر، وإيقاف صوته. فقد بدا مثل الموسيقى في أفلام الرعب، حيث جعل مشاهد الموت أمامها أكثر رعباً؛ كما لو أن غرق الأشخاص يتزامن مع إيقاع الأمواج. وكلما مات شخص، انفطر قلبها. كم مرّة رأت رجالاً يخلعون سترات الإنقاذ

عندما قرروا الموت؟ لم تعد تعرف. قالت لنفسها إنها لا تلومهم حتى لو كان الدين يحرّم الانتحار؛ فمصيبتهم أكبر مما يمكن تحمله. ومن أنا لأحكم على شخص قرر إنهاء حياته!؟ فأنا مجرد نقطة في هذا البحر الواسع الذي سيلتهمني قريباً أيضاً. ولولا القوة التي منحتها إياها الطفلتان الصغيرتان المتكئتان على صدرها، لانزلقت هي أيضاً تحت الأمواج.

كانت دعاء مرهقة، ولكنها خشيت أن تنام كي لا تقع الطفلتان من ذراعيها. عدّت الجثث الطافية حولها فكانت سبعاً. لكن وجوهها كانت إلى الأسفل، حيث لم تكن مضطرة لرؤيتها. وقد انتفخت الجثث، وباتت باللون الأزرق المائل إلى الأسود مثل الحيتان، وفاحت منها رائحة كريهة جداً. وكلما دفعت الأمواج جثة صوبها، كانت تبعدها عنها بيدها أو قدمها. وثمة رجل يدعى "مؤمن" ساعدها على الابتعاد عن الجثث قليلاً. كان واحداً من الناجين القليلين، وبقي الآن قربها.

أعطاها مؤمن القوة بكلماته التشجيعية. "أنت مذهلة يا دعاء. راقبتك كيف ساعدت الآخرين. أنت شجاعة وقوية جداً. أريد إبقاءك بأمان. وإذا بقينا على قيد الحياة، فأنا أريد الزواج منك".

نوعاً ما، لم تجد دعاء كلماته جريئة أو غريبة جداً. فهذه طريقته للصمود، وللتطلع ربما إلى المستقبل إذا خرجوا من الماء أحياء، لذا أجابته: "اصمد الآن، وسوف نتحدث في الأمر لاحقاً عندما تنتهي هذه الكارثة".

في صباح اليوم الثالث، فيما أشرقت الشمس، شاهدت دعاء رجلاً وامرأة وولداً صغيراً. كان الرجل والمرأة متشبثين بدولاب عائم

يطوق خصر طفل؛ تماماً مثل دولاب دعاء. لكن الدولاب انفجر فجأة، فغاص الصبي في الماء محركاً ذراعيه بقوة. لاحظت دعاء أن المرأة لا تستطيع السباحة جيداً، فما إن اختفى الدولاب الذي كانت تتشبث به حتى غاصت بدورها تحت سطح الماء، ثم صعدت لاستنشاق آخر جرعة هواء قبل أن ترجع رأسها إلى الخلف وتصبح جثة هامدة.

غير أن الرجل استطاع مساعدة الصبي، ووضع ذراعَي الصبي حول عنقه، وسبح في اتجاه دعاء. توسل إليها حين وصل: "أرجوك، احمليه قليلاً". كان مرهقاً جداً، حيث راح يتلعثم في كلماته. قال لها إن الصبي ابن أخيه، فيما المرأة التي ماتت للتو والدة الصبي. ترددت دعاء وقالت: "لا يوجد مكان". فقد كان الولد في الثالثة من عمره تقريباً، أكبر من الفتاتين، وسوف تغرق ملاك وماسا إذا غرق الدولاب. لكن الصبي نظر إليها بخوف شديد، فانفطر قلب دعاء حزناً عليه، وقالت: "سنجد طريقة". فيما انحنت صوب الصبي، وجعلته يرتاح على ساقيها الممددتين خارج الدولاب. حرّك جسمه، ورفع رأسه ونظر حوله قائلاً: "أريد ماء. أريد عمي. أريد ماما".

لم تعرف دعاء ما يسعها فعله لمواساة الصبي التعيس، وخشيت أن يؤدي اضطرابه إلى انفجار دولابهم أيضاً فيغرقون جميعاً. ولم تكن دعاء تريد أي شيء سوى أن يبقوا جميعاً بأمان. ذكّرها الصبي بحمودي، وفكرت كم سيتحطم قلبها إذا رأته يغرق. سأل الصبي عن أمه مراراً وتكراراً، فقالت له دعاء: "ذهبت أمك لإحضار الماء والطعام". فهدأ الصبي لبضع دقائق، ثم عاود التذمر مجدداً بسبب شدة عطشه. ولتهدئته، كانت دعاء تغرف يدها في ماء البحر وتعطيه القليل ليشرب. وطوال الساعتين التاليتين، حرص عمه على السباحة

لمسافات قصيرة لتحريك جسمه، ثم عاد للتحقق من الصبي، غير أنه لم يكن يملك شيئاً لإبقائه عائماً. فجأة، بدأ الصبي يرتجف، وتحوّلت شفتاه إلى اللون الأزرق، فيما خفق صدره الصغير بقوة. عندها، أخذ العم الذي كان متشبثاً بدولاب دعاء الصبيَّ بين ذراعيه وبدأ يبكي. "لا تتركنا، أرجوك".

فقال الصبي بصوت ضعيف: "أرجوك يا عمي، لا يمكنك أن تموت أنت أيضاً". ثم ارتخى جسمه فجأة فوق كتف عمه. شدّ العم الصبي إلى صدره، وابتعد عن دولاب دعاء التي راقبت غرق العم والصبي الصغير أمام عينيها، فيما طافت جثة أم الصبي قربها.

سمعت "مؤمن" يقول: "يا الله. الجميع يموتون حولنا! رأيت ابني يموت، وكذلك زوجتي. لماذا يحدث هذا لنا؟ لماذا أغرقونا؟ لمَ لم يأتِ أحد لإنقاذنا".

فقالت له دعاء بهدوء: "سيأتون إن شاء الله يا مؤمن. كن قوياً، وادعُ كي يبقى الأمل داخلك".

لكن فيما كانت تتمتم بهذه الكلمات، بدأت تبكي. فرغم أنها حملت الصبي الصغير لساعات قليلة فقط، إلا أنها شعرت أنه أصبح جزءاً منها. "يقولون إن الألم الذي تشعر به الأم حين تخسر ابنها هو الأسوأ في العالم. أشعر بذلك الآن. لقد أحببت ذلك الصبي الصغير". كانت قد رأت موت الكثيرين، لكن موت هذا الطفل الأخير جعلها تشعر وكأن قلبها قد تحطم إلى أشلاء. قالت لمؤمن: "لقد مات بسببي أنا. كان يجدر بي التمكن من إنقاذه".

فأجاب مؤمن: "لا، لا. إنها مشيئة الله. أنت صالحة، وقد حاولت إنقاذه".

لكنّ دعاء لم تكفّ عن الإحساس بأنها خذلت الصبي الصغير. وهكذا، سيطر عليها عزم جديد، وراحت تفكر بطريقة كي لا تخذل ملاك وماسا. فأكثر ما يهمها الآن هو إبقاؤهما على قيد الحياة.

لذا، كلما بدأت الصغيرتان تتحركان وتضطربان، كانت تغني لهما أغنيتها المفضلة من أيام الطفولة: "يلا تنام يلا تنام، وندبح لها طير الحمام". كما اخترعت أيضاً لعبة بأصابعها، وراحت تلعبها معهما لإلهائهما. اكتشفت أن ملاك تتدغدغ من تحت ذقنها، فابتكرت لعبة تستخدم فيها أصابعها للادعاء بأن فأرة تركض على صدر ملاك لتصل إلى عنقها. وكلما نامت الفتاتان، حرصت دعاء على فرك جسميهما لإبقائهما دافئتين. وحين كانت تشعر أنهما قد تفقدان الوعي، كانت تضع أصابعها قرب عيونهما وتقول بصرامة: "ملاك، ماسا، استيقظا يا حبيبتيّ".

الكلمة الوحيدة التي نطقت بها ماسا هي "ماما".

أحست دعاء بارتباط عميق مع هاتين الفتاتين، حيث بدأت تشعر أنها أمهما، وصارت نجاتهما أكثر أهمية من حياتها.

وفي الأوقات التي لم تكن فيها دعاء تواسي الفتاتين، كانت تتلو الآيات القرآنية، فيحتشد حولها العديد من الناجين الآخرين للإصغاء والدعاء. وكان بعضهم يعرفون أيضاً كلمات "آية الكرسي" التي اعتادت دعاء على تلاوتها قبل النوم وكانت تعرفها جيداً.

ساعدت الأصوات على تهدئة الطفلتين، فيما عملت الكلمات على بث الطمأنينة في نفوس مؤمن والناجين الآخرين حولها. وعندما كانت دعاء تتلو الآيات القرآنية، كانت تشعر بالقوة التي تستمدها من كلمات الله. وهكذا، صمدت على أمل أن يأتي أحد لإنقاذهم سريعاً.

يوم الجمعة، في الصباح الرابع، لاحظت دعاء أن ملاك وماسا تنامان طوال الوقت وبالكاد تتحركان، فصارت تتحقق من نبضهما باستمرار للتأكد من أنهما لا تزالان على قيد الحياة.

أصبح مؤمن مثل الحارس الشخصي لدعاء والفتاتين؛ إذ إن حمايتهن جعلت لديه هدفاً يعيش من أجله نوعاً ما. لم تعد هناك أي نساء على قيد الحياة بين الناجين. وصار الرجال الآخرون يتحلقون حول دعاء، وحاول بعضهم الاتكاء على دولابها قليلاً للاستراحة، لكن "مؤمن" كان يبعدهم قائلاً لهم: "إنها تحمل هاتين الطفلتين! وقد تفقد توازنها". لكن دعاء لم تمانع. "ارتاحوا برفق من فضلكم، من أجل الطفلتين". لم يكن مؤمن يملك سترة نجاة، ولكنه سباح ماهر. رغم ذلك، لاحظت دعاء أنه بدأ يفقد قوته في أواخر فترة بعد الظهر.

فصرخت دعاء قائلة له: "لا تتركني أنت أيضاً". على اعتبار أنه الشخص الوحيد الذي صارت تشعر أنه قريب منها وتثق فيه بعد موت باسم. ولم تعرف ما الذي تستطيع فعله من دون مساعدته ومواساته. كان مؤمن طافياً على ظهره ومغمضاً عينيه حين تجمد جسمه فجأة، ثم انقلب وأصبح وجهه مغموراً بالماء. عندها، أحست دعاء أنها باتت وحيدة؛ باستثناء الطفلتين اللتين ترتبط حياتاهما بها.

تقلبت بين الوعي واللاوعي فيما جلست على الدولاب وقد ارتاحت ملاك وماسا على صدرها. وفي إحدى المرات، عندما فتحت عينيها، وجدت كل شيء أمامها ضبابياً، فرشقت وجهها بالماء لتبقى مستيقظة، وتأكدت من أن الفتاتين لا تزالان تتنفسان. أرجعت رأسها إلى الخلف مجدداً ونظرت إلى السماء، فلم ترَ أي شيء باستثناء أشكال ضبابية. فجأة، ظنت أنها لمحت طائرة بيضاء تحلق فوق

رأسها، فقالت لنفسها: لا بد أنني أهلوس. ثم فكرت في كلمات باسم: "يا الله، أعطِ دعاء روحي كي تعيش". بدأت تبحث في الماء عن البقعة التي مات فيها باسم، لكن كل البقع بدت لها متشابهة؛ مجرد مياه ساكنة وجثث طافية حولها. حاولت طرد الفكرة التي ذكرتها بأن جثة حبيبها غارقة تحتها في الماء، وسوف تأكلها أسماك القرش من دون أن يتم دفنها كما يجب.

شعرت بالذعر، ونظرت مجدداً إلى السماء بحثاً عن أية طائرة، ولكنها رأت عوضاً عن ذلك طائراً صغيراً باللونين الرمادي والأسود. حلق الطائر فوق رأسها، ثم طار بعيداً. جاء الطائر ثلاث مرات إليها، وفي كل مرة، كان ينظر إليها مباشرة، فتساءلت في سرها: هل يعني ذلك أنه توجد يابسة قريبة!؟ فهي لم ترَ طائراً واحداً منذ أربعة أيام، ولا حتى طائر نورس. لا بد أن الطائر إشارة من الله. سينقذنا أحد ربما.

وبعد فترة قصيرة من رحيل الطائر، سمعت صوت محرك، ولمحت الطائرة البيضاء نفسها تحلّق فوقها. هذه المرة، عرفت أنها لا تتخيل. فصرخت عالياً: "يا الله! هل رأى أحد هذا؟". وكان الناجون القليلون الباقون على قيد الحياة قد ابتعدوا عنها، وباتت تطفو وحدها مع ملاك وماسا. غير أن رجلين سبحا صوبها؛ وهما رجل فلسطيني تعرفه ويدعى "محمد"، ورجل أفريقي لم تره من قبل. كان محمد يرتدي سترة إنقاذ، فيما أمسك الرجل الأفريقي بعلبة مياه بلاستيكية كبيرة. راقبت دعاء السماء، ورأت ما يشبه الماسات المتساقطة؛ مثل الألعاب النارية. عادت الطائرة للتحليق فوقها مجدداً.

فقالت دعاء متفائلة: "توجد طائرة فعلاً. اقتربا كي يرونا".

فأجابها محمد وهو ينظر إلى السماء: "لا أرى أي شيء".

عندهـا، قالـت لـه دعاء: "أعطنـي قنينتك البلاسـتيكية". وعندما أعطاهـا إياهـا، رفعتهـا إلـى الأعلى في زاوية تعكس الشـمس لتراهم الطائرة. وهذه المرة، حلقت الطائرة على علو منخفض. وعندما فعلت ذلك، لوّح الثلاثة بأيديهم صارخين: "النجدة! ساعدونا".

لكن الطائرة اختفت فجأة، فيما هبطت الشمس ببطء في الأفق. عندها، راحت دعاء تدعو وتتضرع إلى الله: أرجوك يا إلهي. لا بد أنهم رأونا. وذعرت من فكرة قضائها ليلة أخرى في المياه حالكة الظلمة.

باتت أشـعة الشـمس تسـطع على عينيها الآن، فأصبحت رؤيتها ضبابيـة بفعـل الأشـعة القويـة، ولكنها اسـتمرت في النظـر إلى الأفق بتفاؤل. وعندما لمحت سفينة كبيرة في البعيد، قالت لمحمد الموجود قربها: "ابق معي أرجوك. سـاعدني على الوصول إلى السـفينة". فقد عرفت دعاء أنها لا تستطيع السباحة، وخاصة مع الطفلتين.

فقال لها محمد: "لم يعد بوسعي البقاء في الماء. أنا متعب جداً. سأسبح إلى السفينة وأخبرهم أنكم هنا".

وهكذا، انطلق الرجلان، وراقبتهما دعاء وهما يسبحان بصعوبة باتجاه السـفينة إلى أن أصبحت عاجزة عن رؤية محمد. لكن الرجل الأفريقي بقي ظاهراً لها، فتساءلت عن سبب توقف محمد فجأة فيما أصبح على وشك أن يتم إنقاذه، إلى أن أدركت أنه توقف عن الحركة تماماً. لقد مات وهو على وشك أن ينقذ نفسه.

هبط الليل، ولم يعد بوسـع دعاء رؤية السـفينة أو أي شـيء آخر في العتمة. كان البحر كثير الأمواج، وثمة شيء ارتطم بجانب دولابها. وحين استدارت، رأت جثة الرجل الأفريقي. كان وجهه متورماً وعيناه مفتوحتين. عندها، صرخت دعاء عالياً وأبعدت الجثة عنها، لكن قوة

التيـارات أعادتهـا إليهـا، وراحـت ترتطم بها مراراً وتكـراراً. فما كان مـن دعـاء إلا أن نقلـت الطفلتين إلى وسـط جسـدها، وتشـبثت بهما جيداً بذراع واحدة، واسـتخدمت كل قوتها الباقية للتجذيف بذراعها الأخرى في الاتجاه الذي رأت فيه السفينة.

لكنها أحسـت بأنها لا تصل إلى أي مكان، فاسـتدارت ونظرت خلفها. ومن بعيد، رأت أنوار سفينة أخرى كبيرة. عندها، غرفت دعاء بعض الماء ورشقته على وجهَي الطفلتين لإبقائهما مستيقظتين.

كيف سـأصل إلى تلك السـفينة؟ تسـاءلت في سرها. إنها بعيدة جداً. يا الله، أحتاج إلى الوصول إلى هناك، أرجوك أن تعطيني القوة.

وبدأت تجذف صوب السفينة بإحدى يديها، فيما طوّقت الفتاتين باليد الأخرى. لم تأبه لما يمكن أن يحصل لها، ولكنها فكرت في أنها إذا تمكنت من إنقاذ ملاك وماسا فستشعر أن لحياتها معنى. لذا، قررت أن تقاوم لتعيش بما يكفي لتعرف أنه تم إنقاذ الفتاتين الصغيرتين، ثم بعد ذلك ستتوقف عن الكفاح وتنضم إلى باسم مجدداً.

الفصل العاشر

إنقاذ في ساعة الموت

كانت السفينة "سي بي أو اليابان" المحملة بمواد كيميائية تعبر البحر الأبيض المتوسط في طريقها إلى مضيق جبل طارق حين تلقت نداء استغاثة من حرس السواحل المالطية: ثمة سفينة محملة باللاجئين غرقت، ويُطلب من كل السفن المتوافرة تقديم المساعدة. كان القانون الدولي يُلزم كل السفن بتقديم المساعدة لأي شخص يتم العثور عليه في البحر في حال تعرضه الخطر. لذا، حين سمع قبطان السفينة اليابانية النداء بدّل مساره، وطلب إجراء جولات استطلاع إضافية لتحديد موقع غرق السفينة. وكانت السفن التي تجوب المنطقة تحرص دوماً على الانتباه إلى اللاجئين والمهاجرين الذين يخاطرون بحياتهم لعبور البحر المتوسط، رغم علمهم بأن القيام بمثل هذه المحاولات يفضي غالباً إلى الموت. وقرر طاقم السفينة اليابانية أن يبذل كل ما بوسعه لإنقاذ الناجين. لكن، عندما وصلت السفينة إلى حيث أشارت الإحداثيات التي أعطيت لها في نداء الاستغاثة، لم يرَ أفراد طاقمها سوى جثث منتفخة تطفو على سطح البحر.

أبطأت السفينة سرعتها لتفادي الارتطام بالجثث. وسمع القبطان

من سفينة تجارية كانت موجودة في موقع الحادث أن طاقمها تمكن مـن إنقاذ خمسـة أشـخاص، ولكنها على وشـك إنهـاء عملية الإنقاذ بسـبب هبـوط الظلمـة. إذ لن تجدي نفعـاً محاولة البحث عن المزيد من الأشخاص في العتمة.

منـذ بـدء أزمـة اللاجئين عام 2014، أدت السـفن التجارية دوراً أساسـياً في إنقاذ أعداد غير مسـبوقة من اللاجئين والمهاجرين الذين غامروا باجتياز البحر المتوسـط. وفي العام نفسـه الذي تحطمت فيه سـفينة دعاء، أنقذت السـفن التجارية نحو أربعين ألف شـخص. إلا أن تلك السـفن كانت غير مجهزة كما يجب أن تكون سـفن البحث والإنقاذ. وبالتالي، كانت كل محاولة إنقاذ تكلف شركة الشحن الكثير من الوقت والموارد.

ظن قبطان السفينة اليابانية أنه أدى دوره؛ فقد لبى نداء الاستغاثة، ولن يلومه أحد إذا بدّل مسار سفينته وتابع طريقه. لكن، فيما كان ينظر إلى الجثث الطافية حوله، قرر أن يطلب من طاقمه إنزال قارب النجاة إلى البحر؛ فإذا عثرت السفينة الأخرى على خمسة أشخاص على قيد الحياة، فقد يكون هناك أحياء آخرون. ولم يتحمل فكرة الاستسلام، رغم أنه لم يرَ في الضوء الخافت سوى الجثث.

سيطر الصمت على طاقم السفينة فيما قرروا الشروع في بحثهم. كانوا مجرد بحارة عاديين، فهم رجال من أوروبا الشـرقية والفيليبين اجتمعوا معاً في هذه السفينة. صحيح أنهم ليسوا رجال إنقاذ محترفين، ولكنهم لا يستطيعون ترك المكان من دون المحاولة على الأقل.

بـدأت الريـاح تزداد قوة، والأمواج تعلو، والرؤية تسـوء. جلس ثلاثـة أفـراد مـن الطاقم على متن قـارب نجاة، فيما قام رفاقهم بإنزال

الحبال ببطء لإيصال القارب إلى البحر. كان القارب حديث الطراز، ومصمماً بطريقة تتيح له التحرك في الطقس السيئ في البحار العاتية من دون أن تدخله المياه. مروا أمام عشرات الجثث المنتفخة، فيما قال لهم القبطان عبر الجهاز اللاسلكي: "لا ترفعوا الجثث. ابحثوا فقط عن الناجين".

تحرك قارب الإنقاذ في كل المساحة، ولكن أفراد الطاقم لم يجدوا سوى الجثث، وبدا لهم وكأن بحثهم قد ذهب سدى. إلا أن صوت القبطان صدح فجأة عبر الجهاز اللاسلكي. فعلى متن السفينة، سمع الرجل المسؤول عن الحراسة صوت امرأة تطلب النجدة، فأدركوا أنه لا يزال هناك شخص على قيد الحياة في مكان ما. توجّه الرجال في قارب النجاة صوب المكان الذي حُدِّد لهم على أمل تحديد مصدر نداء الاستغاثة.

وكانت الرياح قد ازدادت قوة فيما تابعوا عملية البحث، ما جعل سماع أي صوت غير الهدير القوي أكثر صعوبة. لذا، عمدوا إلى إيقاف محرك القارب بين الحين والآخر لمحاولة السماع بشكل أفضل. استطاعوا أحياناً سماع صدى بعيد لصوت امرأة، ولكنه كان يأتي من اتجاه مختلف في كل مرة. صرخوا مراراً وتكراراً: "تابعي الصراخ". وأدركوا جيداً أنهم إذا لم يقولوا لها ذلك فلن يتمكنوا أبداً من إيجادها.

بعد أربعة أيام وليالٍ في الماء، من دون أي شيء لأكله أو شربه، انهارت قوة دعاء، وآلمتها ذراعاها، وشعرت بدوار قوي، وخشيت أن تموت. لم تعد تشعر بأسفل ساقيها، وباتت حنجرتها الآن جافة نتيجة الصراخ المتكرر. رغبت في الاستسلام، ولكنّ وزن ماسا وملاك على

صدرها منحها حافزاً للعيش. استمرت في التجذيف للبقاء طافية، ومع كل حركة في الماء كانت تقول: "يا رب". لكن، يبدو أن صوتها كان يختفي وسط الرياح.

لمحت السفينة اليابانية عندما اقتربت منها للمرة الأولى، وبدت لها قريبة جداً، ولكنها لم تعد تراها الآن. أين ذهبت؟ تساءلت في قرارة نفسها، فيما بدأ الشك يسيطر عليها، وباتت متأكدة من أنها ستموت مع الفتاتين قبل أن يجدهن أحد.

فجأة، كما لو أن الله قد استجاب لدعائها، سمعت دعاء أصواتاً تنادي، وفهمت بعض الكلمات الإنكليزية: "أين أنت؟ تابعي الصراخ كي نلحق بصوتك ونجدك". فجأة، قذفتها موجة بعيداً، وباتت الأصوات خفيفة جداً كما لو أنها ابتعدت عنها. ثم توقفت الأصوات دفعة واحدة.

حاولت دعاء تذكر الكلمة الإنكليزية التي تعني "النجدة". وعندما عجزت عن تذكرها، استعملت أية كلمة خطرت في بالها، وبذلت كل جهدها للفظ الكلمات. تساءلت: ألا يمكنكم رؤيتي؟ فيما تحركت في الماء، وخشيت ألا يكون صوتها مسموعاً أبداً، أو أنها تهلوس. ولكنها لاحظت أن هناك ضوءاً يتحرك ذهاباً وإياباً فوق الأمواج، وكلما صرخت كان الضوء يقترب منها أكثر، فجذفت بكل قوتها صوبه. إصرارها الكبير على إنقاذ ملاك وماسا منحها قوة لم تتخيل حينها أنها لا تزال موجودة لديها.

في تلك الأثناء، كانت الفتاتان قد توقفتا عن الحركة تقريباً، وبدأتا تفقدان الوعي. فرشقت دعاء الماء على وجهيهما لإيقاظهما، وجذفت بين الجثث بأسرع ما يمكنها للوصول إلى أملها الوحيد.

لا يمكنهـا الآن أن تتـرك مـلاك وماسـا تموتـان بعـد أن أصبح الإنقاذ وشيكاً جداً.

كان فم دعاء جافاً جداً، حيث بدا لها وكأن الصوت الخارج من حنجرتها أشبه بصوت طقطقة عبر شفتيها. لم تعرف لكم من الوقت تستطيع الاستمرار في الصراخ، أو لكم من الوقت تستطيع الصمود طافيـة مـع الفتاتِيـن. ولكنها خافت أن يستسـلم الباحثـون إذا توقفت عـن الصـراخ، وبالتالـي أن تمـوت الفتاتان. توقفت ماسـا وملاك عن الحركة الآن، واستلقتا جامدتين على صدرها. أحست دعاء أن دمهما يسري في عروقها، وأن كل قلوبهن تخفق معاً. كان بقاؤهما على قيد الحياة مرتبطاً بوصولها إلى قارب الإنقاذ. قالت لنفسها إنه حين تصبح ماسا وملاك بأمان، فبإمكانها العودة إلى حيث غرق باسم للتواجد معه مجدداً. وشعرت بالارتياح لمجرد تفكيرها في أنه عليها الصمود فقط لبعض الوقت لتستريح بعد ذلك مع باسم.

أخيـراً، بعـد مـرور سـاعتين، صـرخ بحـار نظر من نافـذة قارب الإنقـاذ: "أراهـا!". وفجـأة، تحركـت الأضـواء صوب دعـاء، واقترب منها مركب أحمر بحجم حافلة صغيرة، وبدا مثل شـيء في الأفلام. في البداية، ظنت دعاء أنها تتخيل الأمر. فهذا لا يشبه أي قارب آخر رأته في حياتها من قبل.

حـدّق إليهـا الرجـال الموجـودون علـى متـن القـارب بذهول، وصدمـوا لـدى رؤيتهـم هذه المرأة الضعيفـة طافية على دولاب بحر عادي، فيما نصفها السفلي مغمور بالماء.

فُتِـح بـاب جانبـي فـي القارب، ووقف رجل عنـد المدخل ومدّ عصا طويلة صوب دعاء. أمسـكت دعاء بالعصا وتشـبثت بها جيداً،

فيما سحبوها مع الفتاتين. وعندما اقتربت من القارب، تحدثت إلى الرجال الموجودين في الطرف الآخر. كان صوتها ضعيفاً وإنما ملحاً. إلا أنها أدركت سريعاً أنهم لم يفهموا أية كلمة مما قالته.

عندما وصلت دعاء إلى القارب أخيراً، أمسك الرجال بذراعيها وساقيها لرفعها إلى الداخل، ولكنها قاومت. وبآخر ما بقي لديها من قوة في صوتها، طلبت من منقذيها باللغة العربية أن ينقذوا ملاك وماسا. وأشارت إلى صدرها، ورفعت سترتها الرقيقة للكشف عن الفتاتين الصغيرتين المستلقيتين على صدرها، فيما أذرعهما الضعيفة تطوقها. ذهل الرجال كثيراً، إذ لم تصمد هذه المرأة الشابة الضعيفة فيما مات الكثيرون غيرها فقط، وإنما نجحت أيضاً في إبقاء طفلتين على قيد الحياة. قام أحد مسؤولي القارب، دميترو زبيتنياف، بسحب أول طفلة من بين ذراعَي دعاء، ومن ثم الطفلة الثانية، وسلّمهما برفق إلى زملائه الذين لفوهما ببطانيات حرارية، وحملوهما بين أذرعهم؛ إذ كانت حياتاهما نفيستين جداً وسط كل هذا الموت. وأخيراً، تمدد دميترو لسحب دعاء إلى القارب، لكنها رفضت مجدداً.

"أحب هاتين الفتاتين كثيراً. اعتنوا بهما من فضلكم". قالت دعاء ذلك فيما تخيلت ابتسامة ملاك الجميلة، وفكرت في سرها: ها قد أصبحتا بمأمن الآن، ولم أعد مضطرة للكفاح أكثر. يمكنني الآن الانضمام إلى باسم. باتت وحدها للمرة الأولى منذ أيام، وشعرت بالارتياح لأنها أنجزت مهمتها، فرفعت ركبتيها استعداداً للابتعاد عن القارب. أريد العودة إلى باسم والموت معه. لم تعرف دعاء إن كانت قد قالت ذلك بصوت عالٍ أم لا.

ولكن، في تلك اللحظة، أمسك أحد أفراد الطاقم بذراعها

وسحبها، فاستطاعوا رفعها إلى القارب. عانت من الهلوسة نتيجة العطش والإرهاق، ولم تعد تعرف ما إذا كان ما يجري حقيقياً أم مجرد خيال. لا أستطيع العيش من دونه، قالت لنفسها. لكن رغم تصميمها على الموت مع باسم في البحر، كانت ضعيفة جداً لمقاومة الرجال الذين يحاولون إنقاذها. لم يكن وزن دعاء كبيراً، واستطاع دميترو رفعها إلى المركب بسهولة، ووضعها برفق على الأرض. تمّ لفها فوراً ببطانية، فيما قام أحدهم بوضع إسفنجة مبللة على شفتيها لتسحب منها الرطوبة. وعند تذوقها الماء العذب، شعرت بعطش أكبر مما شعرت به طوال تلك الأيام التي أمضتها طافية في البحر. أشارت إلى أنها تريد المزيد، وحاولت مدّ يدها إلى قنينة الماء، ولكنها لم تستطع تحريكها. عندها، أحضر رجل قشة، ووضعها بين شفتيها المتشققتين كي تملأ فمها بالماء العذب وتروي جسمها الجاف. كان طعم الماء رائعاً جداً، لكن دعاء ابتلعته بسرعة فتقيأت.

في غضون ذلك، توقفت ماسا وملاك عن الحركة، فقال دميترو لزملائه: "علينا بذل كل ما بوسعنا لإبقائهما على قيد الحياة". ثم تواصل عبر الجهاز اللاسلكي مع القبطان المسؤول عن السفينة لإبلاغ خفر السواحل بعثورهم على الفتيات، وطلب مروحية إنقاذ. نظر دميترو حوله مذهولاً، وتساءل لاحقاً: "هل كان ما حصل أعجوبة أم قدر؟! فبالنسبة إلى بحارة عاديين مثلنا، غير مدربين على البحث والإنقاذ في مثل تلك الظروف في البحر، يعتبر إنقاذ أحدهم مثل إيجاد إبرة في كومة قش. وفي مثل ذلك الطقس السيئ، لم يكن هناك أي مجال لنجاتهن لساعة إضافية بذلك الدولاب الصغير".

استلقت دعاء في قارب الإنقاذ من دون حركة، وشعرت بأنها

ضعيفة ومنهكة وعاجزة عن تحريك أي عضلة في جسمها، فيما شق القارب طريقه صوب السفينة الكبيرة. أحست بالأمواج وهي تدفع قارب النجاة صوب السفينة الكبيرة. واحتاج الأمر إلى القيام بمحاولات عدة قبل التمكن من رفع قارب النجاة وإعادته إلى السفينة. وعندما أصبحوا أخيراً على متن السفينة، حملها الرجال ووضعوها بعناية على حمالة نقالة. لم يعد بوسعها رؤية ماسا وملاك، ولكنها رأت عوضاً عن ذلك عيوناً قلقة وفضولية حولها. لم يكن أيّ منهم يتحدث اللغة العربية، ولكنهم فهموا حين أخبرتهم أنها ليست والدة ماسا أو ملاك.

استلقت دعاء على الحمالة وهي ترتجف بسبب ملابسها المبللة. عندها، أعطاها أحد الرجال بذلة من قطعة واحدة برتقالية اللون، تماماً مثل تلك التي يرتديها أفراد الطاقم. نجحت نوعاً في إفهامهم أنها تريد ارتداء ملابسها وحدها من دون أن يراها أحد. ففهموا ما قصدته، وشكّلوا حولها طوقاً بالبطانيات، وأداروا لها ظهورهم كي تتمكن من خلع ملابسها المبللة، فيما جلست على سطح السفينة وارتدت البذلة البرتقالية. احتاجت إلى كل ما بقي لديها من قوة لارتداء البذلة. وفيما كانت تمرر يدها فوق رأسها، لامست أصابعها الشبكة البيضاء التي ربطت بها شعرها وثبتته إلى الخلف. وتذكرت الابتسامة التي ارتسمت على وجه باسم عندما أعطاها إياها، ورغبت حينها في البكاء. أحست دعاء بفيض من العاطفة، وأدركت فجأة أن رأسها مكشوف، فأرادت الحصول على وشاح لتغطي شعرها؛ إذ لم يسبق لها أن تواجدت من قبل أمام رجال من خارج عائلتها من دون أن تضع غطاء على رأسها. ولتشعر بالراحة، تحسست دعاء عنقها

بحثاً عن هدية أخرى تعني لها الكثير كان باسم قد قدمها لها. كانت الحليتان المتدليتان من سلسلتها المفضلة عبارة عن علم المعارضة السورية ورصاصة فارغة أحضرها باسم معه من درعا قبل أن يهرب.

تمالكت دعاء نفسها، وتأملت كومة الملابس والمستندات التي كانت قد لفتها بعناية بأكياس النايلون. فهي الممتلكات الوحيدة الباقية لديها، وارتاحت لرؤيتها على حالها. أعطت الأغراض، الواحد تلو الآخر، إلى أحد الرجال الذين سحبوها من الماء: جواز سفرها، وجواز سفر باسم، وعقد زواجهما، وخمسمئة يورو، وهاتفها الخلوي، والمصحف النفيس. ثم انهارت على ظهرها بعد أن خارت كل قواها. ساعدها أفراد الطاقم على العودة مجدداً إلى الحمالة، ونقلوها إلى غرفة صغيرة في الطابق السفلي. رفعوها بعناية إلى سرير، ووضعوا وسادة تحت رأسها، ثم غطوها ببطانية دافئة.

أقرب محطة لخفر السواحل كانت في اليونان، في جزيرة رودوس، وهذه مسافة بعيدة جداً بالنسبة إلى مروحية الإنقاذ لتتمكن من الوصول إلى الموقع الحالي للسفينة. تلقى طاقم السفينة التعليمات للتوجه إلى جزيرة كريت اليونانية كي تلاقيهم المروحية هناك على الشاطئ الجنوبي الغربي. كانوا يحتاجون إلى ساعتين على الأقل للوصول إلى هناك وتوفير المساعدة الطبية لدعاء والفتاتين. نظر القبطان إلى البحر، ثم ضبط المحركات على أعلى سرعة.

في غضون ذلك، كان أفراد الطاقم يهتمون بملاك وماسا ودعاء، ويقدمون لهن الإسعافات الأولية التي يعرفونها. وثمة رجل قدّم لدعاء لوح شوكولا، فتركته يذوب ببطء على لسانها. كان طعمه رائعاً، لكن السكر علق في حنجرتها، فبدأت تسعل بشدة وصارت عاجزة عن

التنفس جيداً. عندها، وضع أحدهم قناع الأوكسيجين على وجهها فارتاحت فوراً. شعرت وكأنها لا تزال تتمايل في البحر. وعندما فتحت عينيها، لم تصدق أنها على متن سفينة، وأنها بأمان وحية ترزق.

خلدت دعاء إلى نوم متقطع تلك الليلة. واستيقظت ذات مرة لتجد أفراد الطاقم يلتقطون الصور معها. لكنها لم تمانع. فقد عرفت أنهم أشخاص طيبون، وشعرت بالأمان لوجودهم حولها. لقد أوصلها الله إليهم، فكرت دعاء في ذلك فيما خدلت إلى النوم مجدداً. رأت دعاء في حلمها أنها تغرق وتختنق، واستيقظت مرة وهي تتقيأ. رأت في حلمها أنها عالقة تحت الماء، وتحاول الوصول إلى السطح لتنشق الهواء. استيقظت مذهولة، وتفاجأت لدى رؤيتها أحد الرجال في غرفتها يضع ملابسها قرب سريرها. كانت مغسولة، ومكوية جيداً، ومطوية، وتفوح منها رائحة الصابون. وبعد ذلك، وضع الرجل مستنداتها ومالها والمصحف فوق ثيابها، ووضع كل شيء داخل كيس من النايلون. شعرت دعاء بالمواساة نتيجة هذا التصرف اللطيف، واستلقت مجدداً على السرير وأغمضت عينيها.

وفيما عانت دعاء من الكوابيس، كان أفراد الطاقم يبذلون كل ما بوسعهم لإنقاذ الفتاتين الصغيرتين. تحدث أجد أفراد الطاقم عبر الجهاز اللاسلكي مع طبيب من خفر السواحل المالطية، للحصول منه على الإرشادات. وبما أنه لا يوجد فريق طبي على متن السفينة، لجأ أفراد الطاقم إلى معلوماتهم البدائية في الإسعافات الأولية. أخبر أفراد الطاقم الطبيب أن الفتاتين في حالة سيئة جداً؛ إذ لا تزالان فاقدتَي الوعي، وتنفسهما خفيف جداً، وحرارة جسديهما منخفضة

كثيراً. كانت دعاء أيضاً في وضع سيئ، إذ بدت ضعيفة جداً، وتحدثت ببطء وبطريقة غير مفهومة. لكن الفتاتين الصغيرتين كانتا على وشك الموت. نصح الطبيب أفراد الطاقم بتقديم القليل من الماء الفاتر فقط للطفلتين، ولف جسديهما بالبطانيات مع وضع قوارير من المياه الساخنة داخلها. إذ ربما كانت الفتاتان تعانيان من هبوط في حرارة الجسم، ولا بد من تدفئة جسديهما ببطء. وطُلب منهم مراقبة تنفسهما وقياس حرارتهما باستمرار.

بعد خمس ساعات على سحبها من الماء، استطاعت دعاء سماع صوت مروحية فوقها. استفاقت من نومها، ووجدت أفراد الطاقم يدخلون غرفتها مسرعين، ويشيرون لها بأن الوقت قد حان للمغادرة. حاولت الوقوف، لكن ساقيها انهارتا تحت وزنها وعادت مجدداً إلى السرير. أحاط ستة رجال بالسرير ورفعوها معه، حاملين دعاء إلى سطح السفينة، حيث تُحلِّق المروحية على مسافة منخفضة بعد أن أنزلت سلة إنقاذ إلى سطح السفينة. كان أسفل السلة عبارة عن إطار مربع من المعدن والحبال، مربوط بشبكة من الحبال السميكة بواسطة مصدات مطاطية. وعند شدّ الحبال جيداً، تصبح مثل قفص قوي شبيه بالهرم. تلاعب الهواء بشعر دعاء، وأحست بالبرد فيما رفعها رجل يرتدي سترة وخوذة ووضعها داخل السلة. كانت ضعيفة جداً، حيث عجزت عن الجلوس. عندها، ركع الرجل قربها عند الفتحة، متشبثاً بالحبال ومبتسماً لها فيما تم رفع السلة إلى المروحية. أحست دعاء بالأمان داخل السلة، ونظرت إلى الأسفل صوب الماء كثير الأمواج، وفكرت في سرها أنه لا يمكنها أن تكره البحر مجدداً لأن "باسم" بات جزءاً منه الآن. وتذكرت بعض كلماته الأخيرة: "إذا مت، فكل

ما أريده هو أن تكوني سعيدة".

امتدّت ذراعان قويتان من داخل المروحية لسحبها إلى الداخل. وتفاجأت دعاء حين اكتشفت أن الناجين الآخرين موجودون داخل المروحية. أول شخص رأته كان "محمد"؛ الرجل الذي سبح صوب سفينة الإنقاذ مع الرجل الأفريقي في وقت سابق من هذا اليوم، ووعدها بالعودة إليها ولكنه لم يعد قط. إذاً، لم تكن تلك السفينة وهمية. قال من دون أية عاطفة حين رآها: "أنت هنا". فأدارت دعاء عينيها ونظرت بعيداً عنه؛ إذ لم ترغب في قول أي شيء للشخص الذي لم يعد لإنقاذها. ثم رأت "شكري"؛ الرجل الفلسطيني الذي خسر زوجته وولديه الصغيرين بعدما غرقت السفينة. كان جالساً بصمت، ومحدقاً إلى البحر عبر النافذة. تعرفت إلى رجلين آخرين، ولكن من دون أن تتذكر اسميهما. ثم رأت ماسا الصغيرة محمولة بين ذراعَي أحد أفراد طاقم المروحية، وملفوفة بإحكام ببطانية صوفية بيضاء، وقد خرجت قدمها العارية الصغيرة من الطرف، ومالت إلى جانب واحد. لم تتحرك قط، فتضرّعت دعاء في سرها إلى الله: أرجوك يا الله، أرجوك دعها تعيش. بحثت عن ملاك على المقاعد، ولكنها لم تجدها. فقالت دعاء لنفسها إنه ربما سيتم سحبها من السفينة الآن. لكن باب المروحية أغلق بعد ذلك، وسرعان ما انطلقت. لم يتم رفع أي ناجين آخرين. لفتت دعاء انتباه أحد أفراد طاقم المروحية، وصرخت يائسة: "أين ملاك؟ الطفلة!".

لكن صوت المروحية كان عالياً جداً، حيث لم تسمع جواب الرجل. وحتى لو سمعت ما كانت لتفهم، فقد تحدث الرجل بالإنكليزية. سألت عن ملاك مجدداً، فتولى أحد الناجين الآخرين

الترجمة لها، وقال إن الصغيرة ملاك قد ماتت. بذل أفراد الطاقم كل ما بوسعهم لإنقاذها، ولكنها ماتت. علق نفس دعاء في حنجرتها عندما سمعت هذا الخبر وبدأت تبكي. شعرت وكأن قلبها تمزق داخل صدرها؛ تماماً حيث وضعت ملاك رأسها. لم تتحمل دعاء وحشية ذلك. فقد صمدت ملاك طوال أربعة أيام في الماء لتموت بعدما تم إنقاذها منه. تمنت دعاء لو أنها ماتت هي وعاشت ملاك. سيطر الحزن على دعاء، فيما تساءلت عما إذا كانت الطفلة ستنجو لو أنها أصرت على إبقائها بين ذراعيها وأنشدت لها الأغاني وتلت الآيات القرآنية، تماماً كما فعلت في الماء. اقترب طبيب من دعاء وتحسس نبضها، ثم ابتعد عنها بسرعة وذهب صوب ماسا المستلقية على ظهرها وباشر في إعطائها التنفس الاصطناعي، فيما ضغط بمتن يده على صدرها. حبست دعاء أنفاسها، إذ لم تتحمل فكرة خسارة ماسا أيضاً. بعد لحظات عصيبة، توقف الطبيب عن الضغط على صدر الطفلة، وجلس مبتسماً بارتياح. فقد عادت ماسا لتتنفس مجدداً، وخفق الأمل في قلب دعاء.

بعد ساعة، هبطت المروحية في قاعدة عسكرية قرب مدينة شانيا، غرب كريت. وكانت هناك سيارتا إسعاف في الانتظار. وفيما بدأت الشمس تشرق في الأفق، تم وضع دعاء على حمالة ونقلها بعيداً.

عندما استيقظت، وجدت دعاء نفسها في سرير مستشفى، مع شرطي قربها يتحدث بلغة لم تسمعها من قبل قط. وجلس قربه رجل بعمر والدها تقريباً، وتحدث إليها بلغة عربية ذات لكنة مصرية. سألها عن اسمها وجنسيتها، وشرح لها أنها بأمان في مستشفى يوناني.

وبدأ يترجم أسئلة الشرطي: من أين انطلقت الباخرة؟ من كان على متنها؟ ما عدد الركاب؟ إلى أين كانوا ذاهبين؟ من هم المهربون؟ كيف غرقت السفينة؟ شعرت دعاء بالدوار نتيجة الأسئلة وأرادت العودة إلى النوم. أخبرتهم بأسرع ما يمكنها أن مجموعة من الرجال الأشرار أغرقوا السفينة عمداً، وأن نحو خمسمئة راكب غرقوا كلهم تقريباً. سأل الشرطي دعاء عما إذا كانت الفتاتان اللتان تم إنقاذهما معها ابنتيها. وعندما هزت رأسها نافية سألها: "كيف يعقل أنهما ليستا ابنتيك؟". ظنت دعاء أن هذا السؤال غريب، ولكنها شرحت للشرطي أن الطفلة التي لا تزال على قيد الحياة هي ماسا وأنها من سوريا مثل دعاء، فيما الفتاة الأخرى، ملاك، من غزة، وأنها كانت الناجية الوحيدة من عائلة مؤلفة من سبعة وعشرين فرداً كانوا أيضاً على متن السفينة، ولكنها ماتت. وأخبرته عبر دموعها أن عائلتَي الفتاتين طلبتا منها الاهتمام بالطفلتين، وأنها بذلت ما بوسعها لإبقائهما على قيد الحياة. سيطر عليها الحزن مجدداً فيما فكرت في موت ملاك، وبكت دعاء كثيراً قبل أن تغط في نوم عميق.

عندما استيقظت في المرة التالية، وجدت دعاء نفسها في غرفة مستشفى كبيرة مع مرضى آخرين. نزعت عنها البطانيات، ونظرت إلى ذراعيها وساقيها ورأت أنها مغطاة كلها برضوض أرجوانية وسوداء. حاولت دعاء الوقوف للذهاب إلى الحمام، ولكنها وقعت. وفيما حاولت رفع نفسها عن الأرض، سيطر ألم حاد على ساقيها، وتساءلت عما إذا كانت قد فقدت قدرتها على المشي. وبالإضافة إلى الألم الذي شعرت به في ساقيها، شعرت دعاء بالألم الشديد في ذراعيها نتيجة حملها ماسا وملاك لوقت طويل في الوضعية نفسها. أسرعت

ممرضة صوب دعاء، ونقلتها برفق إلى كرسي نقال، ورافقتها إلى الحمام. أشارت دعاء إلى أنها تريد الخصوصية، فأغلقت الممرضة الباب. وعندما أصبحت دعاء وحدها، رفعت نفسها بيديها واتكأت على المغسلة، ونظرت إلى نفسها في المرآة. كادت لا تتعرف إلى وجهها. إذ كان وجهها مسفوعاً بالشمس ومتقشراً، وبدت عيناها وكأنهما لامرأة غريبة تحدق إليها بتعبير يائس. حركت أصابعها في شعرها الأشعث، فخرجت كتل كبيرة من شعرها بين يديها. لا بد أن دعاء صرخت بصوت عالٍ، لأن الممرضة فتحت الباب ودخلت وقد بدت على وجهها نظرة قلقة. ساعدت دعاء في العودة إلى الكرسي النقال، وأعادتها إلى سريرها، فارتاحت دعاء لأنها ابتعدت عن انعكاس صورتها المرعب الذي رأته على صفحة المرآة.

وعندما عادت إلى السرير، فكرت دعاء في الاتصال بأمها، ولكنها لم تعرف ما الذي ستقوله لها. كيف ستخبرها بما حصل؟ وبالإضافة إلى ذلك، كانت تشعر بالكثير من الدوار والاضطراب، ولم تستطع تذكر أرقام الهاتف. بحثت دعاء عن هاتفها الخلوي وحاولت تشغيله، لكن البطارية كانت فارغة. فحدقت إليه وقالت لنفسها: أشعر أنني ميتة رغم أنني على قيد الحياة.

تم اصطحاب ماسا الصغيرة إلى مستشفى آخر، وهو مستشفى كريت الجامعي في هيراكليون، حيث تم وضعها في قسم العناية الفائقة الخاص بالأطفال. الدكتورة ديانا فيترولاكي، المشرفة على علاج ماسا، قالت إن ماسا كانت على شفير الموت عندما وصلت. إذ كانت تعاني من قصور حاد في الكليتين، وهبوط في حرارة الجسم،

وجفاف حاد في الجسم، كما كانت شبه فاقدة وعيها. وخشيت الطبيبة من أن تعاني من تلف كبير في الدماغ إذا عاشت. لم يشهد المستشفى من قبل حالة مرضية كحالة ماسا، وبذل الموظفون كل ما بوسعهم لإنقاذها. تم وضعها على جهاز تنفس اصطناعي مع مصل في الوريد لإعادة السوائل والغلوكوز إلى دمها. أطلق عليها الموظفون اسم ناديا، وحملوها دوماً بين أذرعهم وأنشدوا لها الأغاني، ولم يتركوها وحدها أبداً.

وصلت الصحافة بعد وقت قصير، وأصبح كفاح ماسا للحياة أبرز خبر في اليونان. وظهرت في الجرائد وعلى المواقع الإلكترونية صورة لها على سرير المستشفى، وهي تنظر إلى الكاميرا بعينين واسعتين وحزينتين. في اليوم الرابع الذي تلا عملية الإنقاذ، تحدث مدير المستشفى نيكوس هاريتاكيس إلى وسائل الإعلام: "كافحت الطفلة الأمواج لأيام ولياليٍ عدة. وعندما وصلت إلى هنا، كانت تعاني من جفاف تام، ومحروقة من الشمس، ومصابة بالعديد من المشاكل الوظيفية. إلا أنه تم رفع أجهزة الإنعاش عنها بعد أربعة أيام فقط. وهي اليوم بوعيها الكامل، كما أنها تأكل وتشرب بصورة طبيعية، وهي في حال جيدة. كان من الممكن لطفلة صغيرة في عمرها أن تعاني من ضرر كبير في الدماغ نتيجة الجفاف".

وما إن انتشر خبر نجاة الطفلة من تحطم السفينة بعد أن بقيت لأربعة أيام في الماء، تلقى المستشفى الكثير من الاتصالات الهاتفية من عائلات يونانية ترغب في تبني الطفلة. وقال المدير هاريتاكيس إنهم تلقوا نحو خمسمئة عرض. فقد وقع الجميع في غرام تلك الطفلة التي نجت من ظروف مريعة.

في غضون ذلك، بعد أربعة أيام من العلاج، بدأت دعاء تستعيد عافيتها ببطء؛ من الناحية الجسدية على الأقل. كما تم نقلها إلى دار للمسنين للاهتمام بها. أطلقت الصحافة على دعاء لقب البطلة لأنها أنقذت الطفلة ناديا وصمدت كل ذلك الوقت في البحر المتوسط. جاء الرجل المصري الذي تولى الترجمة لها عندما استيقظت للمرة الأولى في اليونان لزيارتها كثيراً، وأحضر معه زوجته. وأحضرا لها الملابس، وعرضا عليها اصطحابها إلى منزلهما. كانت لديهما أربع بنات، إحداهن بعمر دعاء تقريباً. وأكد لها الزوجان أنها ستكون محط ترحيب من دون أية مشاكل، ولاسيما أنها بمفردها في بلد جديد وتحتاج إلى الحماية. في المقابل، عرضت عليها السلطات اليونانية شقة صغيرة مع إمكانية طلب اللجوء.

عرفت دعاء أنها لا تستطيع أبداً العيش وحدها في بلد غريب، لذا قررت قبول عرض العائلة المصرية. وبعد أن أمضت يومين في دار رعاية المسنين، انتقلت إلى شقة العائلة المصرية في شانيا. حضروا لها سريراً في غرفة الفتيات، وشعرت دعاء بالراحة في المنزل المتواضع واللطيف، مع الطقوس العائلية، والطعام المصري.

إلا أنها عرفت أن أهلها قلقون عليها من دون ريب. فهم لم يعرفوا أي شيء عنها منذ أكثر من أسبوع، وقد كانت مريضة ومشوشة جداً أثناء وجودها في المستشفى فلم تتمكن من الاتصال بهم. إذ كلما رفعت الهاتف كانت تكافح لتتذكر أرقامهم. وكلما فكرت في ما تريد قوله، كانت فكرة إخبارهم بما حصل لها ولباسم ترهقها وتجعلها راغبة في النوم. ولكنها عرفت أنه عليها الاتصال بهم في نهاية المطاف. حاولت دعاء تذكر رقم هاتف أي من أخواتها أو

صديقاتها، ولكنها لم تستطع تذكر أي شيء. ثم خطرت لها فكرة إزالة البطاقة من هاتفها المعطل، وإدخالها في هاتف جديد قدمته لها العائلة المضيفة لها. وتذكرت أنها عندما أرسلت الصور إلى صديقاتها عبر خدمة الواتساب، ظهر رقم هاتف المستقبل فوق الصور. لذا وضعت البطاقة في هاتفها الجديد، وفتحت خدمة الواتساب، وقلبت لائحة الأرقام. أول رقم رأته كان لصديق لها في مصر. اتصلت بالرقم، لكن لم يجب أحد لأن التوقيت ربما كان في منتصف الليل. أحست دعاء بالتعب والإرهاق، وتابعت البحث في هاتفها. وأخيراً، وجدت صورة لأختها آية التي كانت الآن تعيش في لبنان. وفوق الصورة، ظهر رقم آية، فاتصلت به دعاء على الفور.

وبعد أن رن الهاتف مرات عدة، سمعت صوت أختها يقول: "آلو؟".

"آية، هذه أنا دعاء!". كانت لا تزال تجد صعوبة في التكلم، وبدا صوت دعاء غريباً نتيجة محاولاتها الكثيرة لطلب المساعدة.

"دعاء! أين أنت؟!". وبدت آية مرتاحة، فيما بدأت دعاء تبكي لدى سماعها صوت أختها. أخبرت آية دعاء أن أمها قد اتصلت بها قبل يومين، وأنها سألتها بلهفة عما إذا كانت قد عرفت أي شيء عن أختها. وكانت تلك هي المرة الأولى التي تعرف فيها آية أن دعاء و"باسم" قد سافرا على متن سفينة إلى إيطاليا، وأنه يفترض بهما أن يكونا قد وصلا قبل وقت طويل، وأخبرتها أنها تشعر بالقلق عليهما منذ ذلك الحين.

"أين باسم؟".

فكذبت دعاء وقالت: "باسم ينام في الجامع لأننا جميعاً فتيات

هنا، ولا يمكنه البقاء معنا". ولم تستطع إخبار أختها الكبرى أن "باسم" قد مات. فالنطق بالكلمات سيجعل الأمر حقيقياً. ثم أخبرت آية أنها مضطرة لإنهاء الاتصال لأنها تستعمل هاتفاً مستعاراً.

"عليك أن تتصلي بماما وتخبريها أنك بخير!".

"سأتصل بها، ولكنني لا أستطيع تذكر رقمها. أرجوك أرسلي لي الرقم وسأفعل". قالت دعاء ذلك قبل أن تنهي الاتصال بسرعة.

لم تستطع دعاء التفكير بوضوح، ولم تنم طوال الليل، وكانت قلقة مما ستقوله لعائلتها عن باسم. إذ لم تعد تميّز بين ما كان حقيقياً وما كان وهماً. فطوال أيام، لم تفكر دعاء سوى في كيفية الصمود وإبقاء الفتاتين الصغيرتين على قيد الحياة. ولكنها الآن لا تعرف ما يجدر بها فعله. في ذلك الحين، أعطتها ماسا وملاك هدفاً معيناً، أما الآن فهي لا تملك أي شيء. في السابق، تمحورت كل مشاريعها حول تأسيس حياة مع باسم، ولكنها الآن وحيدة. وإذا تحدثت إلى أهلها، فستعترف لهم بأنه مات؛ وهذا يعني قبول الحياة من دونه، ومواجهتها إحساسها بالذنب وبأنها المسؤولة عن موته. فحين أراد باسم العودة أثناء ركوبهما في الحافلة للذهاب إلى السفينة، أصرّت على المتابعة بالرغم من مخاوفها.

وعندما عرفت أنه لم يعد بوسعها الانتظار، حملت الهاتف للاتصال بأمها.

منذ أن قال هناء وشكري كلمات الوداع لدعاء وباسم سيطر عليهما القلق. أحست هناء أنها لن تراهما أبداً مجدداً. وبعد اتصال

دعاء الأخير الذي أبلغتهما فيه أنها وباسم على وشك الوصول إلى الشاطئ الذي ستغادر منه الباخرة، بقي شكري وهناء داخل المنزل قدر المستطاع، تفادياً لأي أسئلة عن أخبار ابنتهما.

وبعد مرور خمسة أيام من دون وصول أي خبر منهما، سيطر القلق الشديد على هناء. إذ يفترض أن تستغرق الرحلة أربعة أيام على الأكثر. اتصلت بصديقات دعاء، وطلبت منهن التحقق من صفحة "الهرب من الموت إلى الموت" على الفايسبوك التي تتعقب أخبار سفن اللاجئين الهاربين إلى أوروبا، وتنشر الإعلانات عند وصول السفينة إلى برّ الأمان. كان قد تم ذكر العديد من السفن على الصفحة، ولكن لم يظهر اسم السفينة التي غادرت الجمصة في 6 أيلول.

حاولت هناء إقناع نفسها بأنهما وصلا ولكنهما لم يجدا بعد وسيلة للاتصال بها، أو أن السفينة واجهت ربما مشكلة في محركها وأنها في البحر تنتظر الإنقاذ. وتساءل شكري عما إذا كانا قد عجزا أصلاً عن الوصول إلى السفينة ولا يستطيعان الاتصال من السجن. لكن الشيء الوحيد الذي لم يقولاه لبعضهما هو أن دعاء و"باسم" ربما ماتا غرقاً في البحر.

بدأت معلومات متضاربة تأتي من الأصدقاء والعائلة. ففي طريقها إلى المتجر، سمعت نوارة إشاعة مفادها أن السفينة قد غرقت، ولكن دعاء و"باسم" من بين الناجين المئتين. فيما أخبر الجيران سجى أن دعاء و"باسم" ماتا. غير أن الأختين احتفظتا بهاتين الإشاعتين لنفسيهما، خشية بث الذعر في نفسَي والديهما.

بعد ستة أيام على سماعها صوت دعاء لآخر مرة، سمعت هناء أيضاً إشاعة مفادها أن الباخرة قد غرقت وأنه لا يوجد أي ناجين،

وبدأت تخشى الأسوأ. لكنها بقيت صامتة؛ إذ لم تشأ إقلاق عائلتها أو الاعتراف لنفسها بأن دعاء ربما ماتت. وفي 18 أيلول، أي بعد 12 يوماً على مغادرة دعاء وباسم، طرق عدد من الجيران على باب شقة هناء وشكري، وطلبوا الدخول قائلين إنهم يحملون لهما الأخبار. فعرفت هناء من وجوههم ما حل بدعاء وباسم، ولكنها خافت من طرح السؤال. انتقلت النساء إلى الشرفة، فيما جلس الرجال في غرفة الجلوس المحاذية لها.

وفيما كانوا على وشك التحدث، رن هاتف هناء، فبحثت عنه، وارتاحت لكسر الصمت المتوتر وتأجيل سماع الخبر الذي كانت على وشك سماعه. وقالت بطريقة فظة على غير عادتها: "من يتصل؟ وماذا تريد؟".

"ماما، هذه أنا آية. اسمعي، دعاء على قيد الحياة!". أخبرت آية أمها بسرعة عن الاتصال الذي تلقته عند الساعة الثالثة من بعد منتصف الليل، وأن دعاء بخير مع عائلة في اليونان.

"الحمد لله". وشعرت هناء بالكثير من الارتياح.

عندها، أخبرت هناء ابنتها آية بأنها سمعت قبل أيام عن غرق السفينة ولكنها احتفظت بالخبر لنفسها، إذ لم تشأ إقلاق الآخرين. ثم سألت هناء عن باسم.

أجابت آية: "أخبرتني أنه نائم في جامع، ولكنها بدت غريبة. لست واثقة. بدت مشتتة حين تكلمت، وثمة خطب في ما قالته". أعطت آية والدتها رقم دعاء في اليونان كي تتحدث إليها بنفسها.

فطلبت هناء الرقم ما إن أنهت اتصالها مع آية. أجابت على الاتصال امرأة غريبة وتحدثت باللغة العربية، فطلبت هناء التحدث

إلى ابنتها.

بعد ثوانٍ قليلة، أجابت دعاء على الهاتف. "ماما، أنا بخير. سأتصل بك حين أشعر بالتحسن". بدت متعبة وبعيدة.

شعرت هناء بالكثير من الارتياح، ولكنها لم تصدق أن دعاء تريد إنهاء الاتصال بسرعة، وسألتها: "أين باسم؟".

فأجابت دعاء ببرودة: "إنه في السوبرماركت".

عندها، أحست هناء بأن هناك خطباً ما في جواب دعاء وفي استعجالها في إنهاء المكالمة، وطلبت من ابنتها التحدث إلى مضيفة دعاء مجدداً. وعندما أجابت المرأة، ألحت عليها هناء لمعرفة التفاصيل، فقالت الأم المضيفة: "إنها بخير". ووعدتها بأن تعامل العائلة دعاء كما لو أنها فرداً منها. وعندما سألت هناء عن باسم، قالت المرأة فقط إنه ليس هنا، ولم تعطِ أي تفاصيل أخرى. فعرفت هناء من نبرة المرأة المتوترة أن دعاء قريبة منها، ولذلك سألتها إذا كان بوسعها التكلم معها على انفراد. مرت لحظات صمت قصيرة، ثم بدأت المرأة بالتحدث بصراحة أكبر، وأخبرت هناء أن "باسم" قد غرق مع الركاب الآخرين، لكن دعاء تنكر ذلك. وقالت المرأة إن دعاء بطلة صمدت لأربعة أيام في الماء، وأنقذت معها طفلة صغيرة. "تملك دعاء قلباً طيباً، وهي بأمان معنا. الحمد لله لأنها على قيد الحياة". ثم همست المرأة لهناء: "رحمة الله على باسم". وعرضت عليها التكلم مع دعاء مجدداً.

كان صوت دعاء بعيداً جداً، حيث صعب التعرف إليها.

كل ما أرادت هناء فعله هو البكاء، ولكنها عرفت أنه عليها التحلي بالقوة من أجل دعاء. "قولي شيئاً يا ابنتي كي يسمعك والدك

والجيـران". عندهـا، احتشـد أفـراد العائلـة والجيران حـول هناء بعد سـماعهم أن دعـاء علـى قيد الحياة، فشـغلت هنـاء مكبر الصوت في الهاتف وقالت لها: "الجميع هنا يسألون عنك".

"أنا بخير". قالت دعاء لجميع المحتشدين في الغرفة، وكان هذا أفضل ما استطاعت قوله.

فانفجر الجميع في البكاء عند سماعهم صوتها.

قالت لها هناء: "ارتاحي يا دعاء". ووعدتها بالاتصال بها مجدداً في اليوم التالي.

في كل ليلة، استيقظت دعاء ليلاً بسبب الكوابيس. إذ كانت ترى "باسـم" وهـو ينزلـق بعيداً عنها في البحر. ومـع تكرار هذه الكوابيس مـرات عـدة، كافحـت لقبولها كحقيقة واقعيـة. وبدأت تدرك فعلاً أن "باسم" قد غرق في البحر. وكلما تواجدت في المنزل وحدها خلال النهار، كانت تشعر بالحزن الشديد.

فـي بعـض الأيـام، كانـت تخـرج إلى شـرفة الشـقة، وتنظر إلى السماء، وتتخيل "باسم" هناك. وكانت تقول له، ووجهها مرفوع نحو الغيوم، منتظرة أي جواب: "ليتك معي هنا اليوم. سـعادتي مكسـورة من دونك". وفي أيام أخرى، كانت تزعم أن "باسم" لا يزال على قيد الحياة. وفي أحد أحلام اليقظة، تخيلت أنها التقته في شارع التسوق الرئيس في شانيا، حيث تعانقا واستأنفا قصة حبهما من حيث توقفت. وكانـت لا تـزال غيـر قـادرة على نقل خبر وفاتـه إلى عائلتها. وخلال أحـد اتصالاتهـا الهاتفية مع عائلتها، سـألها شـكري عـن كيفية تقبلها لفكرة موت باسم، فأجابت من دون تفكير: "لم يمت يا بابا. إنه على

قيد الحياة".

فـي غضـون ذلك، انتشـر خبر في وسـائل التواصـل الاجتماعي عن امرأة شـابة نجت من تحطم سـفينة للاجئين في البحر المتوسـط، وأنقـذت معهـا طفلة صغيـرة. وكان أصدقاء وأفـراد عائلات الركاب المفقودين يتطلعون إلى سـماع أي خبر عن أحبابهم، ومنحهتم قصة دعـاء بعـض الأمل. ونشـر صديق للعائلة المضيفـة رقم هاتفهم على صفحة الفايسبوك من أجل الحصول على أية معلومات بشأن تحطم السفينة. وفي غضون دقائق، وردت مئات الرسائل والاتصالات. "هل تعرفيـن مـا حصل لابنتـي؟"، "هل ابني على قيد الحياة؟"، "هل نجت أمي؟"، "هذه صورة لأختي. هل رأيتها؟"، "هل رأيت والدي؟"، "هل رأيـت عمـي؟"، "هـل رأيـت صديقي؟"... تدفقت الرسـائل إلى دعاء التي بذلت ما بوسـعها للإجابة عنها، وطلبت من الأشـخاص إرسـال الصور لترى إذا كان بوسعها التعرف إلى أحد. كيف تخبرهم جميعاً أنـه لا يوجـد أمـل، وأنه يوجد فقط سـتة ناجين- وهي من بينهم- هنا فـي اليونـان، وخمسـة ناجيـن آخرون تم أخذهم إلـى مالطا؟ هذا كل شيء. كيف تقول لهم إنها تعرفت إلى بعض الأشخاص، لكنها رأتهم يغرقون في البحر؟

بعـض الرسـائل كانـت بشـعة. "كيـف صودف أنكـم الوحيدون الذين نجوتم؟ لا بد أن المهربين ساعدوكم". شعرت دعاء بالإرهاق لدى قراءتها تلك الرسائل البشعة، إذ ذكرتها كل رسالة تلقتها بحالات المـوت التـي رأتهـا، وجـددت حزنها على خسـارة باسـم وملاك. ثم لفتتها رسالة من محمد دسوقي: "دعاء، أعتقد أنك أنقذت ابنة أخي، ماسـا". وأرفـق مـع الرسـالة صورة لطفلـة ترتدي فسـتاناً أزرق مزيناً

بأزهـار بيضـاء. نظـرت دعـاء إلى الصـورة عن كثب، وكانـت الطفلة الصغيرة تظهر فيها مبتسـمة للكاميرا، وهي بالفعل ماسـا التي حملتها دعاء بين ذراعيها طوال أربعة أيام في البحر.

أعطـت دعـاء الهاتـف للأم المضيفة لها وقالت بتعجب: "ماسـا لديها عائلة!". وارتسمت ابتسامة كبيرة على وجهها، وأحست بسعادة شديدة للمرة الأولى منذ تحطم السفينة. وأجابت على الرسالة فوراً، إذ ارتاحـت لتمكنهـا أخيـراً من نقل خبر جيد إلى أحدهم: "نعم، هذه ماسا التي تم إنقاذها معي".

عرفت دعاء أن محمد دسـوقي هو أخ والد ماسـا، عماد، وأنه يبلغ من العمر ثمانية وعشرين عاماً، ويعيش في السويد مع الأخت الكبرى لماسا، سيدرا، البالغة من العمر 8 سنوات. فقد امتلك محمد مـالاً يكفـي لوصولـه مـع ابنة أخيه فقـط إلى أوروبـا، وتقدم بطلب لإحضـار بقيـة العائلـة، ومـن ضمنهم زوجته وطفلته، وأهل سـيدرا وأولاد إخوته، كي تجتمع العائلة كلها في السـويد. لكن بعد مرور عـام علـى عدم انتهاء الأوراق، سـئم والد ماسـا مـن الانتظار، وقرر إنجـاز الأمـور بنفسـه والسـفر مـع عائلته. فبما أن "محمد" وسـيدرا وصـلا بأمـان، اعتقـد أن أفـراد العائلة الآخرين سـيصلون حتماً إلى أوروبا بأمان. وقبل الركوب على متن السفينة، التقط صورة لساندرا وماسـا واقفتيـن قـرب بعضهمـا بعضـاً، وقـد ارتدتا سـترتَي الإنقاذ البرتقاليتين، فيما ذراع سـاندرا مطوقة لكتفَي ماسـا. وأرسل الصورة إلى أخيه وهو على ثقة بأنه سيراه قريباً.

عندمـا سـمع محمد بخبر تحطم السـفينة، ومـوت جميع الذين كانوا على متنها تقريباً انفطر قلبه. فقد عرف أن أخاه وزوجته وابنتيهما

كانوا على متن تلك السفينة، وأنهم ماتوا على الأرجح. ثم قرأ خبراً عن شابة سورية تبلغ من العمر تسعة عشر عاماً نجت من الكارثة، وأنقذت معها فتاة في عمر السنتين، ورأى صورة الطفلة الصغيرة وقارنها مع الصورة التي لديه، وأدرك أن ماسا على قيد الحياة!

وفي اليوم الذي تلا تأكيد دعاء لمحمد بأن ماسا على قيد الحياة، سافر محمد إلى كريت، ووصل إلى المستشفى وطلب رؤية ابنة أخيه. استغرق الأمر عاماً تقريباً إلى أن تأكدت مفوضية اللاجئين للأمم المتحدة والسفارة السويدية في أثينا أن "محمد" هو فعلاً عم ماسا، ويمكن اعتباره بمثابة الوصي الشرعي عليها، وإلى أن تم إنجاز أوراق لـمّ شمل. وخلال هذا الوقت، تم وضع ماسا في ميتم في أثينا متخصص في معالجة الأطفال المصدومين؛ فلعبت مع الأولاد الآخرين، وتعلمت بسرعة التحدث باليونانية. وبعد إجراء فحوصات الحمض النووي وإنهاء جلسات المحاكمة، استطاعت ماسا أخيراً الانضمام إلى عمها وعمتها وأختها الكبرى وقريبة لها في السويد لتبدأ حياة جديدة.

كان العثور على عائلة ماسا نقطة تحول بالنسبة إلى دعاء. فقد جعلتها هذه التجربة تشعر بأن قلبها بدأ يتعافى. في بعض اللحظات، أحست أنها تستطيع الاجتماع مع عائلتها مجدداً وأن تبدأ حياة جديدة. لكن الأخبار التي كانت تصلها من عندهم كانت محزنة. فبعد أسابيع من إنقاذها، طلبت وسائل الإعلام من كل أنحاء العالم إجراء مقابلات مع دعاء لسؤالها عن ظروف تحطم السفينة. وتحدث عدد من المقالات عن اتهامها للمهربين بإغراق سفينتها عمداً واعتبارهم

المسؤولين عن موت خمسمئة شخص. ولم تدرك عواقب تلك المقابلات إلا عندما تلقت اتصال استغاثة من أمها.

فقد قالت هناء بنبرة خائفة تماماً مثل تلك التي سمعتها دعاء من أمها عندما هددها الرجال المصريون باغتصاب دعاء مع أخواتها: "ثمة من يهددني يا دعاء. قال لي: اطلبي من دعاء أن تغلق فمها وتتوقف عن تسمية الأشخاص، فنحن نعرف جيداً أين تعيشون".

كان ذلك واحداً من اتصالات عدة تلقتها عائلة دعاء من أرقام مجهولة وتم فيها كلها تهديدهم.

طلبت دعاء من هناء أن تبلغ الشرطة بالاتصالات، واتصلت بمفوضية اللاجئين للأمم المتحدة التي أخذت التهديدات على محمل الجد، وأُرسِل شخص للتحدث مع العائلة ونصحهم بتبديل مكان إقامتهم. قالت هناء لدعاء: "لا أريد تبديل المنزل مجدداً". لكن دعاء طمأنت أمها بأنها لن تجري أي مقابلات إضافية، وأملت في أن يترك الرجال أفراد عائلتها وشأنهم.

لكن بعد أيام قليلة، تلقت دعاء اتصالاً آخر من أمها. إذ كانت أمها في المنزل مع العائلة عندما سمعت طرقاً على الباب. كان ثمة رجل مصري أنيق المظهر يقف عند الباب، وطلب جوازات سفرهم بكل تهذيب، زاعماً أنه شرطي. من دون تفكير، سحبت هناء جوازات السفر وأعطته إياها، فقلّبها وقرأ الأسماء بصوت عالٍ. "عندئذ، ساورني الشك". قالت هناء لدعاء. فأخذت هناء جوازات السفر من يدَي الرجل وسألته: "لماذا تريد جوازات سفرنا؟".

فقال: "أنا أتحقق فقط إذا كان يوجد سوريون هنا". ثم غادر على عجل. وبعد أن غادر، ذهبت هناء إلى مركز الشرطة المحلي

وسألتهم عما إذا كانوا قد أرسلوا أحداً للتحقق من هوياتهم. وعندما أجابوها بالنفي، شعرت بالقلق وتساءلت: ماذا لو تعرضت العائلة للأذى؟ وتلقت بعد ذلك رسالة هاتفية مليئة بالشتائم قيل فيها: "أعرف اسمَي ابنتيك".

بعد فترة وجيزة، كانت سجى ونوارة في طريقهما إلى المنزل عندما شعرتا أن شخصاً يلحق بهما. وحين استدارتا خلفهما لمحتا رجلاً طويلاً وأنيق المظهر يحمل سكيناً في يده اليمنى، فعرفتا فوراً أنه الشخص نفسه الذي جاء إلى منزلهما وسأل عن جوازات سفرهم وزعم أنه من الشرطة. شعرت الفتاتان بالذعر، وعبرتا الشارع بسرعة، وتوجهتا إلى جارة تعرفان أنها قريبة. ولاحقاً، عندما أخبرت الفتاتان هناء وشكري بما حصل، أدركت العائلة أنه لم يعد أمامها أي خيار سوى الانتقال. عندها، اتصلت هناء بمفوضية اللاجئين في الأمم المتحدة، وجاء مسؤولون منها لزيارتهم ومعرفة المزيد. أخبرتهم هناء بما حصل مع دعاء، وعن التهديدات التي يتلقونها؛ بما في ذلك التحرش الجنسي الذي تواجهه الفتاتان، ما أجبر هناء وشكري على إخراجهما من المدرسة. فقال موظف مفوضية اللاجئين في الأمم المتحدة إنهم مؤهلون لبرنامج لمّ الشمل التابع لمفوضية اللاجئين في الأمم المتحدة نظراً لوضعهم الدقيق. والسويد واحدة من الدول التي تقبل اللاجئين السوريين "الضعفاء". فقالت هناء: "السويد، لأن "باسم" ودعاء أرادا الذهاب إلى هناك".

كانت دعاء مصممة على بذل كل ما بوسعها لإخراج عائلتها من مصر. وغضبها من الأشخاص الذين هددوا أهلها أخرجها من حالة الحزن التي كانت تعيشها، ودفعها إلى العمل، فلجأت إلى إيراسميا

رومانا من مفوضية اللاجئين في الأمم المتحدة لمساعدتها. عندها، شرحت لها إيراسميا أن العملية ستكون طويلة ومعقدة. فصحيح أن عائلة دعاء تملك ذريعة قوية، لكن اليونان لم تنشئ برنامجاً للمّ الشمل مع دولة أخرى في الاتحاد الأوروبي. وشرحت إيراسميا لدعاء أنها تستطيع طلب اللجوء إلى اليونان، وإذا حصلت عليه، فبإمكانها الاستقرار هناك، مع امتلاكها الحق بالسفر، والتقدم في النهاية بطلب للحصول على الجنسية. لكن قلب دعاء خفق للسويد، حيث أرادت وباسم تأسيس حياة جديدة معاً. وقررت أنها إذا لم تستطع الوصول إلى هناك مع باسم، فستساعد عائلتها على الوصول إلى هناك. وإذا لم تستطع أخذ عائلتها إلى هناك، فبإمكانها أن تذهب وحدها. وعند وصولها إلى السويد، يمكنها تحقيق حلمها وحلم باسم، والتقدم بطلب للمّ الشمل وإحضار عائلتها للانضمام إليها.

في كل يوم، كافحت دعاء الكآبة التي تشعر بها، إذ صارت تمتلك العزيمة وهدفاً جديداً تمثل في توفير السلامة لعائلتها. وخلال الأشهر القليلة التالية، أصبحت حياتها أكثر هدوءاً. فقد لفتت قصتها انتباه المجتمع المدني اليوناني، واتصل عمدة شانيا بالسلطات المحلية لمنحها الجنسية اليونانية نظراً لبطولتها. إلا أن ذلك لم يحصل لسوء الحظ، لكن هذا الطلب ساعد دعاء على وضع نفسها في إطار جديد؛ كشخص قوي وشجاع.

وفي 19 كانون الأول 2014، قدمت أكاديمية أثينا لدعاء جائزة قيمتها 3000 يورو نظراً لشجاعتها. وفي الواقع، إن زيارتها إلى أثينا والفخر الذي شعرت به عند استلامها الجائزة دفعاها إلى التطلع إلى المستقبل. وقالت لنفسها إنها لن تتوقف عن الكفاح إلى أن تلتقي

عائلتها مجدداً. وبعد ذلك، سوف تدرس لتصبح محامية؛ كي تحارب من أجل السلام الذي رأت القليل منه في حياتها فقط.

ورغم ألمها بسبب فراقها عن عائلتها، كافحت دعاء للتغلب على اليأس والحزن اللذين سيطرا أحياناً عليها. فطوال الأعوام التسعة عشر الماضية، كانت محاطة بعائلتها، وها هي الآن وحدها. ولكنها رأت أن تواجدها وحدها مع ذكرياتها أفضل من مشاركتها مع الآخرين. أحست أنها مختلفة عن الفتيات اللواتي في مثل عمرها. وفيما استمتعت بصحبة فتيات العائلة المضيفة اللواتي كن لطيفات معها، عرفت أنهن لن يتمكنّ أبداً من فهم ما تعانيه. فهي لا تجد أبداً الكلمات المناسبة للتعبير عن الرعب الذي شعرت به بسبب الموت والمعاناة التي خاضتها أو عمق حزنها. وكان حزنها يسيطر عليها بشدة كلما حاولت التحدث عن ذلك. وبعد الشرّ الذي رأته وتعرضت له، صار من الصعب عليها الوثوق في الناس مجدداً. غير أن دعاء شعرت أنه عليها مساعدة نفسها للتغلب على صدمتها وعدم طلب المساعدة من أي شخص آخر.

في بعض الأحيان، خلال طقوس الحياة اليومية العادية، كانت تعود إليها ذكرى مفاجئة عن الأيام التي أمضتها في البحر، حيث يعود إليها الألم مجدداً. وذات يوم، فيما كانت تمشط شعرها وتنظر إلى المرآة، شمت رائحة عطر باسم، فاستدارت لترى ما إذا كان واقفاً خلفها. إذ أخبرها أصدقاؤها في مصر شائعات مفادها أنه لا يزال حياً وأنه مسجون هناك. ثمة جزء منها أراد تصديق ذلك؛ رغم أن عقلها أعاد إليها كل ليلة تقريباً مشهد غرقه أمام عينيها. حاولت التفكير في السبل التي كانت ممكنة لإبقائه على قيد الحياة. وفي كل مرة، كانت

تحتاج إلى ساعات عدة للنوم مجدداً. وحين تستيقظ في صباح اليوم التالي، كانت تأمل أن يكون موته مجرد كابوس، وأنه ينتظرها خارج الباب.

في صيف 2015، أي بعد عام تقريباً على إنقاذها، كانت دعاء لا تزال تكافح مع حزنها وكوابيسها وخوفها من عدم تمكنها من المضي قدماً في حياتها. وذات يوم، شاهدت تقريراً إخبارياً عن آلاف اللاجئين من بلدها الذين وصلوا إلى اليونان. لقد عبروا البحر من تركيا، وشقوا طريقهم عبر البلقان إلى النمسا وألمانيا والسويد. فكرت غالباً في استعمال جائزتها المالية للدفع لمهرّب آخر لمساعدتها على السفر إلى السويد مثل بقية اللاجئين. لكنّ موظفي مفوضية اللاجئين في الأمم المتحدة الذين كانوا يعملون على مساعدة دعاء، حذروها من أن تلك الرحلة خطيرة، وخصوصاً لأنها امرأة وحيدة. وألحوا عليها للتحلي بالصبر لإيجاد حل آخر. فهم يعملون على نقل عائلتها إلى السويد، وإيجاد طريقة لتنضم إليهم أيضاً. وعندما تنتهي الأوراق، تستطيع دعاء السفر إلى السويد وتأسيس حياتها مع عائلتها بطريقة شرعية. وجدت دعاء صعوبة في التحلي بالصبر، وكان من المستحيل بالنسبة إليها الوثوق في أي شخص عرض عليها المساعدة. لكنها قررت أن تحاول الصبر إذا كان ذلك يعني وصول عائلتها إلى برّ الأمان. وحتى ذلك الحين، ستبقى في أحضان عائلتها المضيفة.

ذات يوم من ذلك الصيف، أي بعد عام كامل من الحزن والكوابيس والخوف من عدم التقدم في حياتها أبداً، انضمت دعاء إلى عائلتها المضيفة في نزهة على شاطئ البحر. وبعد أن انتهوا من تناول

الطعام، وقفت دعاء فجأة، وخلعت صندلها، ومشت في البحر قليل العمق إلى أن وصلت المياه إلى كتفيها. كانت المياه صافية وباردة وساكنة. وقفت هناك حابسة أنفاسها، ثم أنزلت جسمها برفق تحت الماء إلى أن غمر الماء رأسها لبضع لحظات. وعندما صعدت إلى سطح الماء مجدداً وعادت إلى الشاطئ، استدارت للنظر إلى الأفق وقالت: لم أعد أخاف منك إطلاقاً.

خاتمة

كانت دعاء بأمان في كريت وتتعافى، ولكنها بدأت تدريجياً تشعر بالتململ بسبب قلقها على مستقبلها. عرضت عليها الحكومة اليونانية فرصة التقدم بطلب لجوء. ولكن رغم لطف الأشخاص المحيطين بها، لم تشعر دعاء بالارتياح في اليونان. ففي كل يوم مضى على وجودها في هذا البلد، توجب عليها مواجهة البحر حيث غرق باسم. ورغم أن منظر البحر لم يعد يشعرها بالخوف، إلا أنها أرادت الابتعاد عن كل شيء يذكرها به. فضلاً عن ذلك، لطالما حلمت هي وباسم بالوصول إلى السويد، وأرادت تحقيق هذا الحلم. وفي الوقت نفسه، كانت دعاء قلقة على عائلتها؛ فتهديدات المهربين تزداد يوماً بعد يوم، ولم يكن بوسعها فعل أي شيء للمساعدة. واشتاقت أيضاً إلى حنان أمها، وإلى الجلوس برفقة عائلتها. فقد كانت طوال حياتها محاطة بكلامهم المريح، وثمة شيء لا يستطيع تطبيق الواتساب أو السكايب تعويضه. كما شعرت أيضاً أنها مسؤولة عن الخطر الذي يواجهونه. ورغم أنها لم تكن تعرف ما يجدر بها فعله، إلا أنها كانت مصممة على إخراجهم جميعاً من مصر كي يبدأوا حياة جديدة معاً.

التقيت دعاء للمرة الأولى في كانون الثاني من عام 2015، وأمضيت معها ساعات عدة في غرفة جلوس عائلتها المضيفة،

وشاركتها في شرب الشاي وسألتها عن معاناتها. صُدمت حين لاحظت شدة عزيمتها وقوة إصرارها لدى إخباري قصتها، وأدركت سريعاً أنها وثقت فيّ لسببين رئيسين: لمساعدتها وعائلتها على الانتقال إلى بلد آخر، ولتحذير اللاجئين الآخرين الذين قد يحاولون القيام بالرحلة الخطرة نفسها. واتضح لي سريعاً أنها تشعر بالمسؤولية التي يتحملها عادة الأولاد البكر في الثقافة العربية، والتي تحثهم على الاهتمام بعائلاتهم. فقد شعرت دعاء أنها الوحيدة القادرة على تغيير مصير عائلتها. وفي تلك المرحلة، كانت قد فقدت الثقة في الحكومات لمساعدتها وللعثور على المذنبين الذين أغرقوا السفينة وسوقهم إلى العدالة. وقالت لي: "نحن السوريين لا نملك أي دعم، سوى من الله. فقد يهتم الآخرون بنا، وإنما فقط بالكلمات. أنا مرهقة. إذ لا أستطيع العودة إلى أهلي، ولا تستطيع عائلتي المجيء إلى هنا. سمعت الكثير من الوعود، ولكنني أريد رؤية التنفيذ على أرض الواقع".

عندها، صمّمتُ على نقل حكايتها إلى العالم، وعلى مساعدتها لتبدأ حياتها مجدداً في السويد. فصحيح أن الصحافة اليونانية أشادت كثيراً ببطولتها، وأنها حصلت على الجائزة السنوية من أكاديمية أثينا بعد مرور أشهر قليلة على إنقاذها، لكنني شعرت أن قصتها تستحق لفت انتباه المجتمع الدولي، وكنت واثقة من أنها ستلفت انتباهه.

أطلق زملائي برنامجاً رسمياً لنقلها إلى بلد آخر، وكان هذا أمراً غير مألوف في اليونان في تلك الفترة. ولكن، تمت معاملة دعاء بطريقة خاصة؛ لأنها امرأة شابة مصدومة وعائلتها في خطر. لذا، تم

التماس النظر إلى قضيتها بطريقة مختلفة. إذ كان هناك نظام لتوطين اللاجئين الآتين من بلدان مضيفة مثل مصر، ونظراً للوضع الدقيق لعائلة دعاء، اعتبرت عائلتها ملبية لمعايير مفوضية اللاجئين في الأمم المتحدة. وهكذا، تم ضمّ طلبات دعاء وأفراد عائلتها معاً، وتقديم طلب خاص لنقلهم كلهم إلى المكان نفسه.

كنت مع دعاء في مقهى في شانيا، كريت، في تشرين الأول من عام 2015 عندما تلقيتُ اتصالاً مفاده أن الحكومة السويدية قد وافقت على طلب توطينها مع عائلتها، وأنه يجدر بها الاستعداد للرحيل خلال أسابيع قليلة. وللمرة الأولى منذ بدأنا بالعمل على الكتاب معاً، رأيت الفرح الحقيقي على وجهها. وفيما طلبتُ الآيس كريم للاحتفال، اتصلت دعاء بأهلها لتنقل إليهم الخبر.

في 18 كانون الثاني 2016، ركب شكري وهناء وسجى ونوارة وحمودي على متن طائرة متوجهة من القاهرة إلى استوكهولم، ثم بدلوا الطائرة للوصول إلى مطار أوسترسوند. استقبلهم في المطار المسؤولون السويديون المهتمون بقضيتهم، ووضعوهم في حافلة صغيرة لنقلهم إلى منزلهم الجديد الذي يبعد عن المطار بضع ساعات بالسيارة، في قرية هامردال الصغيرة في شمال شرق السويد. وفي الصباح نفسه، ركبت دعاء على متن طائرة متوجهة من شانيا إلى أثينا، ومن ثم إلى كوبنهاغن، استوكهولم، وأخيراً إلى أوسترسوند. وعندما وصلت إلى منزلها الجديد قرابة منتصف الليل، ومشت على الثلج البالغ ارتفاعه ثلاث أقدام، كانت ترتجف من برد لم تشعر به من قبل

قـط. وعندمـا طرقـت على الباب بخجـل، فتحته هناء بعد ثوانٍ قليلة، وطوّقت ابنتها بذراعيها، فيما وقف شكري خلفها وقد امتلأت عيناه بالدمـوع. وبعـد عام ونصف على فراقهم، أحسـت دعاء أخيراً بدفء عناق أمها، ولم ترد التخلي عنه مجدداً قط.

رغـم أنهـم خسـروا كل مـا كان يمنحهـم هويتهـم- المنـزل والمجتمع والبيئة- رفض اللاجئون مثل دعاء فقدان الأمل. لكن، ما هي الخيارات التي كانت متاحة لدعاء وعائلتها؟ أهي فرصة البقاء في مصر كلاجئين من دون فرص للتعليم أو العمل الجيد؟ أو العودة إلى منطقة تشتعل فيها الحرب، وحيث المستقبل مجهول، لا بل خطر؟ أو المجازفـة والركـوب في البحـر على متن "قارب الموت" للبحث عن الأمان وفرص أفضل في أوروبا؟

بالنسبة إلى معظم اللاجئين، لم يبقَ أي شيء للعودة إلى الوطن؛ فقد تدمرت منازلهم وأعمالهم ومدنهم. فمنذ بدء الأزمة في سـوريا عـام 2011، وصـل القتال تدريجيـاً إلى كل المناطق، وانهار الاقتصاد والخدمـات الاجتماعيـة. وقـد أجبر نصف السـوريين (نحو 5 ملايين شخص) على الهرب من منازلهم لإنقاذ حياتهم. وتهجر 6.5 ملايين شخص أيضاً. ومنذ شهر آذار 2011، قُتل أكثر من ربع مليون سوري في المعارك، وأصيب أكثر من مليون. وانخفض متوسـط العمر عند السـوريين إلى أكثر من 20 عاماً تقريباً، وبات 13.5 مليون شـخص- منهـم 6 ملايـين طفـل- بحاجـة إلى مسـاعدات إنسـانية. لكنّ نصف أولئك الأشخاص المعوزين موجودون في مناطق محاصرة أو يصعب

الوصول إليها، ما يجعل إيصال المساعدات إليهم أمراً صعباً، لا بل مستحيلاً في بعض الأماكن.

عند نشر هذا الكتاب، كانت الحرب السورية قد دخلت عامها السادس، وذهب نحو 5 ملايين لاجئ إلى دول مجاورة لإيجاد المأوى في مخيمات مكشوفة، أو منازل مؤقتة، أو شقق مهدمة في لبنان والأردن وتركيا ومصر والعراق. وفي كل يوم، يشاهدون الأخبار ويدركون أن مدنهم وقراهم قد تحولت إلى ركام، ويعرفون بموت أصدقائهم وأحبابهم، ما يترك أثراً نفسياً وجرحاً عميقاً لديهم.

المجتمعات التي يعيشون فيها ورحبت بهم في ما مضى باتت الآن غارقة تحت عبء استضافة الكثير من الأشخاص المعوزين. ففي لبنان الصغير- البلد الذي يعاني أصلاً من الفقر وعدم الاستقرار- بات 25 في المئة من السكان من اللاجئين، ولا توجد مدارس كافية، أو شبكات مياه وصرف صحي، أو منازل لدعم اللاجئين.

وبعد مرور أكثر من خمسة أعوام على الصراع، وعدم بزوغ أي أمل بالسلام، تخلى العديد من السوريين عن أملهم بالعودة إلى منازلهم. إذ لم يبقَ لديهم أي شيء هناك، فيما مقراتهم الجديدة تعاني من أعباء متزايدة. وهكذا، صار اللاجئون يضطرون للسفر إلى أماكن جديدة لإيجاد ملاذ آمن يسمح لهم أيضاً بتعليم أولادهم وإعادة تأسيس حياتهم؛ حتى لو كانت تلك الرحلات تعني المجازفة بحياتهم أثناء عبورهم البحر الأبيض المتوسط.

واللافت أن الوصول المفاجئ لأعداد هائلة من السوريين إلى أوروبا عامَي 2014 و2015 دفع الحكومات إلى طلب المزيد من الدعم للاجئين في المنطقة. إذ أدركت أوروبا فجأة أنه لم يعد بوسع اللاجئين ترك لبنان والأردن وتركيا من دون دعم، فيما يعيش اللاجئون في ظروف صعبة جداً. وعقد مؤتمر دولي في لندن في كانون الثاني 2015 لجمع الأموال للمنظمات الإنسانية والدول المضيفة، وتمويل برامج التعليم والتوظيف. وتم عقد اتفاق مع تركيا يقضي بمنح مليارات الدولارات للبلاد مقابل المساعدة على منع اللاجئين من الهرب. كما تم تعزيز الحدود في البلقان لمنع اللاجئين الذين باتوا في اليونان من التوجه إلى أوروبا، وإثباط عزيمة الآخرين. إلا أن المساعدات المالية التي تم جمعها بعد المؤتمر لم تكفِ لتلبية احتياجات اللاجئين، ولم يحصل تحسن كبير في معايير عيشهم.

قصة دعاء هي قصة ملايين الأشخاص الذين يعيشون في ظروف تعيسة في انتظار اللجوء، ويشاهدون أخبار الحروب في بلدهم. إنها أيضاً قصة القوى الدولية التي علقت في شباك المنافسات الإقليمية، وباتت عاجزة أو غير راغبة في إيقاف الحرب.

والآن، تبدأ دعاء وعائلتها حياة جديدة آمنة وكريمة في السويد. ويُمضي شكري ودعاء وهناء أيامهم في صفوف سويدية لتعلم اللغة، فيما تم تسجيل سجى ونوارة وحمودي في مدارس محلية. لكن، أريد أن أطرح سؤالاً: لماذا كانت دعاء مضطرة للمجازفة بحياتها،

وخسارة خطيبها، ومشاهدة موت 500 شخص آخر للوصول أخيراً إلى هذا الأمان؟

لماذا لم يحصل باسم على تأشيرة للعمل في الخارج؟ لماذا لم تحصل ماسا وعائلتها على فرصة لمّ الشمل الرسمية مع أفراد العائلة الآخرين الموجودين أصلاً في شمال أوروبا؟ لماذا اضطروا جميعاً إلى المجازفة بحياتهم؟ لماذا لا توجد طريقة قانونية للانتقال من مصر إلى أوروبا للدراسة في الخارج؟ لماذا لا يوجد برنامج شامل لمساعدة السوريين؛ ضحايا أسوأ الحروب في أيامنا؟ لماذا حصلت الدول المجاورة المستضيفة لنحو 4 ملايين لاجئ على القليل من الدعم في البنية التحتية والتطوير؟ والسؤال الأساسي يبقى بالتأكيد: لماذا لا يُبذَل أي جهد لإيقاف الحروب، والاضطهاد، والفقر التي تدفع الكثير من الأشخاص إلى الهرب إلى شواطئ أوروبا؟

وتبقى الحقيقة أن اللاجئين ما كانوا ليخاطروا بحياتهم في مثل تلك الرحلات الخطيرة لو كانوا مرتاحين حيث يتواجدون. والمهاجرون الهاربون من الفقر ما كانوا ليركبوا في تلك القوارب لو استطاعوا إطعام أنفسهم وأولادهم حيث هم. إذ لن يلجأ أي إنسان إلى المخاطرة بحياته على أيدي المهربين لو كان بوسعه الانتقال بطريقة قانونية إلى بلد آمن. وإلى حين معالجة هذه المشاكل، سوف يستمر الناس في عبور البحار وتعريض حياتهم للخطر بهدف طب اللجوء. ولكن، لا يجب أن يموت أي شخص هارب من الحرب أو الاضطهاد لدى محاولته الوصول إلى بر الأمان!

تأمل دعاء ألا يذهب موت رفاقها الذين كانوا معها على متن السفينة سدى. وهي غاضبة جداً لأن قعر البحر كان المكان الوحيد الذي وجد فيه 500 لاجئ الأمان، بمن فيهم الرجل الذي أحبته. وتشعر بالامتنان للسويد لأنها قدمت لها ولعائلتها إقامة شرعية وبداية جديدة، ولكنها في الوقت نفسه قلقة على أختيها الكبيرتين اللتين تكافحان مع عائلتيهما كلاجئين في الأردن ولبنان. والآن، تُمضي دعاء ساعات عدة كل يوم في الصفوف السويدية، وتأمل أن تذهب ذات يوم إلى الجامعة لدراسة القانون. إذ تعتقد أنها لدى حصولها على شهادة في القانون ستستطيع المطالبة بالمزيد من العدالة.

في شهر أيار من عام 2015، سافرت دعاء إلى فيينا في النمسا للحصول على الجائزة السنوية لمنظمة الأوبيك للتنمية الدولية. وقد اختارت اللجنة المنظمة دعاء بفضل "شجاعتها، وتصميمها على لفت الانتباه أكثر إلى أزمة اللاجئين، وذلك من خلال مشاركتها قصتها". سوف يذهب مال الجائزة لتعليمها ومساعدة الناجين الآخرين من تحطم السفينة. عند استلامها الجائزة، وقفت دعاء أمام حشود غفيرة من النساء اللواتي ارتدين الفساتين الطويلة، والرجال الذين ارتدوا البذلات الرسمية، وقالت لهم جميعاً: "ما من رجل يرغب في إنهاء حياته بأن يخلع سترة النجاة، وما من عائلة تحلم بالتهجير... هذه الرحلات تأخذ اللاجئين من اليأس إلى الموت. ولكنكم أعطيتموني اليوم بعض السلام".

ملاحظات المؤلفة

تعرفت إلى قصة دعاء للمرة الأولى من خلال موقع الويب لمفوضية اللاجئين في الأمم المتحدة في اليونان. فبصفتي مسؤولة عن قسم الاتصالات في مفوضية اللاجئين في الأمم المتحدة، أبحث دوماً عن روايات مميزة تجسد صمود اللاجئين ومقاومتهم، وتنشئ في الوقت نفسه جسور تعاطف بينهم وبين الجمهور. حصل ذلك في شهر آذار من العام 2015، وكنت حينها على وشك إلقاء محاضرة في مؤتمر TEDx في تسالونيك، اليونان، في شهر أيار بشأن أزمة اللاجئين في البحر الأبيض المتوسط. عرفت فوراً أن قصة دعاء ستحرك مشاعر الجمهور اليوناني، وستؤثر في كل الأشخاص الذين يحاولون فهم الأسباب التي دفعت آلاف اللاجئين للمخاطرة بحياتهم وعبور البحر إلى أوروبا، حيث يبتعدون أكثر فأكثر عن أرضهم بعدما هربوا من فظائع الحرب.

أجريت اتصالاً عبر السكايب مع زميلتي في أثينا، إيراسميا رومانا، التي تم تعيينها لاستلام قضية دعاء وماسا، ولتدبير طريقة تمكن مفوضية اللاجئين في الأمم المتحدة من مساعدتهما. أجرت إيراسميا مقابلة مع دعاء بعد خروجها من المستشفى لتقييم احتياجاتها وإبلاغها بأن لديها الحق في طلب اللجوء إلى اليونان. وعندما أخبرتني إيراسميا بقصة دعاء، بدا لي جلياً أنها متأثرة بها كثيراً.

ورغم أن إيراسميا شهدت وسمعت كل أنواع القصص المأساوية خلال عملها مع اللاجئين، إلا أن أية قصة لم تأسر وجدانها مثلما فعلت قصة دعاء. لذا، سافرتُ إلى كريت بعد بضعة أسابيع لألتقي دعاء بنفسي.

تولى زملائي في قسم الاتصالات في أثينا كيتي كيهايويلو، وستيلا نانو، وكاترينا كيتيدي تدبير زيارتي، وأجرين كل الأبحاث، وترجمن كل ما نشر في وسائل الإعلام اليونانية تحضيراً لرحلتي. وتبيّن لاحقاً أن تلك المقالات والصور والمعلومات الأخرى كانت مفيدة للكتاب، رغم وجود بعض الأمور غير الدقيقة في تلك الأخبار، والتي اتضحت لاحقاً بعد التحقق منها.

سافرت معي زميلتاي آنا وايت وسيبيلا ويلكس إلى كريت، ودعمتني سيبيلا طوال فترة إعدادي للرواية قبل أن أضمن موجزاً عنها في خطاب TED. أجريت أول مقابلة مع دعاء في 21 نيسان 2015 في غرفة جلوس العائلة المضيفة في كريت. تتحدث دعاء العربية فقط، واستطاعت المترجمة ترجمة الكلام من العربية إلى اليونانية، ثم تولت إيراسميا ترجمة المحادثة التي استمرت ثلاث ساعات من اليونانية إلى الإنكليزية. اتضح لي سريعاً أن التقارير التي انتشرت في وسائل الإعلام تحدثت فقط عن جزء سطحي من الكوابيس والصراعات التي عاشتها دعاء في سوريا ومصر والبحر المتوسط. كانت دعاء ودوداً ولطيفة، وإنما أيضاً هشة ومصدومة جداً. وفي مرحلة ما، بعد أن أخبرتني تفاصيل غرق باسم، سألتها عما إذا كانت تريد المتابعة

فقالت لي: "اسأليني ما شئت. هذه حياتي، وقد اعتدت عليها". كانت يقظتها عالية جداً في تلك المرحلة، ولكن بدا لي جلياً أنها تعتبرنا أشخاصاً يمكنها الوثوق فيهم لمساعدتها. فقد أرادت شيئاً واحداً؛ وهو الانتقال إلى السويد مع عائلتها التي لا تزال في مصر، لاسيما وأنها تشعر بمسؤوليتها لحمايتهم، وعرفت أننا الوحيدون القادرون على مساعدتها.

العائلة التي استضافت دعاء بعدما تم إنقاذها اهتمت بها طوال 16 شهراً كما لو أنها ابنتها. وكانت مفيدة في مساعدتنا للوصول إلى دعاء. إلا أنهم رفضوا إجراء مقابلات معهم من أجل الكتاب، وشرحوا أنهم فعلوا ما يمليه عليهم حسهم الإنساني، وبالتالي لا يستحقون أي تقدير لكرمهم. لهذا السبب، حافظت على شخصياتهم طي الكتمان في هذا الكتاب. ولكنني أريد شكرهم هنا. فقد وفروا لدعاء الحماية، ومكاناً أتاح لها فرصة التعافي؛ وهذا تصرف جميل ونبيل جداً.

بعد يوم من لقائي دعاء، سافرنا إلى هيراكليون لزيارة المستشفى الجامعي حيث تمت معالجة الصغيرة ماسا بعد إنقاذها، والتقينا الدكتورة ديانا فيترولاكي التي كانت الطبيبة المشرفة على الطفلة. أكدت لي أن ماسا كانت "على شفير الموت" عند وصولها إلى المستشفى. وقالت لي: "أعطيناها الغلوكوز والسوائل والأوكسيجين. وأنشدنا لها الأغاني، وعانقناها، وحملناها بين أذرعنا ومشينا بها. بعد يومين، بدأت تبتسم. كانت تطلب دوماً أن يتم حملها؛ إذ تريد أن تبقى محمولة طوال الوقت. وكان الموظفون متفهمين ومتعاطفين معها.

فقد أحبوا الأولاد، ولكنهم لم يصادفوا مثل هذه القضية من قبل قط". تركت المستشفى ذلك اليوم وأنا على يقين بأن الطب المعاصر ليس وحده ما أنقذ ماسا، وإنما أيضاً حب الدكتورة فيترولاكي وموظفي المستشفى الجامعي الذين اهتموا بالفتاة الصغيرة منذ لحظة وصولها.

بعد أن غادرت ماسا المستشفى، تم وضعها في ميتم ميتيرا في أثينا. وخلال زيارتي لها، أمضيت بضع ساعات وأنا ألعب معها وأتحدث مع المديرة والموظفين في الميتم. واتضح لي أن الصغيرة تعلمت سريعاً اللغة اليونانية، وأنها في أفضل مكان لتخطي صدمة غرق والديها وأختها.

لاحقاً، في مكتب مفوضية اللاجئين في الأمم المتحدة في أثينا، أجريت مقابلة عبر السكايب مع محمد دسوقي، عم ماسا الذي يعيش في السويد. وقد شاركت زوجته وولداه وسيدرا الأخت الكبرى لماسا في المحادثة. كان محمد حينها ينتظر نتيجة الإجراءات القانونية التي تؤكد نسبه الشرعي، وقدرته على الاهتمام بماسا كي يتمكن من اصطحابها إلى السويد لتنضم إلى أختها الكبرى وعائلته، وليصبح بدوره الوصي الشرعي عليها.

وبعد ظهر ذلك اليوم، تدبّر زملائي لقاء لنا مع أحد الناجين، شكري العسولي، في مكتبنا في أثينا. كان شكري في وضع مريع عندما التقيناه. إذ توقفت السلطة الفلسطينية عن دفع راتبه الشهري الصغير بسبب قلة الاعتمادات. وقبل بضعة أيام، قام أفراد من الجناح اليميني المتطرف- الفجر الذهبي- بضربه مع صديق له في حديقة

عامة وسط أثينا لمجرد أنهما غريبان، وانتهى به الأمر مع صديقه في المستشفى. كان مفلساً ومحطماً، وبكى بشدة فيما عرض علينا صور غرفة النوم الوردية لابنتيه اللتين توفتا في غزة. أراد شكري مشاركتنا قصته، واتفقنا على أن تقوم جوان عكاش- وهي صحافية سورية تتولى الترجمة لنا- بطرح أسئلتي عليه عندما يكون الوقت مناسباً. هذه المقابلة، بالإضافة إلى مقابلة أخرى أجريت بعد أشهر عدة- عند عودة شكري إلى غزة- زوّدتنا بتفاصيل إضافية، وأعطتنا وصفاً دقيقاً لما حصل خلال رحلة السفينة وخلال فترة صمودهم في البحر.

بعدما أنهيت جمع المعلومات الكافية لإعداد خطابي لمؤتمر TED، عرضت النص على المسؤولين عن مؤتمر TED في تسالونيك، كاترينا بيليوري وإيلينا بابادوبولو، اللتين اقتنعتا فوراً بأن الجمهور اليوناني سيتأثر كثيراً بقصة دعاء، ويفهم في الوقت نفسه الأسباب التي تجعل العديد من اللاجئين يموتون على شواطئهم. بذلت كاترينا وإيلينا جهوداً مميزة للترويج للخطاب. كما عرض برونو جيوساني، مدير TED في أوروبا والمشرف على مؤتمر TEDGlobal ، مراجعة الخطاب بنفسه وتقديم النصائح المهمة وإجراء التعديلات المفيدة التي حسّنت الموضوع كثيراً. أريد أن أشكر أيضاً مارك تورن الذي ساعدني في التمرن على الإلقاء. تدربت على الخطاب مراراً وتكراراً أمام زملائي، ولاسيما سيبيلا وايلكس، وإيديث شامباني، وكريستوفر ريردون، وألكسندر سان دونيس، وميديريك دروز دي بوسيه الذين كانوا جمهوراً صبوراً وفعالاً لتدريباتي، وأعطوني الكثير من الملاحظات المفيدة. أما المدرب الكلامي تي جي والكر فقد دعمني

طوال تلك العملية، وعرض عليّ أشـرطة الفيديو التدريبية، واسـتمر في تدريبي على نظام معين. عندما ألقيت الخطاب في 23 أيار 2015، أصغى إليّ الجمهور بصمت مطبق، ثم وقفوا وصفقوا جميعاً بعد أن أنهيت كلامي. بكى العديدون منهم، وتأثر رجل أعمال بارز في أثينا، ألكسيس بانتازيس، بقصة دعاء وقرر وهبها منحة دراسية باسم شركته.

قـررت إرسـال رابـط الخطـاب إلى الوكيلة الأدبيـة مولي غليك التي كانت تعمل يومها مع فاوندري ميديا، وباتت الآن مع سـي آي آي، والتـي كانـت قـد طلبت مني سـابقاً تأليف كتاب بعدما رأت أول خطاب لي في TED حول قضية اللاجئين. سـألتها: "هل يصلح هذا ليكـون كتابـاً؟". فـكان جوابهـا واضحاً: "نعم". وهكـذا، بفضل عمل مولي الشـغوف، وثقتها القوية في روعة قصة لاجئة مثل دعاء، بدأنا بالعمـل علـى إعـداد الكتـاب، وطلبت مـن دوروثي هيرسـت، وهي محررة متمرسة وروائية ناجحة، مساعدتي على تأليف الكتاب. تولت جـوي فولـس- وهي مُسـاعدة مولـي وأول من لفت انتبـاه مولي إلى خطابي الأول في TED- تدبير كل الاتصالات في مختلف الأماكن، فيمـا نجحـت كريسـتن نيوهـاوس من دار فاوندري فـي التواصل مع ثماني دور نشر أجنبية، ولا تزال تعمل على المزيد.

تـم نشـر كتابـي أخيـراً لـدى دار فلاتيـرون بوكس، فـرع من دار ماكميـلان. وقـد لفتنـي المديـر كولـن ديكرمـان باهتمامـه بالقصص الإنسـانية التي تحرك القراء وتثقفهم وتؤثر فيهم. ومنذ ذلك الحين، وجهني كولن في عملية التأليف والتسويق، وجعلني ألتزم بالمواعيد

النهائية، وشجعني على تأليف أفضل كتاب لي. ومع دخول المسوّدة مراحلها النهائية، نجحت رئيسة تحرير دار فلاتيرون، جاسمين فوستينو، في تحسين شكل النص وانسيابه؛ بفضل ذكائها الحاد في الأسلوب والبنية. أما مدير التحرير ستيف بولد، ومحامي النشر مايكل كانتويل فراجعا المسوّدة النهائية ونقحا النص للمرة الأخيرة.

الكشف عن جزء من قصتها خلال خطاب قصير في مؤتمر TED كان أمراً عظيماً بالنسبة إلى دعاء. لكن الكشف عن كل قصة حياتها بالتفصيل في كتاب كان مشروعاً مخيفاً. كنت مقتنعة تماماً بأن إخبارها قصتها سيساعدها في التغلب على مأساتها وفي توفير الدعم المادي الضروري لها. وكنت واثقة أيضاً أن قصتها ستعرّف القرّاء فعلياً على الحرب السورية، والحياة البائسة التي يعيشها اللاجئون في الدول المجاورة، والعوامل التي تدفع العديد من الأشخاص إلى المجازفة بحياتهم لعبور البحر المتوسط والوصول إلى أوروبا. إلا أن زميلي فراس كيال- وهو سوري الجنسية، وقد تأثر كثيراً بمعاناة دعاء- كان له الفضل الأكبر في إقناع دعاء وعائلتها بأن هذا الكتاب لصالحهم، وأنهم يستطيعون الوثوق بي لتأليفه. أرادت دعاء الانكفاء وأن تعيش صدمتها الخاصة بمفردها، لكن "فراس" ساعدها على فهم قدرتها على مساعدة الأشخاص الآخرين من خلال إخبار الجميع قصتها.

للحصول على كل التفاصيل التي احتجت إليها، بدا لي جلياً أنني بحاجة إلى العمل مع شخص لا يتحدث فقط اللغة العربية بطلاقة،

وإنما يدرك تماماً معاناة الشعب السوري. وقد وجدت ذلك الشخص في زهرة مكاوي، وهي صحافية وصانعة أفلام وثائقية عملت مع مفوضية اللاجئين في الأمم المتحدة لتغطية أخبار اللاجئين السوريين في لبنان. لطالما أذهلتني زهرة بموهبتها في سرد الحكايات الفردية، ورسم صورة أكثر شمولاً، وتوليد التعاطف مع اللاجئين بسبب معاناتهم وظروفهم. وقد أقامت بسرعة علاقة قوية مع دعاء وعائلتها. فأسلوبها الحساس والحنون نجح في كسب ثقتهم. أجرينا معظم المقابلات معاً، ولكنها أنجزت بعض المقابلات وحدها حين كنت عاجزة عن السفر، وتوصلنا في الإجمال إلى 70 ساعة من المحادثات. كانت بعض الجلسات مؤلمة بالنسبة إلى دعاء، حيث اضطررنا إلى التوقف والبدء مجدداً في اليوم التالي. كنا الوحيدتين اللتين تحدثت إليهما دعاء بهذا المستوى من التفصيل حول ما حدث، وبدا أن ذلك الحديث قد ساعدها. عرفت زهرة كيف تواسيها كلما شعرت بالحزن، وكيف تجعلها تضحك لتلطيف مزاجها. وطوال الأشهر السبعة التي عملنا فيها معاً، أصبحت زهرة صديقة عزيزة ومرشدة لدعاء. النصوص التي عملت عليها، وترجمتها نجلاء عبد المنعم، وفرت الكثير من التفاصيل حول ما حصل في حياة دعاء، ورسمت مشاهد حية، والتقطت جوهر حوار عائلتها. تأكدت زهرة من أن النصوص كاملة ومتناسقة، والتواريخ دقيقة، وأنه تمت معالجة أي هفوات في الذاكرة، وتجسيد كل عواطف اللحظة. كما أضافت أيضاً تعليقات متفهمة، وساهمت في الكتابة الوصفية، ما ساعد على صياغة النص الإجمالي وتطوير كل جوانب شخصية دعاء.

في الوقت الذي بدأت فيه بالعمل على الكتاب في تشرين الأول 2015، قام فريق التحرير في TED، بقيادة هيلين والترز وإميلي ماك مانوس، بنشر خطابي على الموقع TED.com. كان التفاعل مذهلاً. وعندما أنهيت تأليف الكتاب في آب 2016، قرأه أكثر من 1.3 مليون شخص، وتمت ترجمته إلى 30 لغة بفضل المترجمين الموهوبين والمتطوعين لدى TED. أشعر بالامتنان لفريق التحرير لدى TED بسبب إدراكهم لأهمية حكاية دعاء وتوفيرهم أرضية TED لنشر الوعي بشأن أزمة اللاجئين العالمية.

لم يكن بوسعي تأليف هذا الكتاب لولا الدعم البارع لدوروثي هيرست في الكتابة. فقد علّمتني أصول نشر الكتب، وفن الكتابة بالشكل الطويل. كما منحتني الثقة عندما شعرت بعرقلة في تأليفي، وقدمت لي النصائح حول كيفية التطور. وأعطتني النصائح في كل فصل، وساعدتني إضافاتها وتصحيحاتها على جعل المشاهد أكثر حيوية وغنية بالألوان والعواطف.

أريد أيضاً أن أشكر جاين كوربن التي ساعدني فيلمها الوثائقي حول درعا لصالح قناة البي بي سي، على استيعاب المشاهد التي كانت شرارة الحرب السورية. وثمة أعمال أخرى كانت أيضاً بمثابة مراجع مهمة لي، وهي "بلد يحترق" لروبين ياسين كساب وليلى الشامي، وكذلك "الملحمة الجديدة" لباتريك كينغسلي. أريد أن أشكر أيضاً الصحافيين المواطنين الذين كان تصويرهم الشجاع للأحداث بمثابة ركيزة أساسية لوسائل الإعلام والمؤرخين والمؤلفين مثلي

الذين استخدموا تلك المقاطع المصورة لرسم مشهد الحرب. وأوجّه شكراً كبيراً لماهر سمعان لتأكده من الحقائق في الفصول المرتبطة بسوريا.

لا شك في أن تصحيحات برونو جيوساني واقتراحاته حسّنت الكتابة والمضمون. وأشكر أيضاً أريان روميري، وسيبيلا وايلكس، وإيديت شامباني، وكريستوفر ريردون، وإليزابيت تان، وإيفون ريتشارد، وإيلينا دورفمان على قراءة المخطوطة وتقديم كلمات الدعم. شكر إضافي لإيلينا على الصور المذهلة التي التقطتها لدعاء.

أنا ممتنة كثيراً لبات ميتشيل، المسؤول عن فرع TED للنساء، الذي تولى ربطي ببرنامج مركز روكفلر للمنح الجامعية في بيلاجيو، إيطاليا. فقد حصلت على منحة جامعية لمدة شهر كامل في مقرّهم المذهل في بحيرة كومو في نيسان 2016، مما وفّر لي البيئة والمساحة والأوقات المثالية التي احتجت إليها لتأليف الفصول المهمة في الكتاب. أوجه تقديراً خاصاً إلى المديرة التنفيذية بيلار بالاسيا على اهتمامها الكبير في المشروع، واستقبالها دعاء وزهرة لإجراء المقابلات اليومية على مدى ثلاثة أيام في المقرّ الهادئ للمركز.

بالإضافة إلى شهادات دعاء، أجريت أيضاً العديد من المقابلات المهمة للكتاب. وأنا ممتنة كثيراً لهناء، وشكري، وسجى، ونوارة لإجابتهم عن كل أسئلتي ومنحي الكثير من المعلومات عن حياتهم العائلية، وعن شخصية دعاء، وحكاية حب دعاء وباسم. أما مقابلاتي

مع أختَي دعاء، آية في لبنان وأسمى في الأردن، فقد زودتني بمعلومات حول شخصية دعاء، وكفاحها لقبول موت باسم.

أريد أن أشكر أيضاً الطبيب في مصر الذي يفضِّل أن يبقى اسمه مهجولاً، لأنه أخبرني بشغف عن الوضع الصحي الدقيق لدعاء وصحة باسم التعيسة، وكذلك عن تفاؤلهما وحبهما الكبير لبعضهما.

شكر خاص إلى سفانتي سوميزلاف من مجموعة أوفن، شركة الشحن البحرية في هامبورغ، ألمانيا. فالسفينة التي أنقذت دعاء، جاي بي أو اليابان، واحدة من الأسطول البحري للشركة. كان سفانتي متعاوناً جداً في مساعدتنا على إيجاد منقذي دعاء. وقد طلب من قسم الموظفين إيجاد الرجال الثلاثة الذين كانوا مسؤولين عن السفينة في ذلك اليوم، الكابتن فلاديسلاف أكيموف، والمساعد دميترو زبيتنياف، والمهندس فلاديسلاف داليكيس، والذين أجابوا عن أسئلتي بالتفصيل. ساعدتني تلك المقابلات في ما يتعلق بتوقيت الإنقاذ، وأضافت تفاصيل إلى الحكاية التي لم تذكرها دعاء نظراً لوضعها الصحي؛ مثل قرار القبطان البحث عن ناجين رغم امتناع السفن التجارية الأخرى عن مهمة التفتيش بسبب الرؤية السيئة والبحر الهائج، والوقت الذي سمعوا فيه صراخها، وكيف نجحوا أخيراً في الوصول إليها، والإجراءات الطبية التي اعتمدوها مع الأشخاص الذين تم إنقاذهم، وكيف ماتت ملاك.

أريد أن أشكر أيضاً القبطانين جون فراغكيادوكيس وأنطونيوس

كولياس من القوة الجوية اليونانية، لأنهما منحاني تفاصيل مهمة حول المروحية التي أنقذت دعاء وماسا واللاجئين الآخرين، بالإضافة إلى شريط الفيديو الذي جرى تصويره أثناء عملية الإنقاذ. بالنسبة إليهما، كانت عملية الإنقاذ تلك مجرد عمل روتيني، ولكنهما لا يزالان يذكران تلك الحادثة تحديداً بسبب اشتمالها على امرأة شابة وطفلة كانتا فعلاً على شفير الموت ولكنهما صمدتا وسط البحر الأبيض المتوسط لفترة طويلة.

أشعر بالامتنان لأروفاسي باتل وديان غودمان على جهودهما في العمل مع الحكومات اليونانية والمصرية والسويدية للم شمل دعاء وعائلتها. فبفضلهم حصلت دعاء على أمل جديد.

شكر كبير إلى مصوّر "هيومانز أوف نيويورك"، براندون ستانتون، والكاتبين خالد حسيني ونيل غايمن، وزميلتي كوكو كامبل على الدعم الكبير للمشروع.

صحيح أنني ألفت الكتاب بقدرتي الشخصية، لكن أنطونيو غوتيريس، المسؤول آنذاك عن مفوضية شؤون اللاجئين في الأمم المتحدة، دعم المشروع لثقته بأنه سيوفر أداة قوية للتعاطف مع اللاجئين. أريد أن أشير إلى أن معظم عائدات هذا الكتاب سيتم وهبها لدعم اللاجئين.

تم تأليف هذا الكتاب في وقت كانت فيه أزمة اللاجئين في

أوروبـا تتصـدر عناويـن الأخبار، وكان عملي فـي ذروته مع مفوضية اللاجئين في الأمم المتحدة. أشـكر كثيراً زوجي بيتر، وولديّ أليسـي وداني، لقبولهم تمضيتي أمسياتي وعطلات نهاية الأسبوع في تأليف الكتاب، ولتشجيعهم الدائم لي.

مُلحَقُ صُوَر

© Doaa Al Zamel

دعاء في مصر

© Doaa Al Zamel

باسم

© Isa Lange

أمل أقوى من البحر

© Offen Tankers

عبر وكلاء شركة البواخر الألمانية استطعت الوصول الى عنوان دعاء

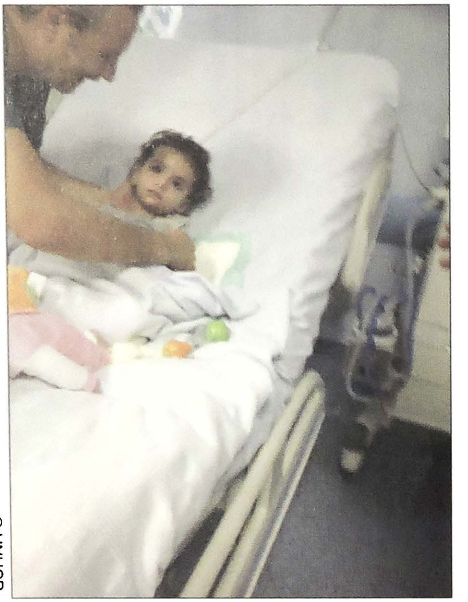

© UNHCR

ماسة تتعافي في مستشفى الأطفال

© Melissa Fleming

زيارتي لماسة في الميتم في اليونان

© UNHCR

دعاء تتقبل جائزتها

© OPEC Fund for International Development

أثناء حفل منح الجائزة

© Melissa Fleming

دعاء تكلم والدتها

© Melissa Fleming

مقابلتي مع دعاء في أثينا بحضور زهراء مكاوي

© Zahra Mackaoui

في البيت الجديد تحت الثلوج

© Sara Adelhult

دعاء تتابع دراستها

© Sara Adelhult

دعاء وأخواتها